مذكرات بلجريف

مستشار حكومة البحرين سابقاً

تأليف: السير تشارلز بلجريف

ترجمة: مهدي عبد الله

الطبعة الاولى 1411 هـ ـ 1991 م

اهداء

إلى أم أيمن

رفيقة الدّرب

أُهدي باكورة أعمالي

مهدي عبد الله

المترجم

ـ مهدي عبد الله

ـ بحريني الجنسية

ـ بعد إكماله الثانوية العامة، حصل على بعثة لدراسة الهندسة في الجامعة الأمريكية في بيروت حيث أمضى ثلاث سنوات هناك، لكنه لم يستكمل دراسته.

ـ حصل على شهادات في مجال برمجة الكومبيوتر والمحاسبة واللغة الإنجليزية.

ـ عمل مترجماً ومحرّراً في العديد من الصحف والمجلات المحليّة.

ـ له إهتمامات بكتابة القصة القصيرة وترجمة المواضيع المتعلقة بتاريخ البحرين الحديث، كما يهوى التصوير الفوتوغرافي.

ـ يشغل حالياً منصب مساعد سكرتير مجلس الإدارة بالشركة العربية لبناء وإصلاح السفن (أسري) في البحرين.

ـ عضو مجلس إدارة نادي جد حفص الثقافي والرياضي.

شكر واجب

أتقدم بالشكر إلى الاستاذ علي سيّار، رئيس تحرير مجلة "صدى الأسبوع" البحرينية، الذي أتاح لي الفرصة لترجمة الكتاب، كما أشكر أسرة تحرير المجلة على تعاونها معي لإخراج حلقاته بالصورة اللائقة، وأخص بالذكر الصديق الشاعر أشرف عامر والمخرج عبد العزيز الحميد.

م. ع

الفصل الأول

" التايمز" وراء عملي في البحرين!

في صباح يوم العاشر من أغسطس 1925، كنت أتناول طعام الافطار في شقتي الكائنة في تشلسيا. وبعد أن إنتهيت من افطاري أخذت أتصفح جريدة التايمز، ولفت نظري الإعلان التالي في زاوية "الوظائف الشاغرة":

"مطلوب شاب يتراوح عمره بين 22 إلى 28 سنة على أن يكون جامعياً أو أنهى الدراسة العامة وذلك للعمل في دولة شرقية.

يعطى المرشح المناسب راتباً جيداً. ويجب أن يكون المتقدم لائقاً جسمانياً، وله معارف كثيرون يمكن الرجوع إليهم. الطلاقة في اللغة الانجليزية عامل مساعد للقبول. يرجى الكتابة إلى جريدة التايمز".

كنت وقتها في إجازة بعد أن مضيت عامين في تنجانيقا بشرق أفريقيا حيث كنت أعمل ضابطاً إدارياً في قسم خدمات المستعمرات وكان هناك أمل ضئيل بعودتي إلى تلك البلاد، بالإضافة إلى إنني أعتزم الزواج، وكنت أرى أن لا مستقبل مشرقاً ينتظرني في تلك الوظيفة بمرتبها المحدود الّذي أحصل عليه من العمل في ذلك القسم.

قبل الذهاب إلى أفريقيا، كنت ضابطاً احتياطياً في الجيش بعد أن درست في جامعة اكسفورد وحصلت على شهادة O.T.C، وقد عملت في خدمة الجيش في السودان وفلسطين ومصر، وتعرّفت خلال خدمتي في هذه البلدان العربية على العديد من الاصدقاء وتعلمت التحدث باللهجة المصرية ولكن ليس إلى درجة الإتقان.

وكان أن كتبت إلى الجريدة ارشح نفسي لشغل الوظيفة المعلن عنها ربما بداعي الفضول أكثر مما كنت اتوقع بأن ذلك قد يؤدي إلى شئ ما في المستقبل.

وبعدها بأيام استلمت رسالة تتضمن أسئلة كثيرة عن شخصي أكثر من الأسئلة الموجهة لمعرفة قدراتي الوظيفية .

لذلك رأيت قبل أن أجيب عن الأسئلة ان استشير شخصين خبيرين بأُمور الحياة وعلى معرفة بالعالم. أحدهما قال لي أن هذه الوظيفة غير مأمونة العواقب ومشبوهة،بينما قال لي الشخص الآخر: من الأفضل أن تبقى هنا.

لكن السير ريجنالد ونجيت الذي عملت تحت خدمته في السودان نصحني بمتابعة الموضوع. وقد أخذت بنصيحته وأجبت على إستفسارات الرسالة. وكان من ضمن الاسئلة سؤال حول هواياتي، وذكرت في ردي على هذا السؤال بأنني أهوى الرسم.. وقد عَلمتُ فيما بعد، أن هذه الهواية كانت سبباً كبيراً في تقليل فرصتي للحصول على الوظيفة.

ولا زلت حتّى اليوم لا أفهم كيف ينظر إلى الرسم بعين الشك والحذر!!

بعدها بأيام دعيت لحضور مقابلة بفندق يقع في وست إند حيث التقيت مع رجل بدا من هيئته أنه غير عادي ومليئ بالنشاط وله لحية بارزة. وقد سألني أسئلة كثيرة لا حصر لها وبعـدها أخبرنـي أن الوظيفة ستكون في البحرين بالخليج العربي.

كانت معلوماتي عن الخليج سطحية جداً، وأذكر أن طاقم السفينة التي نقلتني في طريق عـودتي من الإجازة وصفه لي بأنه "جهنم" اما البحرين فلم أكن أعرف عنها شيئاً. وقال لي الرجل الّذي قابلني وهو الميجور كليف ديلي، من قسم الخدمات السياسية الهندية منهياً المقابلة بأن هناك عدداً كبيـراً مـن المرشحين لهذه الوظيفة.

بعد المقابلة رأيت نفسي في شوق للحصول على الوظيفة، وعندها حاولت أن أجمـع كـل مـا أستطيعه من المعلومات عن البحرين. لم يكن أحد قد سمع عن ذلك البلد من قبل وظن أصدقائي أنه من العيب جداً أن يعلن عن وظيفة ذات مسؤولية حكومية في زاوية الوظائف الشاغرة بجريدة التايمز.

وفجأة ورد إسم البحرين ضمن الأخبار، حيث ضربت عاصفة شديدة الخليج العربـي وتعـرض العديد من قوارب أسطول صيد اللؤلؤ للغرق وذكرت الصحف البريطانية بعض المعلومات الخاطئة عن جزر البحرين والتي قرأتها بتلهف.

ولا يزال شعب البحرين إلى اليوم يتذكر تلك السنة المشهورة لديه والمعروفة بإسم "سنة الطبعة" حيث يؤرخ بها للاحداث التي وقعت في البحرين على أنها قبل الطبعة أو بعدها.

ثم دعيت لحضور مقابلة أخرى في لندن، هذه المرة مع الكولونيل بريدوكس المقيم البريطاني في الخليج الذي أوضح لي بأن البحرين إمارة عربية مستقلة تربطها علاقة معاهدة حميمة مـع بريطانيـا لعشرات السنين.

وأضاف الكولونيل أن الحاكم الحالي للبحرين الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة قـد زار إنجلتـرا مؤخراً لأول مرة وأعرب عن رغبته في توظيف شخص إنجليزي كمستشار له. واستطرد الكولونيـل: إنه نظراً لعدم توفر الشخص المناسب لهذا المنصب رأى الوكيل السياسي كليف ديلي أن ينشر إعلانـاً عن تلك الوظيفة في التايمز.

ثم جاءت اللحظة الفاصلة في مكتب الهند بلندن الّذي كان يختص بشؤون الخليج حيـث قـابلني هناك السير آثر باثرمان المستشار السياسي لوزير الخارجية لشؤون الهند الّذي أعرب عن قبوله لـي لشغل منصب مستشار الشيخ براتب قدره 720 جنيهاً إسترلينياً سنوياً بالإضافة إلـى عـلاوة شـهرية مقدارها 15 جنيهاً، وكان هذا العرض مغرباً بالنسبة لي قياساً إلى رواتب تلك الأيام.

وكان أحد شروط التعيين ألاّ آخذ إجازة بعد إكمال أربع سنوات من العمل وقد وافقت على هـذا الشرط.. لكنني بعد أن عشت في البحرين وجربت صيفها الملتهب الحـرارة قبـل عصـر المـراوح الكهربائية والثلاجات والمياه الموصلة للبيوت، طلبت من الشيخ أن يعطيني إجازة مرة واحدة كل سنتين وقد وافق الشيخ على ذلك.

وبناء على نصحية الميجور كليف ديلي التحقت بمعهد الدراسات الأفريقية والشرقية لمدة ثلاثة أشهر لتقوية حصيلتي من اللغة العربية وللتحدث بصورة سليمة.

في يناير من عام 1926 تمت خطوبتي على مارجوري لبل باريت لينارد التي كان والداها صديقين قديمين لعائلتنا. ولم تكن لأحد من أفراد العائلتين أية علاقة خاصة بالشرق. كما لم أكن أنا أو خطيبتي في ذلك الوقت نتصور الظروف المعيشية البدائية المتعبة التي سنواجهها خلال سنواتنا الأولى التي سنقضيها في البحرين.

قبل السفر، أبلغني الميجور ديلي بأنه بإمكاني أن أنفق مبلغ 200 جنيه لشراء أثاث للبيت الذي تم بناؤه خصيصاً لي في البحرين.. وفي تلك الأيام كان هناك شئ قليل جداً يمكن ان يشتريه الناس لاستعمالهم الخاص ولذلك طلبت تزويدي بمؤونة من الخضروات ومن الأطعمة المعلبة لفترة سنة كاملة.

وقد اكتشفت إنني إرتكبت خطأ بطلب كميات كبيرة من علب طحين الكعك "والكستر" حيث يندر استعمالهما في البحرين.

تزوجت في 27 فبراير 1926 بكنيسة القديس مارك في برايتون وكان حفل الزواج كبيراً وممتعاً. وعند ذهابنا للندن أخبرت زوجتي بأنني لا أعتقد بأننا يجب أن نبقى في البحرين لأكثر من عشر سنوات كحد أقصى.

مكثنا خمسة أيام في لندن ثم بدأنا رحلة شهر العسل في طريقنا إلى البحرين. وكان أول خط في الرحلة هو التوجه بالقطار إلى سويسرا حيث قضينا عدة أيام ركبنا بعدها سفينة نقلتنا إلى ميناء الاسكندرية ومنها إلى القاهرة.. وبعد قضاء ليلة واحدة في القاهرة استقللنا قطاراً متجهاً إلى حيفا بفلسطين.. وهي قرية جميلة وهادئة. ومن حيفا ركبنا السيارات إلى بغداد عبر بيروت وطرابلس وبعلبك "والرطبة" وكانت السيارات التي ركبنا فيها مكشوفة تقريباً، والرحلة شاقة ومرهقة جداً.

عموماً كان السفر عبر الصحراء مغامرة غير مأمونة حيث كان رجال القبائل من الدروز في حالة ثورة وتمرد ضد الفرنسيين وكان هناك خطر دائم من مهاجمتهم لنا. وصلنا بغداد ونحن متسخين جداً ومتعبين.

وبعد أن بقينا ليلة واحدة فيها انطلقنا بالقطار إلى البصرة للحاق بالسفينة التي تنقل البريد الخاص بالهند (البريطانية) كل أسبوعين مرة واحدة مروراً بالبحرين. لكن لسوء حظنا، كانت السفينة قد أبحرت قبل موعدها على غير المعتاد... لذلك فاتتنا فرصة السفر على متنها.

في ذلك الوقت كان لديّ القليل من المال، ولم أكن أعرف أحداً في البصرة وخشيت أن يحدث لنا مكروه أثناء فترة الانتظار التي امتدت لأسبوعين فقمت بإرسال برقية إلى الكولونيل (بريد وكس) في مدينة بوشهر بإيران أساله فيها عما ينبغي عمله.. ولحسن حظي قام الكولونيل بعد استلام برقيتي بترتيب نقلي في سفينة حربية متجهة إلى الهند مروراً ببوشهر.

قضينا أنا زوجتي ليلة واحدة في منزل الكولونيل (بريد وكس) ببوشهر التي كانت واحدة من أهم الموانئ سابقاً ولكنها اصبحت الآن مليئة بالدكاكين الخالية التي يبدو انها في طريقها إلى الانقراض.

هذه المدينة الفارسية الرئيسية هي أقرب ميناء للبحرين. وعبر هذه المدينـــة هـــاجم الايرانيـــون البحرين واستطاعوا أن يحكموا سيطرتهم عليها لفترات متفاوتة من تاريخها.. لكنهم لم يكو نوا الدولـــة الوحيدة التي سيطرت على البحرين.

فقد احتلها البرتغاليون لفترة تقارب المائة عام إلى أن تم طردهم على أيدي الفرس والعرب مـــن سكان البحرين في عام 1602.

وقد حكم الايرانيون جزر البحرين حتّى تم دحرهم بواسطة العمانيين تحت ســيطرة الوهـــابيين، ولكن ولمرة أخرى استطاع حاكم بوشهر أن يدخل البحرين ويسيطر عليها في منتصف القرن الثـــامن عشر، على أن الأمر لم يطلق للايرانيين فقد تمت هزيمتهم وطردهم على يد آل خليفة أجـــداد الحـــاكم الحالي للبحرين الذين هاجموا الجزيرة من الزبارة على الساحل القطري حيث كانوا يقطنون. وهكـــذا ومنذ عام 1783 أصبح آل خليفة هم حكام البحرين حتّى الآن.

كانت تلك هي المرة الأولى والوحيدة التي تحط فيها قدماي على أرض فارســية وكـــان أســـفي عظيماً لأنني لم أتمكن طوال حياتي من رؤية المدن الفارسية الجميلة. ويعود السبب في ذلـــك إلـــى ان إيران كانت تطالب بالبحرين باعتبارها تابعة لها.

في اليوم التالي ركبنا سفينة البرقيات باتريك ستيوارات التي كانت متجهة إلى البحـــرين، وبعـــد قضاء ليلة صعبة في البحر وقفت السفينة على بعد ثلاثة أميال من ساحل الجزيرة الطويلة والمنخفضة. كان البحر ساعتها هادئاً ومياهه خضراء لامعة، وعلى الساحل إنتشرت أشجار النخيل، وكـــان قبالـــة المرسى الذي وقفنا فيه مدينة، وإلى الشرق على بعد أميال قليلة توجد مدينـــة أخـــرى علـــى جزيـــرة مجاورة. وتجمعت قوارب صغيرة لتنقل الأهالي الذين يرتدون الثياب البيضاء عبر البحر إلـــى هـــاتين المدينتين.

لقد وصلنا إلى نهاية رحلتنا: إذن هذه هي البحرين..!

الفصل الثاني

الشيخ حمد تولى رئاسة البلدية لتأخذ قراراتها قوة القانون!!

نزلنا من السفينة إلى قارب صغير (لنش) في المياه الضحلة التي تبعد ثلاثة أميال عن الســـاحل وبعد قليل وصلنا إلى رصيف حجري (الفُرضة) حيث كان الميجور ديلي في إستقبالنا.

تذكرت وأنا أطأ أرض "الفرضة" اللورد كروزن نائب ملكة بريطانيا في الهند عندما زار البحرين عام 1901 م حيث لم يكن الرصيف قد بني بعد...

وقد تم يومها نقل ذلك الرجل المهم جداً في قارب خاص وهو يجلس على كرسي شد إلى ذلـــك "اللنش".

وبعد سنوات من هذه الحادثة نُقل أحد المقيمين السياسيين بنفس الطريقة بحجة أنه كــان مصــاباً بداء المفاصل ولا يقوى على الحركة أو تحمل اهتزازات القارب وما كان ذلك صــحيحاً وإنمــا كــان الرجل يريد أن يقلد اللورد!!

بعد بناء الرصيف، لم تكن عملية نزول الشخصيات الرسمية تجري بصورة لائقة بمقامها: إذ كان على هذه الشخصيات أن تقفز من قارب متحرك إلى درجات سلم الرصيف غير الثابتة، وعادة ما تكون في استقبالها فرقة الاستقبال إلى جانب الحرس الشرفي وفرقة الشرطة.

اما اليوم فالناس ــ في البحرين ــ أو معظمهم يسافرون جواً أو عن طريق البحر لكن بســهولة أكثر، إذ أصبح باستطاعة القوارب أن تنقل المسافرين من السفينة إلى الرصيف الممتد مسافة ربع ميل فقط داخل البحر، بكل يسر.

مع ذلك ما زالت السفن ترسو على بعد ثلاثة أميال من "الفرضة" .

α α α

استقبلنا الميجور ديلي على الرصيف وكان قد وصل إلى هناك بسيارته...

α α α

بعد ان رحب الرجل بنا.. أخذنا معه في سيارته في جولة بالمنامة حيــث شــاهدنا الســوق ذي الشوارع (الازقة) شديدة الضيق ومن ثم اتجهنا إلى الوكالة (القنصلية) البريطانيــة المنتصــبة علــى الساحل... كان مبناها ضخماً وبه شرفات ونوافذ كثيرة.. وقد تم تشييده سنة 1900 م بتكلفة قدرها ألفي جنيه إسترليني... وكان الناس يعتبرونه في ذلك الوقت المبنى الاكثر جمالاً واتساعاً في البحرين... وقد أجريت بعض التعديلات والتوسيعات عليه خلال النصف قرن الماضي.

وفي سنة 1954 إنهار سقف المبنى دون سابق إنذار وحطم بذلك غرفة الأكل بعد لحظات مــن انتهاء المقيمين من تناولهم الطعام في نفس المكان.

وعلى أثر ذلك الحادث تم تشييد مبنى جديد في عام 1955.

هناك استقبلتنا زوجة الميجور (ديلي) بحفاوة بالغة وتم تعريفنا بالشخصيات القيادية في هذا البلد.

ونظراً لوصولنا في شهر رمضان فقد كان المكان هادئاً جداً.

مدينتا المنامة والمحرق كانتا نموذجين للمدن العربية الساحلية، إذ كانت البيــوت مشــيدة مــن الصخور المستخرجة من البحر... وقليل منها كان يتألف من طابقين أو أكثر.

أما الازقة والطرق داخل المدينتين فقد كانت جداً ضيقة ومتعرجة والدكاكين صغيرة ذات أبواب خشبية ولا توجد إلاّ بضائع قليلة ذات منشأ أوروبي.

أما الاسماك والخضروات واللحوم فقد كانت تباع في محلات صغيرة مكشوفة (فرشات).

وكانت المباني الوحيدة الملفتة للانتباه: الوكالة البريطانية وبيوت الإرسالية الامريكية التبشيرية، ومكتب شركة ما بين النهرين وفارس، وكيلة خطوط الملاحة الهندية البريطانية في البحرين.

بعد أيام قليلة من وصولنا أخذني الميجور ديلي إلى المكاتب الحكومية وهي: مبنى الجمارك، ومكتب الشيخ، والمحكمة، وكلها موجودة في بيتين آيلين للسقوط قرب الميناء... وكان معظم الموظفين والكتاب من الهنود العاملين تحت إشراف كلودي جيردينير ضابط الجمارك الانجليزي.

كما كان هناك ضابط شرطة إنجليزي يعمل هو الآخر معهم وهو من الجيش الهندي.. وكان الرجلان هما المسؤولين الوحيدين يعملان في خدمة الشيخ.

رئيس مكتب الشيخ حمد إسمه الحاج صقر الزياني، وهو رجل طاعن في السن ذو شخصية جذابة... كما يعرف كل كبيرة وصغيرة عن كل شخص في البحرين.. وكان لهذا الرجل فضل تعليمي الطريقة التي يجب ان أتعامل بها مع النّاس بحسب مكانتهم وكان مواظباً على العمل في مكتبه حتّى وفاته.. وكان الشابان اللذان يعملان تحت إشرافه يتكلمان القليل من الانجليزية.

أما مكتب الشرطة فقد كان موجوداً في قلعة خلف المدينة فيما كان مركز الشرطة يقع وسط السوق بأحد الدكاكين.

في ذلك الوقت لم يكن يوجد بالبحرين سوى مدرسة واحدة أما البلدية فكانت بالمنامة ويرأسها الشيخ حمد بنفسه... وذلك حتّى يضفي على القرارات التي تتخذها صبغة القانون.

كان لدى البعثة التبشيرية الأمريكية مستشفى صغير يعمل به مساعد جراح ملحق بالوكالة، وبه أُسرّة قليلة في الطابق الأرضي في بيته ويحمل إسم مستشفى الملكة فكتوريا التذكاري ذا الشهرة الواسعة.

كما كانت طرقات المدينة غير معبدة، والطرق المؤدية إلى داخل الجزيرة يغلب عليها الطابع الصحراوي.

اما البيوت فقد كان معظمها مسقفاً بسعف النخيل والحصر، وتسمى الحجرة الواحدة منها "برستي".

الماء الذي يشربه الناس كان يجلب من العيون الجارية.. وهو غير صحي، مع ذلك كان يباع في السوق!!

أما الماء الذي يستخرج من أحد الآبار التي تقع على بعد عشرة أميال من المنامة، فقد كان يباع بسعر مرتفع جداً، إذ كانوا ينقلونه في "قرب" من الجلد على ظهور الحمير، ورغم هذه الظروف البائسة كان النّاس أصحاء الأبدان، سعداء!!

α α α

بعد أيام انتقلنا إلى سكن آخر مؤقت في بيت عربي قديم يطل على مكاتب بصدد البناء، وتوجد فوق هذه المكاتب شقة تعد لسكننا في أقرب وقت.

كان الدور الأرضي للبيت الذي انتقلنا إليه والذي يستخدمه المالك مخزناً له، مليئاً بالفشران!!

والطابق العلوي مكون من غرفتين واسعتين، وعلى السطح يوجد المطبخ والحمام. ولــم تكــن الكهرباء قد دخلت بعد إلى البحرين ولذلك كان لزاماً علينا إستخدام الشموع والمصابيح الزيتيــة وقــد عانينا طويلاً من الحرارة المنبعثة من المصابيح التي تهدد بالانفجار، ومن ذوبان الشموع!!

الماء المالح كان يحمله إلينا رجل في تنكتين يعلقهما في عصا طويلة يحملها على كتفيه.

أما الماء الصالح للشرب فقد كان يأتينا من السفن التي كانت تحمل البريد للبحــرين مــرة كــل أسبوعين ولأن الثلج لم يكن متوفراً آنذاك فقد كنا نضع الماء في أوانٍ فخارية لتبريده، وكانت المرافق الصحية على النمط الهندي.

بالنسبة للطبخ فقد كان يتم في موضع طيني وذلك بإشعال النار في الفحم.

وكنا ندفع للخدم الثلاثة تسعة جنيهات شهرياً مقابل خدمتهم لنا وكنت أرى المبلــغ ــ آنــذاك ــ كبيراً لكنه تضاعف بعد ذلك ليصل في السنين الأخيرة إلى ستين جنيهاً.

من ناحية ثانية كانت جدران المطبخ الخشبية كثيرة الاهتزاز تصدر عنها أصوات مزعجة كلمــا هبت الرياح.

وعند بداية إقامتنا بالسكن الجديد سلَّمنا الميجور ديلي بعض القطع من الأثاث على سبيل الإعارة في انتظار وصول حاجياتنا من بريطانيا.

α α α

كان أول ظهور لي أنا وزوجتي في حفلة أقامتها البعثة الأمريكية وحضرتها الجالية الأوروبيــة في البحرين والتي كانت مكونة من أثني عشر شخصاً.

وقد أشاعت الشركة التي كان يتم بها إقامة المبنى، الذي سنقيم به مستقبلاً، فينا روح التفاؤل، إذ كان البناؤون ينجزون عملهم وهم يرددون الاغاني والاهازيج الشرقية.

ونتيجة عملية البناء اصبحت جميع قطع الأثاث بما في ذلك هدايا زواجنا مغطاة بطبقة سميكة من الغبار. رغم ذلك فقد استمتعنا بالحياة هناك.

α α α

بعد أربعة أيام من وصولنا دعانا الشيخ حمد إلى لقائه بقصره الكائن "بالصخر" وقد أقلتنا سيارتان يصحبنا الميجور ديلي وزوجته وابنه (7 سنوات) وعبد الله بن جبر الدوسري سكرتير الشيخ وهو رجل وسيم جداً من قبيلة الدواسر شبيه بكبار نجوم السينما هذا فضلاً عن الميجور فرانك هولمز.

وفرانك هولمز نيوزيلاندي مثل شركة بريطانية صغيرة حصلت على امتياز للتنقيب على الــنفط وحفر الآبار في البحرين من قبل الشيخ حمد. ولم يكن هذا الشخص عادياً فقد كان يذكرني "بسومرست موم" الأديب الشهير الذي عاش متنقلاً بين أرجاء العالم، يشتاق الجميع إلى سماع قصصه الحية عــن الناس الذين قابلهم في حياته، ورغم انّه كان يبدو كشخص استعماري ماكر فإن سلوكه ينطــوي علــى قدرة كبيرة في التعامل مع العرب لم يكن يتحدث إلاّ بلغته مع ذلك فهو يســتطيع التفــاهم جيــداً مــع

المواطنين البحرينيين الذين تعودوا على طريقته في الصراخ في وجوههم بل وضربهم على ظهورهم أحياناً!!

وهو رجل ضخم الجثة، أحمر الوجه بفعل حرارة الشمس ذو عينين زرقاوين يضع قبعة على رأسه، ويرتدي صدرية تحت معطفه دائماً حتّى في فصل الصيف ويحمل عصاً يستخدمها للمشي ويضرب بها سائقه إذا أسرع كثيراً أو أبطأ من اللزوم!!

كان دائماً يتباهى بأنه كان يعطي خدمه أجوراً اضافة مقابل معاملتهم بمثل هذه القسوة.

وكان الرجل واسع الخبرة والمعرفة في مجالات الأدب والتاريخ الطبيعي والانجيل وعلوم الفضاء والجيولوجيا، إضافة إلى إهتمامه بالتحف الشرقية المصنوعة في الصين.

لقد كان هولمز إحدى الشخصيات القليلة التي قابلناها في الأيام الأولى لوصولنا، والذي كان يتكلم لغتنا، وقد إزداد حبنا له بقدر تعرفنا عليه.

ويرجع الفضل في إكتشاف النفط في الخليج لهذا الرجل.. فقد كان واثقاً منذ البداية من وجود البترول في البحرين.

α α α

بعد مغادرتنا مدينة المنامة، سلكنا طريقاً ملتوياً تمتد على جانبيه بساتين النخيل.

وبعد ان إجترنا هذه البساتين دخلنا في الصحراء المفتوحة ثم صعدنا إلى مرتفع عبر مساحة واسعة من القبور والمدافن التلالية (تلال عالي)، ومن هناك شاهدنا جبل الدخان الذي لا يزيد ارتفاعه على مائة وخمسين قدماً في وسط الجزيرة.

كان قصر الشيخ حمد الواقع عند سفح الجبل وسط الصحراء مكوناً من مبان بيضاء اللون، وكانت المنطقة خالية من كل ما هو أخضر.

عند وصولنا إلى القصر شاهدنا رجلاً طويلاً مهيباً يرتدي ثياباً بيضاء.. ينتظرنا على الباب في ضوء القمر، وقد إرتدى (بشتاً) أبيض مصنوعاً من الحرير الفاخر وعلى رأسه "غترة" كشميرية عليها عقال ذهبي اللون. وكان ضوء القمر ينعكس على الخنجر الذهبي الذي يضعه في خصره، وعلى الخاتم الذي يضعه في أحد أصابع يده اليمنى، وكان نصل الخنجر جلدياً مطرزاً بخيوط حريرية ملونة.

وعندما إقتربنا منه قدمه لي الميجور ديلي قائلاً: هذا هو الشيخ حمد.

بدا الشيخ أنيقاً وسيماً جميل الوجه ذا عينين سوداوين ولحية سوداء، رحب بنا بحرارة ثم إستدار نحو الميجور ديلي قائلاً: "إذن هذا هو مستشاري؟".

ثم أخذني من يدي وقال لي: نرحب بك في البحرين ونتمنى أن تكون سعيداً بيننا!.

ومن حسن حظي أنني لم أجد صعوبة في فهم ما قاله الشيخ نظراً لمعرفتي باللغة العربية.

وعندما استقر بنا المقام بدأ الشيخ يسألني عن رحلتي الطويلة وعن الصعوبات التي واجهتها.

ثم جلسنا في غرفة الإستقبال "المجلس" المفروشة بالسجاد وقد بدت في صورة بديعة. وكان طول المجلس أربعين قدماً، جدرانه مكسوة بالزخارف العربية المصنوعة من الجبس وهوفن آيل للانقراض

في البحرين وكانت أبواب المجلس ونوافذه مصنوعة من خشب الساج المستورد من الهند ويتكون السقف من أعمدة شجر عليها شبكة من خطوط الخيزران المتواصلة ثم مجموعة من الحصر تغطيه طبقة سميكة من الطين حيث أن بناء الكونكريت لم يدخل البحرين بعد.

نادى الشيخ بالقهوة وبعد لحظات جاء أحد الخدم وصب لنا كمية قليلة منها من "دلة" نحاسية في فنجان وبعد شرب القهوة حان وقت العشاء فجاء الخدم يحملون الطعام في صوان نحاسية كبيرة وجاء خادم آخر فصب على أيدينا الماء من أبريق طويل، وبعد ذلك جلسنا حول "سفرة" دائرية صنعت من سعف النخيل، وتناولنا طعام "الغوزي" ونحن على الأرض، وكان الطعام لذيذاً.

أثناء الأكل كنا صامتين، إذ أن العرب يرون أن فترة الأكل هي للأكل فقط وليست للكلام أو النقاش.

بعد الإنتهاء من العشاء هممت بتدخين سيجارة لكن الميجور ديلي أشار علي بعدم التدخين لأن الشيخ حمد لا يدخن ولا يحب أن يرى من يدخن أمامه.

وبعد فترة طويلة من إكتشاف النفط كان أحد الضيوف الأمريكيين الكبار يتعشى مع الشيخ حمد، وكان يستمد معلوماته عن الشرق من الصحافة الأمريكية وهي معلومات خاطئة في معظمها تنقصها الدقة.

سألني هذا الرجل ونحن على مائدة العشاء فيما إذا كان الشيخ سيسمح له بأكل عين الماعز فأجبته:

كلا هذا شئ مرفوض هنا.

لكن الرجل لم يصمت، بل استمر في الحديث عن عين الماعز الأمر الذي أثار انتباه الشيخ فاستفسر عما يريده فأخبرته بذلك.

سألني الشيخ عما إذا كان الرجل جاداً في كلامه فأجبته:

"يبدو أنه جاد فعلاً". فسحب الشيخ أحد رؤوس الأغنام من على المائدة وأستخرج منها العين وسلمها للأمريكي. فاغتبط الرجل إغتباطاً. وإلتهمها كاملة أمام إستغرابنا ودهشتنا.

بعد العشاء تبادلنا أطراف الحديث وكان الشيخ متشوقاً لمعرفة تفاصيل رحلتي ومستغرباً لسفري بعد 5 أيام من زواجي، وقد بدأ القلق على وجهه.

ثم دار نقاش طويل بينه وبين الميجور ديلي حول الوضع في البحرين.

وعند مغادرتنا للقصر تم تعطيرنا بماء الورد ودارت المباخر بالبخور ذي الرائحة العبقة.

قضاة البحرين يشبهون شخصيات شكسبير

الشيخ خلف العصفور.. شعبيته موجودة في القرى

كان الشيخ حمد قلقاً بسبب انعدام استقرار الاوضاع وتدني مستوى الأمن. وقد شرح لي الميجور ديلي هذا الوضع الداخلي المعقد في البحرين والذي وصفته في مفكرتي بأنه خليط من الميلودراما

المسرحية... لكن فيما بعد، عندما قابلت الشخصيات الرئيسية في البلد، وجدت أن الوضع يشبه إلى حد كبير إحدى مسرحيات شكسبير، فبدلاً من الملوك والأمراء، يوجد الحاكم والشيوخ، وبدلاً من أساقفة الكنائس يوجد القضاة الدينيون الذين يشبهون في مظهرهم وفصاحتهم الشخصيات التي صوّرها شكسبير في مسرحياتها.

جاء الاحتفال بعيد الفطر بعد أيام قليلة من وصولنا للبحرين. وذهبنا مع الميجور ديلي إلى المحرق بواسطة "اللنش" التابع للقنصلية البريطانية، للسلام على الشيوخ الكبار، بينما ذهبت زوجاتنا لزيارة حرم الشيخ حمد. كانت زوجتي "مارجوري" معجبة جدا بحرم الشيخ وبذكائها كما أصبحت فيما بعد صديقة حميمة لها.

وكانت مارجوري تستشيرها في كثير من الأُمور والمشاكل الخاصة بمدارس البنات والتي تهتم بها حرم الشيخ حمد كثيراً.

كان الشيخ حمد يستقبل المهنئين بعيد الفطر في بيته الكائن بمدينة المحرق... وكان سموه يقدمني إلى أفراد العائلة الحاكمة من الشيوخ كما يقدمني إلى البحرينيين الذين يهنئونه على اختياره لي كمستشار خاص.

بعدها توجهنا إلى بيت الشيخ عيسى بن علي والد الشيخ حمد وهو منزل كبير يقع في وسط المحرق.

مشينا في الفناء الواسع للبيت الذي كان مكتظاً بالزوار المبتهجين بالعيد الذين يرتدون الملابس الجديدة ثم صعدنا السلم إلى الطابق العلوي حيث كان الشيخ عيسى بانتظارنا.

سلّمنا على الشيخ عيسى الذي كان يبدو عليه الكبر وهو بلحيته البيضاء وبملابسه الجميلة ذات الطراز القديم رغم أنه لا توجد فوارق كثيرة بين ملابس العرب القديمة والحديثة.

كان الشيخ عيسى بن علي رجلاً مهيباً ومبجلاً... وقد أصبح حاكماً للبحرين في عام 1869 .. وكان والده الشيخ علي قد تولى زمام الحكم قبله لكنه قتل في معركة داخلية اضطر على أثرها الشيخ عيسى للجوء إلى منطقة الزيارة الواقعة على الساحل الغربي من قطر.. وقد عانت البلاد التهديدات من قبل الاتراك والايرانيين الذين يدعي كل منهم بأحقيته في جزر البحرين.

قابلت بريطانيا هذه الادعاءات بالرفض الشديد... وكان وجود "رجال الحرب" البريطانيين في الخليج مانعا ورادعا لأية محاولة اعتداء على البحرين.

وقد عقد الشيخ عيسى عدداً من الاتفاقيات مع بريطانيا، احداها تتعلق بمنع استيراد وتصدير الاسلحة.

كما طلب الشيخ عيسى من الحكومة البريطانية أن تفرض سلطتها على الاجانب المقيمين في البحرين.

وفي عام 1914 اتخذ الشيخ قراراً بعدم التنقيب عن النفط أو إعطاء الامتيازات النفطية إلاّ بموافقة الحكومة البريطانية.

α α α

بعد زيارة الشيخ عيسى، توجهنا إلى بيت الشيخ محمد وهو أحد أبناء الشيخ وجلسنا مع ابنائه وأقاربه.

والشيخ محمد هو شاعر عائلة آل خليفة... ويهوى السفر كثيراً، وقد زار في السنوات الأخيرة من عمره معظم بقاع العالم.

وفي بيت الشيخ عبد الله بن عيسى الأخ الأصغر للشيخ حمد شربنا الشاي في أكواب مصنوعة من الأبنوس أهداها إليه الملك فيصل الأول ملك العراق... واستمتعنا بالحديث عن السياسة وعن الرحلتين اللتين قام بهما الشيخ إلى انجلترا في عام 1919 و1925.

كان الشيخ عبد الله أصغر بكثير من شقيقه الشيخ حمد. وكان رجلاً أنيقاً ذكياً وظريفاً. لقد عملت معه لسنوات عديدة حينما كان وزيراً للمعارف.

وسعدت بالعمل معه حيث كانت له شخصية قوية ذات تأثير كبير في البحرين.

حول بيوت الشيوخ كانت تجري رقصات العرضة التي يقرع فيها الراقصون العرب الطبول ويرفعون السيوف والبنادق أثناء غنائهم.

كانت الشوارع مليئة بالرجال والنساء والاطفال الذين يرتدون الملابس الجديدة ويمرّون على جيرانهم للتهنئة بالعيد... وكان الجو مشبعاً برائحة طبخات العيد الشهية بالاضافة إلى رائحة البخور الشرقي.

في اليوم التالي توجنا للسلام على بعض التجار والقضاة .. كان الشيخ "قاسم المهزع" قاضي الطائفة السنية في البحرين شخصية قوية رغم كبر سنه وضعف بصره الشديد.

وهو يعيش في بيت صغير متواضع وسط سوق المنامة.. كان صوته يثير الاعجاب وكانت كلماته المنتقاة وجُمَلُهُ الأخاذة، فوق مستوى الناس العاديين.. وصوته الجهوري يُسمعُ من قبل الجمهور المنتظر خارج البيت فضلاً عن الموجودين بالداخل.

كان رجلاً ذكياً وسياسياً بارعاً .. لقد عرفته جيداً وغالباً ما كنت أزوره لأخذ مشورته.

توفي الشيخ قاسم بعد 15 سنة تقريباً من مجيئي للبحرين، وفي رأيي انّه لم يوجد في البحرين ابداً قاضٍ مثله.

كانت زيارتنا الثانية للشيخ "خلف العصور" قاضي الطائفة الشيعية... وهذا الرجل المهيب جداً فارع الطول وضعيف البنية وذو قسمات نادرة اللون.

له لحية بيضاء وعينان ثاقبتان. كان الشيخ خلف العصفور يرتدي ملابس داكنة وعمامة بيضاء كبيرة ويحمل بين يديه عكازاً (عصا) مصنوعاً من الابنوس، ومحلى بالفضة في أعلاه. كانت للشيخ خلف شعبية عارمة في نفوس أهالي قرى البحرين.

وكانت ادارة الاوقاف بيد القضاة من رجال الدين الذين يصرفون دخل الاوقاف للاغراض الدينية مثل صيانة المساجد ومساعدة الحجاج الفقراء وللصلوات على الميت ومساعدة المدرسين القائمين بتعليم الدين.

الفصل الثالث

صرخات وطلقات نارية تخترق شرفة الحمام!!

كان مقر المحكمة غرفة صغيرة... مظلمة... ومغبرة!!

العرق يتحول إلى حشرة تتسلق أجسامنا!!

كانت الوظيفة الأولى التي أوكل لي الشيخ القيام بها هي منصب القاضي في محكمة البحرين (حديثة التكوين وقتذاك) حيث كانت لديّ خبرة سابقة بعمل المحاكم في مصر وتتجنيقا، فضلاً عن اجتيازي امتحانين في القانون أثناء خدمتي العسكرية...

فلقد كنت أهوى مادة القانون.. ربما لكون والدي محامياً وله عدة مؤلفات قانونية.. وربما ــ أيضاً ــ لأنه تعود أن يخبرني بحيثيات القضايا التي كان يترافع فيها كلما رجع من المحكمة.

تسلمت عملي في المحكمة. فوجدت ان البحرين لم تكن فيها قوانين مكتوبة... بل كانت الأحكام تعتمد على الحدس والفطرة السليمة، كانت احكاما تتسم بالتسرع... لا تصلح إلاّ لتسيير الأُمور البسيطة!!

في بداية عملي كنت أقضي ثلاثة أيام كل اسبوع في المحكمة وكنت أتأخر في بعضها إلى ما بعد الساعة الثالثة عصراً، الأمر الّذي سبّب ازعاجاً شديداً لزوجتي "مارجوري" لقضائها معظم فترات اليوم بمفردها، بالإضافة إلى اننا لم نكن نملك سيارة للتجول بها في المساء...

أما المحكمة، فقد كان مقرها يقع في إحدى غرف البيت القديم الذي سكنا فيه في بداية مجيئنا.. غرفة صغيرة مظلمة ومغبرة، لم تفلح المراوح اليدوية ــ التي كنا نستخدمها ــ في تخفيف شدة حرها!! أما القضاة العرب فقد كانوا يرتدون ثياباً فضفاضة في الصيف، ويشعرون بالارتياح بالرغم من شكواهم المستمرة من الحر!!

بعد فترة قصيرة تم تعيين الشيخ سلمان بن حمد قاضياً في المحكمة..

وبوجوده لم تعد البساطة والسرعة موجودة في ادارة المحاكم، فقد اصبحت الاجراءات أكثر تعقيداً وازدحمت المحاكم بالموظفين وامتلأت بالملفات مما جعل التأخير شيئاً متكرراً ومستمراً لفترة طويلة.. حتّى انّه في السنوات التالية كان هناك انتقاد للمحاكم وشكاوى بأن القضايا تستغرق وقتاً طويلاً!!

عقب عدة اشهر من العمل في المحكمة وجدت أنه من المستحيل قضاء مثل هذا الوقت الطويل بها...

لذلك أخذت اتردد عليها مرة واحدة في الاسبوع مع اثنين مع الشيوخ.. ثم بني مبنى المحكمة الذي ما يزال مستعملاً حتّى يومنا هذا (1959) وقد كان تصميمه حديثاً وجدرانه مزينة وله نوافذ كبيرة ومراوح كهربائية.

وكنت أنا وقاضيان عربيان نجلس على مقاعد جلدية حمراء على منصة وهناك حاجز يفصل بيننا وبين قاعة المحكمة وخلفنا يوجد شعار البحرين، وهو العلم الخليفي معلقاً على الجدار، وأمامنا كراسٍ خشبية طويلة يجلس عليها حوالي 30 شخصاً من عامة الحضور الذين تعودوا ان يسرعوا لحجز الأماكن عندما تفتح أبواب المحكمة صباح كل اثنين حيث تعرض القضايا الهامة.

وكان بين الناس الذين اعتادوا على الحضور بعض الأشخاص الذين قضوا معظم حياتهم في السجن بسبب سرقات صغيرة وعمليات نشل للجيوب أو لجرائم "سكر". كانت المحكمة تجذب أمثال هؤلاء الأشخاص كالمغناطيس وعندما لا يكونون في السجن لا تفوتهم قط فرصة سماع الأحكام في القضايا الموجهة ضد اصدقائهم أثناء محاكمتهم!!

كانت القضايا لعدة سنوات تسمع في غرفة القاضي، لكنني بعد افتتاح المحكمة الجديدة اقترحت أن نسمح لعامة الناس بحضور الجلسات، فوافق زملائي القضاة على هذا الاقتراح.. إلاّ أنهم كانوا يخشون من مقاطعة الحضور لهم اثناء سير المحاكمة.. وعلى عكس ما توقع القضاة، سلك الحضور سلوكا حسنا، ففي مرات قليلة فقط كان رجل الشرطة يأمرهم بالتزام الصمت داخل المحكمة.

وقد كان هناك كثير من الكلام بين اطراف القضايا وبين القضاة خصوصاً إذا كان الأشخاص المعنيون من كبار السن.

وتبدأ المحكمة عادة بإرتشافنا للقهوة حيث يشرب كل واحد منا ثلاثة فناجين ثم ننظر إلى القضايا التي يمررها علينا كاتب العدل الذي يجلس على الطرف ويسجل أقوال الشهود والمتهمين.

في تلك الأيام كانت معظم القضايا تتعلق بمشاكل الغوص، ولكي أتعامل مع هذه المشاكل قمت بوضع قانون للغوص يشمل جميع القوانين القديمة غير المكتوبة بالاضافة إلى القوانين الجديدة غير المعروفة.

واعترف انني شعرت بتعاطف مع الغواصين رغم قيامهم بتشويه سمعة المحكمة ونزاهتها في البداية، وقبل ان يتحقق الناس من ان القوانين التي وضعتها المحكمة كانت لمصلحتهم جميعا.

في احدى المرات قلت لاحد نواخذه الغوص الذي يستغل وينهب الغواصين التابعين له انك تشبه سمك القرش أكثر من كونك رجلاً، ولقد أدهشني وقتها أن الذي ذلك الرجل اعتبر كلامي هذا على انّه مديح له وراح يخبر اصدقائه بأن المستشار أطلق عليه هذا اللقب!!

كنا نمرر القضايا المتعلقة بالزواج والميراث إلى القضاة الدينيين الذين يحكمون فيها وفقا للشريعة الاسلامية، أما القضايا المتعلقة بالجمارك والضرائب فقد كنا نستشير مجلس التجارة الذي مضى على تأسيسه فترة طويلة.

وغالباً بعد ان تأتيني القضايا إلى المحكمة كانت تحل عن طريق التحكـيم بواسـطة اصـدقاء الأطراف المعنية.

وفي النزعات التي تخص الحدود بين الأراضي ومصائد الأسماك وحقوق إمتلاك المياه (التـي كانت كثيرة) كانت المحكمة تعيّن محكّماً وكل طرف من أطراف القضايا يعين ممثلاً له وبهذه الوسـيلة كانت القضايا تحل عادة.

ويسعد البحرينيون بعملهم كمصالحين أو كمحكمين ناجحين ويحصلون على الثناء والشكر بحـل مشاكل أصدقائهم وجيرانهم وكان الرجال المهتمون يرحبون بتخصيص جـزء مـن وقـتهم لمسـاعدة المحكمة رغم قيامهم بزيارات إلى بساتين بعيدة أو أماكن في البحر لمعاينة مصائد الاسماك (الحظور) لكنهم أصبحوا اليوم أقل رغبة في القيام بمثل هذه الواجبات.

وكان الشيخ سلمان نفسه يجلس مع الوكيل السياسي، في محكمة القضايا المشتركة حيث تسـمع القضايا التي يقدمها المواطنون البحرينيون ضد الاجانب فقد كانت الدعاوى تسمع في محكمة الوكالة ولا يزال هذا النظام مستمرا لكن في السنوات الأخيرة اصبحت هناك جنسيات كثيرة تحت رعاية حكومـة البحرين بالرغم من ان الاوروبيين والأمريكيين وشعوب دول الكومنولـث يحـاكمون فـي المحكمـة البريطانية.

في شهر يوليو تركنا ــ أنا وزوجتي ــ منزلنا المؤقت الذي كانت تبدو عليه ملامـح الانهيـار وانتقلنا إلى القلعة وهي مقر الشرطة البحرينية التي كانت تتكون من رجال أشداء أقوياء يبلـغ عـددهم 200 شرطي أجنبي تم توظيفهم في مسقط.

وكانت الشرطة تتكون من الأفريقيين السود والبلوش ورجال من سلالات مختلفة، وبعضهم كان يتحدث اللغة السواحيلية التي تعلمتها سابقاً في شرق أفريقيا.

وكان ضمن الشرطة ضابطان سابقان في الجيش الهندي والعديد من الجنود الهنود ذوي الرتـب الصغيرة وعندما رجع قائد الشرطة الانجليزي إلى بلاده، قرر الشيخ حمد ان اتسلم أنا منصـبه لفتـرة مؤقتة لكنني بقيت في ذلك المنصب وهو قائد شرطة البحرين حتّى عام 1955 !!

كان مبنى القلعة البديع المنظر يقع خلف المنامة، وقد بنيت القلعة في النصف الأول من القـرن الثامن عشر ابان حكم الملك نادر شاه، وهي تتكون من أربعة أبراج دائرية متصلة بجدران بها فتحات.. وفي وسط الجدار الشمالي المقابل للمدينة يوجد منزلنا.

وكنا نسكن بالطابق العلوي في غرف مفتوحة على شرفة واسعة حيث ننام.

وبعض الغرف تطل على ساحة سكن الجنود وعلى سكن القلعة ويعتبر هذا المنزل مريحاً جـداً قياساً إلى المكان الذي سكنا فيه سابقاً.

كان الطقس حاراً ورطباً وبدأنا نستشعر كيف يكون الصيف في الخليج كل عام. لقد كان الجـو حاراً لدرجة ان الفرد لا يستطيع أني حفظ جسمه جافاً مع تصبب العرق بغزارة وكنا نشعر أحياناً بمـا يشبه الحشرة تتسلق أجسامنا.. فتكتشف انّه العراق!! كانت هناك مروحة يدوية في احدى الغرف يقـوم

بتشغيلها أحد المساجين من الخارج، ولكنه خلال الليل يذهب هو والحارس الذي يراقبه إلى النوم فتتوقف المروحة عن العمل.

بالإضافة إلى الطقس المرهق، كان هناك شعور بالتوتر والقلق في مدينة المنامة، فقد انتشرت الرسائل المجهولة الهوية والموجهة إلى أشخاص بحرينيين وكانت الرسائل تربط في الاحجار الصغيرة وترمى إلى الشرفة التي نسكن فيها، ومعظمها يحتوي على عبارات الهجوم على بعض الأهالي المحليين.

في الصباح وأنا في طريقي إلى مكتب الشيخ حمد المطل على البحر كنت أشاهد بسوق المنامة الكلاب الضالة تجوب الطرقات وتسبب الأذى للمارة!!

في الثالث من أغسطس 1926 اطلق الرصاص على رئيس شرطة المنامة وهو رجل من الذين تم تجنيدهم وتوظيفهم محلياً وأصيب بجروح مختلفة بواسطة شخص مجهول...

وفي اليوم التالي وقع اطلاق نيران على القلعة.. كانت زوجتي مارجوري في الحمام عندما سمعت فجأة ضربات الرصاص المتواصلة على نافذة الحمام تلتها صرخات واستغاثات.. فخرجت بأسرع ما يمكن وجرت نحو الشرفة لتشاهد الميجور ديلي الوكيل السياسي البريطاني يقود سيارته بسرعة تجاه المدينة ورقبته مغطاة بقماش أحمر.. وفي الواقع، لم يكن ذلك قماشاً أحمر وإنما كان دماً لكنها لم تتحقق جيداً مما شاهدته!! وأرسلت "مارجوري" الطباخ وهو الخادم الوحيد في البيت لإبلاغي بالخبر!

جاء الخادم مسرعاً إلى مكتبي وقال لي وهو يلهث: هناك اطلاق نيران على القلعة وعدد كبير من الناس تعرضوا لضربات الرصاص.

وعندما سألته: من هو الذي يطلق الرصاص؟ وعلى من يطلقه؟ لم يكن يعرف الجواب.

فجريت بأقصى ما يمكن إلى القلعة وحينما اقتربت منها سمعت صيحات الناس وعويلهم، فاندفعت نحو منزلي لأرى إن كانت مارجوري سليمة أم لا، وبعد الاطمئنان عليها اتجهت نحو الثكنة العسكرية وعرفت حقيقة الأمر!

لقد كان الميجور ديلي يتحدث مع أحد الضباط الهنود في غرفة الأوامر العسكرية عندما اقتحم أحد الشرطة البلوش (وإسمه إسماعيل) الغرفة من نافذة مفتوحة واطلق الرصاص على الضابط في ظهره واخترقت الرصاصة جسمه وأصابت جزءا من أذن ديلي.

وكان هناك ضابط هندي آخر في الغرفة اراد أن يتحرك بسرعة لكنه عوجل بطلقات أخرى.

وحاول ديلي بكل شجاعة أن يقبض على الجندي لكنه جرحه في ستة أماكن مختلفة من جسمه بواسطة سكين كان يحمله معه قبل أن يستسلم! وقد قُتل الضابطان الهنديان وشفي ديلي تدريجياً.

عندما وصلت إلى مكان الحادث كان الشرطي مربوطاً في احدى الزنزانات. وكنت أؤمن دائما بأن هذه الحادثة فردية وناتجة عن اعتقاد الجندي البلوشي بأن رؤساءه الهنود درجوا على معاملته معاملة سيئة جداً.

في 22 نوفمبر 1957، وبعد احدى وثلاثين سنة من تلك الحادثة دخل شرطي بلوشي إلى غرفة الوحدة العسكرية في القلعة وأطلق النار على ضابط عراقي يدعى علوان أفندي، وذلك انتقاماً لما كـــان يشعر به من إهانات واذلال زائدين من قبل ذلك الضابط. وتقدم أحد الضباط العرب الموجودين بالغرفة نحو الرجل فعاجله الأخير بوابل من الرصاص تسبب في مقتله على الفور.. ثم فر الشرطي إلى الخارج وأطلق النار على حارس بوابة القلعة وجرحه ثم استسلم.

وقد اقيمت لكل من هذا الشرطي، والشرطي الذي قام بالجريمة الأولى في عام 1926، محاكمة وثبت خلالها ادانتهما وتم اعدامهما.

السادس من أغسطس كان عيد ميلاد زوجتي مارجوري، وكنت قد امضيت معظم اليوم في أخذ أقوال المتهمين والشهود، وفي عصر ذلك اليوم ذهبت مع مارجوري في قارب بحري لزيـــارة مركـــز للشرطة في احدى الجزر البحرينية.

واثناء عودتنا هبت عاصفة شديدة وأصبح التيار المائي عكس اتجاهنا فقمنا بالتجديف حتّى رسونا في منطقة بعيدة جداً على الساحل الجنوبي للبحرين، ولم نتمكن من العودة إلى القلعة إلاّ فجـــر اليـــوم التالي حيث سرت اشاعات عن اغتيالنا أثناء غيابنا.

في تلك الفترة وصلت قوات البحرية البريطانية إلى البحرين في مركبين شـــراعيين، وتمركـــز حرس القوات وهم يحملون البنادق والرشاشات بالقلعة.

وفي مرات قليلة كان الجنود يطلقون النار بالخطأ فيسبب ذلك الـــذعر والفـــزع فـــي الأحيـــاء المحيطة.

وفجأة قررت الوكالة أنه يجب على كل البريطانيين المتواجدين في البحرين الإقامة فـــي مبنـــى الوكالة فوراً، فتركنا مقتنياتنا وحوائجنا الشخصية في منزلنا بالقلعة التي سكن فيهـــا بعـــض الضـــباط البحريين الشبان وأتلفوا محتوياته..

وعندما ذهبت مارجوري إلى المنزل لجلب بعض الملابس صعقت من الفوضى وســـوء الحالـــة التي صار إليها، فقد وجدت كميات من البطاطس ملقات على الصواني الفضية، والأحذيـــة موضـــوعة على المائدة، كما وجدت رسالة قصيرة على طاولتها تشير إلى احتمال الاعتـــداء علـــيّ.. انزعجـــت مارجوري كثيرا للوضع المزري الذي أصبح عليه البيت حيث لم تتعود طوال سكننا بالقلعة على مثـــل هذه المتاعب من قبل.

أمضينا عدة أسابيع غير مريحة في مبنى الوكالة المزدحم جداً، والذي كـــان ممتلئـــاً بالضـــباط البريطانيين البحريين والخبراء القانونيين في مبنى المقيم السياسي، بالإضافة إليه وإلى موظفيه.

وكانت مارجوري هي المرأة الوحيدة في المبنى بعد سفر زوجة الميجور ديلي في الصيف.

كننا ننام في احدى زوايا الشرفة محاطين بأسرّة رجال وغالباً ما كنا نسمع محادثات فيما بيـــنهم من النوع الذي لا يعجبنا.

وكان كل فرد منا يعتقد بوجود مخطط واسع ضد البريطانيين، رغم عدم وجود دليل لاثبات هـذا الاعتقاد.

الرجل البلوشي الذي ارتكب جريمة القتل حوكم في محكمة الوكالة البريطانية نظرا لكونه أجنبيا، لكن قرار الاعدام كان حتميا.

وقد اقترحت البحرية البريطانية في ذلك الوقت شنق الرجل، وافترضت مسبقا بأنني بصفتي قائداً للشرطة سأوافق على اقتراحها وسأقوم بالترتيبات اللازمة لذلك، لكنني عارضت اعدام الرجل شـنقاً، وقلت لضباط البحرية: إذا كان الاعدام سيتم شنقاً، فإن رجلاً آخر غيري هو الذي سيتخذ هذا القرار.

وفي نهاية الأمر اعدم الرجل رمياً بالرصاص امام القلعة في صبيحة يـوم كئيـب وبحضـور جمهور كبير.

بعد تلك الحادثة، كانت جميع عمليات الاعدام تتم بنفس الطريقة وفي المتوسط كانت جرائم القتل في البحرين تقع بمعدل مرة واحدة كل سنتين تليها عمليات اطلاق النار على المجرمين.

أول ميزانية أعددتها للبحرين كانت 75.000 جنيه

خمسون سجينا فقط في دولة عددها 125.000 مواطن!!

بعد مضي عدة شهور من مجيئي إلى البحرين تم تسريح الشرطة.. وعاد أفرادها الأجانب إلـى مسقط... لكنهم بعد سنوات قليلة رجعوا إلى البحرين وحصلوا على وظائف فيها!! وكـإجراء مؤقـت جُلبت فصيلتان من جنود المشاة الهندية إلى البحرين، فسادت البلاد حالة هدوء استمرت لفترة.

وغادر الميجور ديلي البحرين في شهر سبتمبر 1926 بعد قضاء خمس سنوات فيها وهي تعتبر مدة طويلة في تلك الأيام بسبب مشقة الحياة وعدم توفر أسباب الراحة والمتعة. لقد أفاد ديلي البحـرين أكثر من أي معتمد سياسي آخر.

فقد كان الفضل في الاصلاحات والتعديلات الخاصة بالغوص وكان تنفيذ الاجراءات المتطـورة الأخرى يعود إلى مبادراته الشخصية!!.

القليل من البحرينيين والعرب جاءوا لتوديع ديلي حيث أن الشعور بالعرفان صفة نادرة بينهم!!! فهم بطبيعتهم غير عاطفيين، وهم ماديون وكثيرو السخرية وإعابة الآخرين.. ؟!!. وهـم لا يحتملـون تطبيق النظام ويعارضون أي شئ يحدّ من حريتهم الفردية حتّى ولو كان ذلك الشئ لمصلحتهم.

وبعد مرور سنوات على ذهاب ديلي، أصبحت سمعته حسنة أكثر مما كانت عليه أيام وجوده في البحرين، فقد عرف الناس وقدروا الأشياء النافعة الكثيرة التي حققها هذا الرجل لبلدهم!!

كنت أرى الشيخ حمد (حاكم البحرين) مرتين أو ثلاث كل أسبوع وكان يتحدث معي بحرية كاملة حتّى في المسائل التي تخص علاقته مع الحكومة البريطانية.

وقد كانت أول ميزانية حكومية أعددتها للبحرين تبلغ حوالي (75.000) جنيه إسترليني جـاءت كل ايراداتها تقريب من ضريبة الجمارك التي تفرض بنسبة 5% على البضائع المستوردة، وكان هـذا

المبلغ يصرف على الإدارة الحكومية والشرطة، وقائمة المدفوعات المدنية، وعلى الأعمال الرئيسـية.. مثل حفر آبار المياه وإقامة الطرق والشوارع، وإكمال أعمال تشييد القصر الجديد التي بدأت قبل مجيئي إلى البحرين.

α α α

في شهر نوفمبر انتقلنا إلى منزلنا الجديد الذي اكتمل بناؤه وجاء ذكره في الفصل الثـاني مـن الكتاب حيث عشنا فيه لمدة ثلاثين سنة لاحقة. وبعد أيام قليلة من انتقالنا، سافرنا ــ أنا وزوجتي ــ إلى الهند بغرض توظيف بعض جنود الجيش الهندي السابقين للخدمة في البحرين وقد ساعدتني فـي هـذه المهمة سلطات الجيش الهندي.

لكن في اليوم الذي غادرنا فيه البحرين وقعت حادثة أخرى. فقد تم إيقاظي من النوم قبيل الفجر بواسطة حشد من الأهالي القرويين لإبلاغي بتعرض قريتهم القريبة من المنامة إلى الهجوم.

وعلى الفور توجهت إلى تلك القرية، حتّى دون أن أتناول طعام افطاري!! الذي ندمت عليه كثيراً بعد ذلك.

وهناك.. رأيت مشهداً مؤسفاً حيث وجدت ثلاثة من أهالي القرية المصابين بجروح بليغة وجثـة رجل آخر ملقاة خارج منزله وكانت جثة أحد اللصوص ملقاة أرضاً عند مدخل القرية وهـو لا يـزال يقبض بيديه على حفنة من الحلى الذهبية التي سرقها، وهناك دلائل على وجود عدد كبير من اللصوص المصابين.

فقمت بإرسال دوريات الشرطة وفرق البحث التي تبينت ان الرجال المعتدين جاءوا عن طريـق البحر وفرّوا باستخدام قارب بعد القيام بعمليتهم ورجعت بسرعة إلى بيتـي وأنهيـت حـزم الحقائـب استعداداً للسفر ومررنا للسلام على الشيخ حمد في طريقنا مسرعين إلى الفرضة للحاق بمركب البريـد الذي سيأخذنا إلى كراتشي.

بعد شهور الإثارة التي عشناها في البحرين أمضينا عدة أيام مريحة وممتعة على ظهر السفينة. وعندما وصلت إلى كراتشي كان أول من قابلني ضابط النقل العسكري الذي كنت على معرفة سابقة به في انجلترا والذي بادرني بالقول "ما هي حقيقة قصة اطلاق النار على الوكيل السياسي فـي البحـرين وعلى السيدة التي كانت في الحمام؟؟".

فقدمت له زوجتي مارجوري قائلاً: هذه هي المرأة المعنية في سؤالك.. بإستطاعتها ان تخبـرك كيف حدث ذلك؟!

شعر الرجل بنوع من الحرج.. لكنه أحس استقبالنا ودعانا للعشاء.

بعد عودتنا مباشرة للبحرين وصلت الدفعة الأولى من الشرطة الهنود ذوي الأصول البنجابيـة، وفي نفس الوقت قمت بتوظيف ضابط بريطاني هو الكابتن بارك ليعمل ضابطاً لشرطة البحرين، وظل هذا الرجل يعمل في منصبه حتّى عودة رجال الشرطة البنجابيين إلى الهند والذين كانوا مجموعة جيدة

من الرجال وأدوا خدمات كثيرة لها.. لكنهم لم يتأقلموا مع البحرينيين والعرب المقيمين الـذين كـانوا ينظرون إليهم على أنهم مرتزقة أجانب يتقاضون أجوراً مرتفعة نظير عملهم.

في أحد الأيام اقترحت على الشيخ حمد أن تتشكل قوة الشرطة من المواطنين. وقد وافق علـى ذلك لكنه كان يشك بأننا سنحصل على الرجال الراغبين في الانضمام.

ووضعت إعلاناً دعيت فيه إلى الالتحاق بالشرطة براتب شهري يبلغ سبعة وعشرين روبية هندية إضافة إلى الطعام والبدلة الخاصة بالشرطة.

واليوم (1959) يحصل الشرطي على راتب يزيد عن مئتي "روبية" شهرياً. لم نكن نعاني من قلة المتقدمين في تلك الأيام ونظراً لكثرتهم تمكنت من اختيار الرجال أصحاب الاجسام السليمة والمناسـبة والذين يتمتعون بمستوى معين من الذكاء، وكان عدد كبير منهم من الشباب السـود المنحـدرين مـن سلالات العبيد الافريقيين.

كان رجال الشرطة من نفس النوعية التي تعاملت معها أثناء عملي السابق بالصحراء الغربية في أفريقيا.

فقد كانوا حريصين على التعلم والتدريب وكانوا يشعرون بالفخر والتباهي بمظهرهم العسـكري ودائما كانوا مبتسمين! وقد استمتعت باستعراض ومراقبة كل فوج جديد من المنضـمين مـن الشـباب صغار السن قليلي الخبرة، ومتابعة تطوّرهم إلى ان يصبحوا رجالاً جيدي التـدريب، أذكيـاء وأنيقـي المظهر.

وابدى هؤلاء الرجال الرغبة الحقيقية في تحسين مهاراتهم وقدراتهم العسكرية لدرجة أنني تمكنت بعد مرور فترة من الزمن من ترقية الأكفاء منهم إلى ضباط وإلى رتب قريبة من ذلك!!

وعندما أنهى رجال الشرطة البنجابيون فترة خدمتهم بالبحرين في عام 1932، كان المواطنـون المحليون على استعداد لتسلّم وظائفهم، ولم يبق في القلعة سوى بعض ضباط الشرطة البنجاب من ذوي الرتب الصغيرة الذين يعملون كمدرسين.

ولعدة سنوات، كانت الخدمة في الشرطة بالبحرين مهنة محبوبة من قبل جميع الأهالي، لكن مـع تقدم صناعة النفط وازدياد أعداد الشباب المتعلم أصبح من الصعب الحصول على دفعات جديـدة مـن الراغبين فيها.

فالبحرينيون المتعلمون الآن يفضلون العمل في شركة النفط (بابكو) ولا يرغبون الالتحاق بسلك الشرطة!! فلقد عام اليوم (1959) الحال كما كان عليه قبل ثلاثين سنة وأصبح أكثر من ثلاثة أربـاع رجال الشرطة من جنسيات عربية أخرى.

وبمرور السنوات كنت أشرف على أعمال تطوير جهاز الشرطة تدريجياً في مختلف الجوانب.

وبدأت في تكوني فرقة الجمال (الهجن) من الشباب السود الذين أدوا عملاً جيداً في حماية وخفر السواحل قبل ان تدخل سيارات الجيب واللاند روفر إلى البحرين وكان رجل الشرطة البحريني، الذي

يرتدي قبعة قرمزية اللون ويركب فوق جمل أبيض وخلفه أشجار النخيل، مـــادة خصـــبة للمصـــورّين الأوروبيين الذين يلتقطون صورا ملونة رائعة لهذا المنظر.

وأنشأت أنا أيضاً فرقة للخيّالة (الفرسان) حيث كان رجال الشرطة يمتطون الخيول العربية التي وفرها لهم الشيخ حمد.

أما اليوم فقلما نشاهد رجال الخيالة ما عدا في المناسبات الحكومية عندما يسيرون فـــي مقدمـــة سيارات ضيوف الدولة الكبار وخلفها، ويرتدي أفراد الخيالة نفس القبعات التـــي يرتـــديها (الهجانـــة) يحملون الاعلام ذات اللونين الأحمر والأبيض مما يشكل منظراً جذاباً!!

كما أسست فرقة موسيقية للشرطة من أبناء واخوة رجال الشرطة القدماء، والذين ينضمون للعمل معنا بعد وصولهم للسن القانونية.

وفي كل صباح، قبل تناول افطاري، كنت اتفقد طابور الشرطة ممتطيا صهوة فرسي العربـــي، وأقوم بجولة حول المدينة وفي السوق للتأكد من نظافة الشوارع وأرشد المسؤولين في البلدية إلى أماكن رمي القمامة (المزابل) المكتظة بالأوساخ.

وفي البداية قمت بنفسي بتعليم فرقة الموسيقى على العزف، وكنت أبدأ بالتصفير لهم وأســـمعهم اسطوانات الجرامافون الموسيقية عدة مرات حتّى تعودوا على الحانها بسرعة.

وقد وجدت أنهم يتمتعون بالحس والذوق الموسيقي وكانوا على خبرة كبيرة بدق الطبول. وكانت أول قطعة موسيقية عزفتها فرقة الشرطة هي المعزوفة الشهيرة "الزحف إلى جورجيا" والتـــي كانـــت تترنم بها صباح كل يوم أحد عندما تقوم الشرطة بسيرها المعتاد في مدينة المنامة.

ثم قمت بتوظيف أحد الجنود من الهنود السيخ ليعمل رئيساً للفرقة الموسيقية وهو رجل كبير في السن وذو شخصية محترمة وقام هذا الرجل بتعليم أفراد الفرقة قراءة النوتات الموسيقية، وهـــو الشـــئ الذي لم أدرسه قط في حياتي.

بعد ذلك زودت الفرقة بالآلات الموسيقية المرتفعة الثمن وبكميات من الكتب الموسيقية... ومـــن المقطوعات الموسيقية التي تعلمتها الشرطة ودأبت على عزفها "أجراس كنيسة سانت ماري" التي سئمتُ من كثرة سماعها وسعدتُ عندما ضاعت أحدى الآلات وقل الضجيج.

اضافة إلى ذلك كانت الفرقة تعزف الموسيقى بنشاط وحيوية كبيرين رغم بعض الأخطاء القليلة في النوتة!!

ان الايجابيات التي نتجت عن تكوين جهاز الشرطة من أفراد على دراية ومعرفة بالبلاد والشعب ولغته العربية فاقت السلبيات القليلة التي واجهناها ومن ضمن هذه السلبيات أنه عندما يقبض علـــى أي شخص نكتشف أنه إما أن يكون قريبا لفرد من أفراد الشرطة أو أحد جيرانهم.

وبصورة عامة نقول كانت شرطة البحرين ذات فعالية كبيرة ويرجع الفضل إليها فـــي اســـتتباب حالة الأمن في البحرين لسنوات طويلة.

وقد بلغ عدد السجناء في عام 1957 أقل من خمسين شخصاً وهو عدد ضئيل جداً بالنسبة لدولة يبلغ سكانها 125.000 نسمة وذلك عندما نقارنه بعدد أو نسبة السجناء في أي دولة شرقية.

القليل من أفراد الشرطة متعلمون، لكنهم رجال يمكن الاعتماد عليهم في الأوقاف الحرجة، ويتسم رجال الشرطة بالتضامن وروح الجماعة التي يفتقد إليها الشرطة الأجانب، وأصبح بعضهم ماهراً في فن البحث والتحقيق الجنائي.

كنت أعرف كل فرد يعمل في جهاز الشرطة وأعرف كل شئ عن عائلته وخلفيته. ومن الأوقات السعيدة التي قضيتها في البحرين وأتذكرها بإستمرار هي التي تعاملت فيها مع رجال الشرطة.

الفصل الرابع

شمس البحرين تحرق 33 بريطانيا!

محارات الخليج تشتهى ولا تؤكل!!

15 ألف جنيه للؤلؤة في الثلاثينات!!

20 ألف بحريني يعيشون على اللؤلؤ!!

في كتابه "رحلات في الجزيرة العربية"، ذكر جيه ويلستيد المتوفى في عام 1838 أن من بين المهام التي اسندت إلى البحرية الهندية التابعة لبريطانيا أن تجوب مصائد اللؤلؤ في الخليج العربي.

وأشار إلى حرارة الشمس الملتهبة (جداً) في هذه المنطقة قائلاً إنه لا توجد بقعة أخرى في العالم أعلى حرارة منها، مصوراً البحارة الذين يربطون رؤوسهم دائما باقمشة مبللة ويستلقون على ظهر مركب الغوص بانتظار نسمة هواء يستنشقونها.. ويحكى انّه في أحد أيام الصيف مات ثلاثة ضباط برتبة ملازم وثلاثون جندياً تابعون للفرقاطة الملكية المسمات "ليفربول" وذلك بسبب ضربة شمس أصابتهم والفرقاطة في طريقها من مسقط إلى بوشهر!!

وفي إحدى القصائد التي جاءت في كتاب "ضوء آسيا" للسير ادوين ارنولد الذي عاش في الفترة من 1832 ــ 1904 وصف حالة زوجات الغواصين اللواتي ينتظرن ازواجهن على رمال ساحل البحرين ويذرفن الدموع وهن شاحبات بينما يكافح الغواصون موجات البحر العاتية ويعودون في الليل إلى أكواخهم لملاقاة زوجاتهم بعد أن يحصلوا على نصيبهم من اللؤلؤ الثمين.

عندما جئت إلى البحرين، اكتشفت ان الصورة التي وصف بها هذا الشاعر الغواص البحريني وزوجته الشاحبة اللون غير دقيقة، لأن موسم صيد اللؤلؤ يستمر لمدة أربعة اشهر وعشرة ايام، ويمتد من شهر يونية حتّى شهر اكتوبر حيث يكون البحر حاراً وساكناً ولا تعود سفن الغوص خلال هذه الفترة إلى الساحل إلاّ مرة واحدة أو مرتين على الأكثر لغرض التزود بالمؤونة.

ولذلك فإن زيارات الغواص لعائلته نادرة جدا، كما أن وصف زوجات الغواصين الشديدات السمرة بالشحوب (أي اللون الأصفر) ليست هي الكلمة الملائمة.

وقد استشهدت بهذه القصيدة ليس لقيمتها الشعرية، وإنما لأنها الاشارة الوحيدة للبحرين من قبل شاعر انجليزي معروف في القرن التاسع عشر.

منذ وصولي للبحرين وحتى السنوات السبع التالية، كان ازدهار هذا البلد ووجوده يعتمد على تجارة اللؤلؤ... فعندما يكون الصيد جيدا ترتفع اسعار اللؤلؤ ويحصل الغواصون واصحاب مراكب الغوص وتجار اللؤلؤ على المال الوفير الذي ينفقونه في السوق...

ويستورد البائعون كمية أكبر من البضائع التي تفرض عليها الحكومة الضرائب الجمركية وهي المصدر الرئيسي لايراداتها...

ولم تكن هناك ضريبة على اللؤلؤ... والدخل الوحيد الذي تحصل عليه الحكومة من هذه التجارة هو مبالغ صغيرة تتقاضاها نظير تسجيل سفن الغوص.

لقد كانت صناعة اللؤلؤ صناعة مزدهرة توفر العمل لحوالي عشرين ألف رجل بحريني خلال موسم الصيد إلاّ أنه بمجرد ظهور اللؤلؤ الصناعي إلى الوجود تعرضت تجارة اللؤلؤ الطبيعي لهزة عنيفة لم تستطع حتّى الآن ان تتجاوزها وتستعيد حالتها السابقة، مع أن لآلئ الخليج العربي هي أبدع اللآلئ في العالم وهي مشهورة بهذه الصفة منذ قديم الزمان... ولعل أول إشارة إلى هذا الشئ جاءت بالنقوش الآشورية التي عثر عليها في مدينة النجف بالعراق والتي تقول "في بحر الرياح المتغيرة ـ أي الخليج العربي ـ يبحث التجار عن اللؤلؤ".. والكتاب القدماء وصفوا لآلئ الخليج بانها الأكثر جودة وامتيازاً!

ومنذ القرن التاسع وحتى القرن الرابع عشر الميلادي شرح الرحالة والجغرافيون العرب بدقة كيفية صيد اللؤلؤ وشرائه وبيعه... وقد أورد المسعودي، وهو مؤرخ عربي، في القرن التاسع، وصفا لعملية الغوص... وكانت البحرين بلا شك مركز هذه الصناعة القديمة جدا وسوقها الرئيسي في الخليج.

سوف لن أنسى أبداً اول مرة شاهدت فيها أسطول الغوص وهو يغادر مدينة المحرق.. كانت المراكب الجميلة المزودة بالمجاديف الكبيرة تشق طريقها بهدوء عبر مياه البحر القزحية اللون وقت الغروب.

تصحبها أغاني البحارة وأهازيج الغوص والدق على الطبول التي نسمعها على الشاطئ حيث وقف المئات من الناس لتوديعهم... لكن هذا المنظر الرائع للأسف لا يتكرر هذه الأيام...

في الصيف الثاني الذي قضيته بالبحرين، قمت بزيارة مغاصات اللؤلؤ... ومنذ تلك السنة أخذت أتردد على تلك المغاصات مرة أو مرتين كل موسم... ففي يوم ما من تلك الصيفية، وبعد أن تناولت طعام العشاء توجهت إلى فرضة المنامة (الميناء) وركبت احدى اللنشات بصحبة سلطان بن علي (نوخذة الشيخ حمد المشهورة عنه بأنه يعرف طريقه في أي منطقة بحرية حول البحرين دون الحاجة إلى بوصلة) بالإضافة إلى اثنين من رجال الشرطة... وقد كان الميناء خاليا تقريبا، اللهم من مجموعتين صغيرتين من البحرينيين الجالسين حول فانوس، وهم يتسامرون ويغنون بمصاحبة آلة العود، وعدد من الاشخاص المستقلين على ظهور قواربهم الراسية بمحاذاة الرصيف.

انطلق بنا "اللنش" متجهاً إلى مغاص (هير) يبعد حوالي أربعين ميلاً عن الساحل ولم نصل إلى ذلك المكان إلاّ في صبيحة اليوم التالي حيث وقفنا إلى جانب سفينة شراعية كبيرة (جالبوت) ورحب بنا ربان السفينة (النوخذة) وألقى إلينا حبالا لكي نصعد إلى ظهر السفينة.

بعد صعودنا دعاني النوخذة لمشاركته في الجلوس على ما يشبه الرّف وهو المكان الذي ينام فيه ويحفظ صندوقه الخشبي.

كان طاقم السفينة يتكون من ستين رجلاً جالسين في وسط "الجالبوت" وبيد كل واحد منهم سكين صغيرة يفتحون بها محارات اللؤلؤ المتراكمة من حولهم ويفحصونها بعناية أملاً في العثور على الكنز الثمين... وحينما يعثر رجل على لؤلؤة يقوم بوضعها بين اصابع قدمه، وإذا تجمعت عنده لؤلؤتان أو ثلاث يسلمها للنوخذة الذي يراقب جميع الرجال طوال الوقت بعيون حادة مثل عيون النسر خوفاً من سرقة البحارة لبعض اللؤلؤ... وعندما تفتح جميع المحارات يتم اعادتها إلى البحر ثانية.

ولما سألت أحد الغواصين عن السبب في عدم الاحتفاظ بالمحارات التي قد يكون لديها قيمة تجارية، أجابني بأن المحارات الموجودة في عمق البحر تتغذى على الصدف القديم المفتوح... وسألته عن كيفية تكون اللؤلؤ، فرد بأنه عندما يهطل المطر تأتي المحارات إلى سطح البحر وتفتح قشرتها وتستقبل قطرات المطر... وهذه القطرات تصبح فيما بعد اللؤلؤ!!

وتروي احدى الحكايات التي ذكرها المسعودي في كتابه ان الغواصين يملأون افواههم بالزيت (الدهن) ثم يخرجونه عندما يصلون إلى قاع البحر فيطفو ويحدث ضوءا أكبر!! وفي حكاية أخرى له ذكر ان الغواصين حينما يكونون في أعماق البحر يصرخون وينبحون مثل الكلاب بغرض الاتصال بالرجال في أعلى السفينة!! وبالطبع لم أجد أي أساس لصحة هاتين الحكايتين.

كان طاقم السفينة يتكون من الغواصين (الغيص) ومساعديهم الذين يسحبون الحبال ويشدون المجادف (السيب) واثنين من المستخدمين وطباخ واحد... ومساعد ربان السفينة وهو ابن عمه.. بالإضافة إلى الربان (النوخذة) وهو شخص نحيف الجسم أسمر البشرة.. يعد نموذجاً للرجل البحريني المعتاد على الحياة الشاقة، مع اختلاف بسيط وهو انّه يمتلك نوعاً من السلطة على باقي البحارة... وقد ظهر الغواصون في هيئة هزيلة جدا وعرفت منهم انهم يقللون من طعامهم إلى أدنى حد في أوقات الغوص، بينما ظهر مساعدوهم أقوياء العضلات شديدي البنية.

ولم يكن البحارة يرتدون سوى سترات صغيرة أو سراويل قصيرة سوداء اللون تغطي عورتهم وحسب قولهم ان ارتداء أي قماش من لون آخر يجذب اسماك البحر المتوحشة اليهم.

ومن هذه الاسماك المفترسة سمك القرش (اليريور) واللخمة وقنديل البحر المعروف بلدغاته السامة والبركودة وهو سمك بحري ضخم.

بعد نقاش طويل بين النوخذة ومساعده وبعض الغواصين، استقر الرأي على الموقع الذي سيبدأ فيه الغوص ذلك اليوم.

وتم انزال المرساة (الباورة) إلى البحر وقد صاحبتها أغاني البحارة وصفقات ايديهم ورقصـــهم وأصواتهم ترتفع تارة وتنخفض تارة أخرى بطريقة جميلة منسقة وذات نغــم بهــيج، وبــدأت عمليــة الغوص...

حيث حمل كل غواص بين يديه حبلين، الأول ربط به حجر كبير نسبيا ليساعده علــى الغطــس والآخر به كيس يضع فيه المحارات التي يلتقطها من قاع البحر ويسمى (ديين).

وعلى أنف كل غواص وضع مشبك يشبه مشجب الملابس يسمى (فطام) بالإضافة إلى قفــازات جلدية كان يرتديها الغواص لحماية اصابع اليدين والرجلين عند المشي فوق الصخور المرجانية أو عند التقاط المحارات.

وكان (السيب) يمسك بالحبل على الطرف الآخر ويقوم بإرخائه عند نزول الغــواص وســحبه بسرعة حينما يعطيه اشارة بذلك... حيث يحرك الحبل بعد أن يبقى في قاع البحــر لمــدة تقــل عــن الدقيقتين، يجمع خلالها عشرة محارات في المتوسط!!

ويبلغ عمق المنطقة التي تجري فيها عمليات الغوص حوالي خمسة وسبعين قــدماً فــي أغلــب الأوقات... وعندما يصعد الغواصون إلى سطح البحر يسلمون الأكياس التي بأيديهم إلــى مســاعديهم ويستريحون قليلاً وهم ممسكون بالحبل، ثم يعاودون الغطس مرة أخرى.. ويستمر الحال هكــذا حتّــى يكمل كل غواص عشر غطسات.. تصاحبها أهازيج البحارة.. يصعدون بعــدها إلــى ظهــر الســفينة للاسترخاء. وشرب القهوة وتدفئة أجسامهم بالنار المشتعلة! فرغم حرارة الجو الشديدة إلاّ ان الغواصين كانوا يرتعشون من البرودة بسبب نزولهم إلى أعماق البحر الباردة والتي لا تصل إليها أشعة الشمس!! وفي نفس الوقت تبدأ مجموعة أخرى من الغواصين نوبة عمل جديدة.

عند صعودنا إلى ظهر السفينة قدم لنا النوخذة واجب الضيافة.. وهو عبارة عن بعض الفواكــه المعلبة الموضوعة في اناء، والتي وجدت صعوبة في أكلها بيدي، تلتها القهوة المعتادة.. وبعد ســاعات قليلة تناول البحارة وجبة الغداء.. المكونة من السمك المطهي مع الأرز والتمور وبعض حبات الليمون الجاف والذي يقيهم من مرض "الاسقربوط"!! علما بأن هذه الوجبة لا تتغير أبداً ...

ويأكلونها مرتين في اليوم!! وغني عن القول ان البحارة هم الذين يصطادون الســمك بأنفســهم بواسطة معدات الصيد التي تتكون من سلال كبيرة مصنوعة من جريد النخيل والحبال... تــدلى هــذه السلال إلى البحر فارغة ثم يعيدها الغواصون بعد فترة قليلة وهي مليئة بالأسماك.

بعد انتهاء زيارتنا لجالبوت الغوص هذا ولثلاث سفن شراعية أخرى، لمحنا مــن بعيــد ســفينة صغيرة حديثة النوع تعمل بواسطة المحرك (الموتور)...

علمنا انها تابعة لاحد تجار اللؤلؤ (طواش) فقررنا زيارته!! وبالفعــل وصــلنا إلــى "اليخــت" الصغير، فاستقبلنا رجل تبدو عليه علامات الثراء والمهابة.. ويرتدي ملابس بيضاء فاخرة وإلى جواره خادمه الذي يحمل مظلة كبيرة سوداء لحماية سيده من وهج الشمس!! وبالمناسبة أذكر إنني منذ أن جئت إلى البحرين، درجت على العناية بحديقة بيتي عصر كل يوم من أيام الصيف، وكنت أرتدي أثناء العمل

سروالاً قصيراً فقط بسبب شدة الحرارة، وهذا الشئ أثار استغراب ودهشة البحرينيين في البداية، لكنهم مع مرور الوقت تعودوا عليه.

وعلى عكس سفينة الغوص، وجدنا مركب الطواش مفروشاً بالسجاد الإيراني الغالي الثمن ومزوداً بالمخدات (المساند) العربية.. وعلى جانب ظهر المركب شاهدنا أسرّة قطنية (فراش) للنوم عليها وجرات فخارية من الماء معلقة على السياج.

قدم لنا أحد الخدم القهوة، تلتها صينية كبيرة تحتوي على أطبقا من الأناناس المعلب والبسكويت.

طلب منا "الطواش" البقاء معهم للعشاء، فأعتذرنا بسبب ضيق الوقت.. والطريف أننا شاهدنا عند مغادرتنا المكان عدداً من الدجاجات الحيّة المربوطة في السفينة.. فأخذنا فكرة عن نوعية الوجبة التي دعينا لتناولها!!

وأرانا الطوّاش حبات اللؤلؤ التي اشتراها حيث كانت محفوظة في حزم صغيرة من المناديل الحمراء.

ومن بينها لفت نظرنا لؤلؤتان كبيرتا الحجم وضعتا في علبة مليئة ببذور بحرية صغيرة، الهدف منها الإبقاء على لمعان هاتين اللؤلؤتين!! وشاهدنا اللآلئ بألوانها المختلفة.. فمنها اللؤلؤ الأصفر الذهبي وهو المشهور في أمريكا الجنوبية... ومنها الأبيض، والأسود ومنها الأحمر الوردي... وهذه هي أهم الأنواع التي يبحث عنها الناس.

لقد تطرّق حديثنا مع التاجر إلى أمور الغوص واللؤلؤ، وعرفنا منه انّه وغيره من "الطواويش" غير راضين عن السوق أو حتّى عن الطقس!! لكنه يأمل في بيع لؤلؤة كبيرة (دانة) ـ كان يمتلكها في ذلك الوقت ـ بسعر كبير!! وقد علمت فيما بعد ان هذه اللؤلؤة بعد ان تداولها عدد من الأشخاص، بيعت إلى سيدة أمريكية معروفة في باريس بسعر خيالي بلغ خمسة عشر ألف جنيه إسترليني (أي حوالي عشرين ألف دينار بحريني) وهو أعلى سعر دفع لشراء لؤلؤة في تلك الأيام.

هذه اللؤلؤة البديعة اللون الرائعة الشكل وذات اللمعان الأخاذ بلغ ارتفاعها بوصة واحدة تقريباً ولا زالت تفاصيلها محفورة في ذاكراتي رغم مرور عشرات السنين!!

عندما قلت لتاجر اللؤلؤ ان الناس في أُوروبا يأكلون المحّارات ويعتبرونها طعاماً شهياً.. اندهش لذلك وأخبرني بأنه لا أحد من منطقة الخليج يأكلها إلاّ إذا كان سيهلك بسبب الجوع الشديد أو عدم توفر الطعام!! ورددت عليه بأنني قرأت في أحد الكتب التي تصف صيد اللؤلؤ وهو من تأليف الكابتن "فراير" الذي عاش في القرن السابع عشر... ان المحارات الموجودة في مياه الخليج هي من أجود الأنواع وأصلحها للأكل وتأتي في المرتبة الثانية بعد تلك الموجودة في المياه البريطانية..!! لكنني كنت مخطئاً في رأيي، فعندما جربت أكل المحار ذات مرة لم أرغب أبداً في تناوله مرة أخرى!! وقد علمت فيما بعد ان المحارات الموجودة بالقرب من مسقط حيث لا توجد مغاصات اللؤلؤ، يشتهي الأُوروبيون أكلها أحيانا!!!

بالمناسبة أود ان أذكر ان أي شخص مسموح له بالغطس وصيد اللؤلؤ في الخليج بشرط إلاّ يستخدم أجهزة ميكانيكية وان تكون معه رخصة للغوص!! وأعترف أنني لم أحاول قط في حياتي الغوص إلى أعماق البحر.

وبعد ان قضينا وقتاً ممتعاً مع تاجر اللؤلؤ... ودعنّاه وعدنا راجعين إلى البحرين حيث كان الوقت غروباً... وكنا نلمح جبل الدخان من بعيد .. وهو أعلى مرتفع في هذا البلد!!

ومع وصولنا إلى الفرضة (الرصيف) شاهدنا أضواء العلامات المرشدة للسفن (الصاربة) بالقرب من مدينة المنامة!!

قصيرو النظر... وعشاق للمقامرة!!

اضبط .. حرامي في بومباي!

زينوا بناتكم بلؤلؤ البحرين!

مع مرور الزمن وازدياد معرفتي بتجار اللؤلؤ (الطواويش)، أخذت أزورهم في أسواقهم المتفرقة ... فلم تكن هناك سوق خاصة باللؤلؤ، بل كانت هذه التجارة تمارس في مكاتب التجار أو في بيوتهم.. وأحيانا في الطرق وفي المقاهي!!.

مع ذلك .. في الفترة الأخيرة افتتح احد التجار محلاً لبيع اللؤلؤ والقلادات النسائية... إلاّ إنني كنت في شك من امكانية ربح هذا المحل... نظراً لعدم ملائمة أسعاره للزبائن وخلوه من المساومات المطولة التي اشتهرت بها عمليات بيع اللؤلؤ!!

لقد كانت اللآلئ المباعة في السوق العمومي من النوع الردئ جداً...

ومع ذلك كنا نجد الباعة المتجولين يطوفون بها وينجحون في بيعها للأجانب المسافرين بواسطة السفن حيث يتوقفون لأيام قليلة في البحرين قبل مواصلة السفر!!

وفي أيام الجمعة ــ عادة ــ ما كان يتسنى لي بعض الفراغ فاقوم بزيارة اثنين من التجار أثناء عملهما وأشاهد عملية المساومة التي تستغرق وقتاً طويلاً وتحتاج إلى صبر وتمهل... من قبل الطرفين.. البائع والمشتري، ثم يعرض الطواش بضاعته (اللؤلؤ) الملفوفة... في مناديل حمراء والمحفوظة في حقائب صغيرة من نفس اللون!!

قبل ان تبدأ عملية المساومة، المعروفة في البحرين باسم (المقاصصة)، يقاس حجم اللؤلؤ بواسطة منخل معدني يحتوي على فتحات مختلفة الأحجام توضع فيه اللؤلؤة لتحديد الحجم الذي تنتمي إليه، ثم تقيّم من خلال اللون والشكل والنوعية.. وبعد ذلك يتم وزنها الذي على أساسه يتحدد سعرها!!

وغالبا ما تجري عملية البيع أمام الناس، وإذا لم يرغب الطرفان في اعلان السعر المتفق عليه، تراهما يغطيان يديهما بالقماش، ويقومان بالعملية باتقان عن طريق لمس يد كل طرف لأصابع الطرف الآخر!!

وهذه الوسيلة البدائية للبيع استخدمت في البحرين لمئات السنين.

الجيل القديم من الرجال كان أكثر انبهاراً وتعلقا بعمليات بيع اللآلئ الكبيرة (الدانات). وقد شاهدت تاجراً وهو يقفز من بين الرجال ويندفع نحو الباب حالفا بأنه لن يدفع بيزة إضافة (أي فلس واحد) ثمناً لدانة معينة.. لكنه عاد بعد لحظات قليلة بواسطة أصدقائه ليشترك في المساومة مرة أخرى طوال ما تبقى من النهار!!

والميزة الملاحظة في البحرينيين هي الثقة التامة بين الناس.. فمن المعروف ان سعر اللؤلؤة الواحدة يبلغ آلاف الدنانير لكن تاجر اللؤلؤ لا يجد أي تخوف أو تردد في تسليمها لرجل بعد آخر لكي يبقيها عنده لأسابيع عديدة بدون وصل استلام.

كما أن كل رجل يتعامل في هذه المهنة يمتاز بأنه يستطيع التعرف على لؤلؤة ما إذا شاهدها مرة واحدة في حياته ويميزها عن غيرها من اللآلئ ولو بعد مرور سنوات طويلة على رؤيته لها.. ففي احدى المرات أعطى تاجر لؤلؤتين لأحد الدلالين (السماسرة) لبيعها، فقام الدلال بربطهما في طرف غترة رأسه وذهب إلى دكان ما وبعد لحظات وجد ان طرف الغترة قد فك وأن اللؤلؤتين قد فقدتا وأنكر صاحب الدكان رؤيتهما، ورغم اجراء البحث في المحل لم يتم العثور عليهما.

وبعد خمس سنوات من وقوع هذه الحادثة كان صاحب اللؤلؤتين في "بومباي" وهناك شاهد وتعرف على واحدة من لؤلؤتيه المفقودتين وسط مجموعة من اللالئ المعروضة للبيع بواسطة تاجر لؤلؤ هندي.. وكانت اللؤلؤة قد تناقلتها أيدي عديدة خلال هذه السنوات لكنها رجعت في نهاية الأمر إلى صاحبها الذي قام بالبحث عن مصدرها وتبين له ان صاحب الدكان هو الذي سرق اللؤلؤتين وباعهما!!

في بداية مجيئي للبحرين، نصحني الميجور ديلي بأن لا تبدي زوجتي إهتماماً شديداً باللؤلؤ.. ولكنني وجدت أنه من المستحيل اتباع نصيحته فقمت بجمع لآلئ لأكّون منها قلادة واستغرق ذلك مني احدى عشرة سنة لاكمالها!!

الطريف في الأمر ان اللؤلؤ الأسود كان يوجد بكميات كبيرة في مياه الخليج.. ولكنه في السنوات الأخيرة أصبح نادراً. لماذا؟ .. لم يكن هناك تفسير لهذه الظاهرة!!

دأب الناس في الخارج على سؤالي باستمرار عن امكانية شراء اللؤلؤ بسعر رخيص من البحرين... ولقد كان جوابي الدائم هو: إذا توفر لدى المشتري الصبر والمتسع من الوقت يمكنه حينئذ الحصول على قلادة بسعر مناسب أقل مما سيدفعه في لندن أو باريس.

ومن الأشياء التي أتذكرها ـــ أيضاً ـــ انّه في السنوات اللاحقة لاكتشاف النفط في البحرين وبدء عصر البترول قررت شركة نفط البحرين (بابكو) طبع شعار لها على ظروف الرسائل الصادرة منها

لغرض الدعاية للصناعات المحلية وكان الشعار النهائي الذي اختارته يقول "اللؤلؤ التقدم والازدهار" لكنني أعتقد ان الشعار الذي اقترحته كان أفضل بكثير حيث يقول: "زينوا بناتكم بلؤلؤ البحرين!!".

مع حلول عام 1932 أصبحت تجارة اللؤلؤ غير مستقرة، وأخذت تعاني من منافسة اللؤلؤ الصناعي، ونظراً لكونها تجارة باهظة الثمن، فقد تأثرت كثيراً بالكساد الاقتصادي في أوروبا حينذاك... وكثيرون من أصحاب السفن (النواخذة) وتجار اللؤلؤ (الطواويش) وجدوا صعوبة شديدة في توفير الأموال اللازمة لتجهيز اسطول الغوص، ولم يكن مركز الحكومة المالي في ذلك الوقت يسمح بمنحهم القروض المالية.. وعندما حان موعد اعطاء الغواصين مبالغ نقدية مقدمة (أي تحت الحساب) لم يستطع بعض الطواويش والنواخذة توفير المال اللازم لذلك.

والغواصون عادة لا تدفع لهم أجور يومية أو شهرية، وانما يشاركون في الأرباح الناتجة عن بيع اللؤلؤ، وفي بداية كل موسم للغوص يحصلون على مبالغ مالية.. على أن تستقطع من دخلهم واستحقاقاتهم من الموسم المقبل! وهذا المبلغ النقدي دائماً يجذب الرجال إلى هذه المهنة، بل وأحياناً ينسون ان هذا المبلغ هو دين عليهم يجب أن يؤدونه مضاعفاً!!.. فضلاً عن ان الغواص عندما يستلم المبلغ المقدم يكون مجبراً على العمل للنوخذة (صاحب السفينة) خلال الموسم القادم !! وفي أغلب الأوقات يقترض النوخذة الأموال اللازمة من التجار وأصحاب الدكاكين الموجودة في السوق لكي يستطيع تجهيز وتموين سفينته (الجالبوت) واعطاء المقدّم إلى الغواصين!!

ويقوم التجار باحتساب فوائد مالية على النواخذة الذين بدورهم يحتسبون فوائد على المبالغ التي يعطونها للغواصين!!

ويستلم النوخذة دائما 1/5 (خُمس) اجمالي الأرباح الكلية بينما يوزع الباقي على الغواصين ومساعديهم الذين يسحبون الحبل والذي يطلق عليهم (السسي) حيث يمنح كل غواص سهمين مقابل سهم واحد للسيب.

لكن إذا قام تاجر اللؤلؤ أو النوخذة نفسه بتمويل رحلة الغوص فأنه لا يحتسب فوائد مالية. وعادة فإن الرجل الذي يوظف أمواله لهذا الغرض بامكانه شراء محصول اللؤلؤ بسعر يقل بنسبة عشرين بالمائة عن سعر السوق.

من الناحية النظرية يعتبر هذا النظام عادلاً للجميع. لكن إساءة استخدامه وعدم التطبيق الصحيح له جعل من الغواصين عبيداً تقريباً.

ويفرض النواخذة فوائد مالية مجحفة على القروض والمبالغ التي يمنحونها لهم مقدماً. كما يقومون بتزوير وتضخيم حسابات ديونهم. ويضطر الغواصون نتيجة لذلك إلى العمل بدون أجر لصالح النواخذة والطواويش... وذلك طيلة فترة توقف موسم الغوص التي تستغرق ثمانية اشهر!! ويحق للنوخذة تحويل الغواص إلى نوخذة آخر بدون موافقته... كما يحق له تسليمه للعمل لصالح احد التجار مقابل تسديد دين عليه!!

ولم تكن لدى الغواصين الوسائل التي يستطيعون بها فحص حساباتهم، والملجأ الوحيد لهم هو الاحتكام إلى النواخذة والطواويش الآخرين المشهورين بفسادهم ورشوتهم والذين لا يتعاطفون معهم، وعندما يموت أحد الغواصين تتحول ديونه إلى أولاده فحالما يصبح الابن بالغاً فان عليه العمل كغواص لصالح النواخذة لكي يؤدي ديون والده!!

النواخذة (أصحاب السفن) أيضاً تعرضوا لأوقات عصيبة اضطروا خلالها إلى رهن منازلهم وقواربهم إلى التجار الذين يتعاملون في الشؤون البحرية..

إن انقضاء أي موسم غوص فاشل تترتب عليه افلاسات كثيرة وتشمل تسليم النوخذة للغواصين وللسفينة (الجالبوت) إلى الرجل المقرض لهم والذي يكون بانتظارهم على الساحل!!

الغواصون في رأيي قصيرو النظر يعتمدون على الحظ ويحبون المقامرة بالفطرة، وكل واحد فيهم يحلم بأن سفينته ستعثر في يوم ما على لؤلؤة عظيمة الثمن تجعل منه رجلاً ثرياً يتمكن نتيجة لذلك من الابتعاد عن عمل الغوص.. وفي أحيان كثيرة يصدق حلم الغواص... فيقوم بصرف كل أمواله باستهتار ودون ضبط وبالتلذذ في مباهج الحياة... وفي نهاية الأمر يعود إلى عمله السابق: غوّاص!!

ولم يكن الشبان صغيرو السن يمانعون في العمل كغواصين بسبب قلة فرص العمل التي يحصلون من ورائها على أجر في تلك الأيام، بالإضافة إلى اغراء القروض المالية التي تعطى لهم قبل الموسم، وهم يأملون دائما بتحقيق مردود مالي يتمكنون من خلاله العيش طوال حياتهم دون الحاجة إلى العمل... ولم تكن هناك سن محددة لتقاعد الغواص، فحتى عندما يصبح عجوزاً ومتعباً يجب عليه الاستمرار في العمل ومما يجدر ذكره أن أفضل الغواصين وأحسنهم عادة ما يكونون من كبار السن!!

لقد قلل قانون الغوص الجديد الذي أدخله الشيخ حمد من نسبة الفائدة إلى مستوى معقول، وحددت الحكومة التي ترمي سياستها إلى تقليص القروض تدريجياً من حجم المبلغ الأقصى المعطى لكل غواص وأنشأت نظاماً دورياً ومبسطاً للحسابات وأصدرت لكل واحد منهم دفتراً صغيراً، بحجم جواز السفر، يحتوي على حسابه مع النوخذة بالتفصيل... ويقوم موظفون خاصون بفحص هذه الدفاتر باستمرار، وتسجيل مبيعات اللؤلؤ بشهادة ثلاثة من الغواصين الذين يختارهم طاقم السفينة!

كما منعت الحكومة العمل غير المدفوع خلال فترة توقف موسم الغوص، والغت محكمة الغوص القديمة وأصبح لكل غواص الحق في اللجوء للمحاكم العادية وحينما يتوفى أحد منهم فان دينه يسقط عن أهله!!

قوبلت القوانين الجديدة بمعارضة شديدة من التجار وأصحاب السفن الذين فقدوا بسببها الكثير من هيمنتهم على الغواصين.. كما عارضها المناوئون لنظام الحكم الجديد والذين يبحثون عن الفرص لتشويه سمعة الحكومة!!

أما الغواصون فقد قابلوا هذه التغييرات بالتجهّم واللامبالاة لأن أسيادهم أخبروهم بأنهم لن يستفيدوا من هذه القوانين ... إلاّ ان الحكومة لقيت الدعم والتأييد من قبل رجال الدين الذين يحرمون

جميع أشكال الفوائد المالية والربا كما حظيت بمساندة مجموعة من البحرينيين (المستنيرين) مثل بعض تجار اللؤلؤ وسماسرته (الدلالين).

وفي كل سنة، ابتداء من عام 1926 وحتى عام 1932 كانت تقع مشاكل في بداية موسم الغوص عندما تدون المبالغ التي تعطى على الحساب مقدماً إلى الغواصين!!

والحقيقة إنني لم أستطع ــ للأسف ــ تنفيذ هذا الشئ.. وبسبب ذلك حصل الغواصون على قروض مالية أكبر من المسموح به واعتبروا ذلك تنازلا عن القوانين الجديدة.

فبعد نجاحهم للمرة الثانية، ظن الغواصون ومؤيدوهم انهم قادرون على ارغام الحكومة على الغاء القوانين الجديدة عن طريق التهديدات باشعال العنف وإثارة الفوضى في البلاد!! مع ان الهدف الأساسي لهذه القوانين هو تحسين ظروفهم وحماية مصالحهم! ففي احدى السنوات قام الغواصون باضراب ورفضوا الخدمة على ظهر السفن، وفي سنة أخرى اقتحموا مستودعاً لأحد التجار في المحرق وحطموا الكثير من محتوياته!! بل والأكثر من ذلك هو ما حدث في احدى احتفالات رأس السنة!! لقد كان المعتمد السياسي البريطاني (الباليوز) يقيم حفل الاستقبال السنوي المعتاد بمناسبة رأس السنة الجديدة في مبنى الوكالة (بيت الباليوز) والذي حضره ممثلون عن مختلف الجاليات الموجودة في البحرين، وأثناء الاستماع إلى كلمة طويلة من تاجر مشهور جدا يمتدح فيها حالة البلاد التي يشعر فيها الفرد بالأمان والسعادة، هرع الينا الخادم مسرعاً وهو ينقل الأخبار بأن الغواصين ينهبون سوق المحرق فتم الغاء الحفل على الفور!!

لقد وقعت الأزمة في شهر مايو 1932 ... أي وقت تقديم المبالغ النقدية للغواصين.. فلقد كان حجم المبلغ الذي قررته الحكومة.

بعد مشاورة بعض التجار، أقل من السنة السابقة لكنه أكثر مما يدفع في امارات الخليج الأخرى. ونتج عن ذلك عدم الرضا بين الغواصين وقبض على العديد منهم بسبب إثارة الشغب والاضطرابات!!

وفي 26 مايو من نفس السنة، كنت جالساً في مكتبي مع الشيخ عبد الله بن عيسى، شقيق الشيخ حمد، وأمير جزيرة المحرق الذي يرأس فرقة من الحرس المسلحين، عندما سمعنا أصوات المتظاهرين على طوال الشارع المحاذي للبحر مما جعل الكلاب (السلوقية) التابعة لي تنبح بشدة.. وجاء أحد النواخذة ليحمل إلينا الأخبار بأن جموع الغواصين المتظاهرين قد نزلوا على الشاطئ وقبضوا على جميع ساريات ومجاذيف السفن.

وبسرعة ركبت في سيارتي وتوجهت نحو ذلك الشارع لكنني فوجئت في طريقي بكتلة كبيرة من الرجال وهم يلوحون بالعصي والقضبان الحديدية فيما هم يتجهون إلى السوق، فأدرت عجلات السيارة نحو شارع جانبي لكي أصل قبلهم لكنني لسوء الحظ دخلت في طريق ضيق لم تستطع سيارتي المرور منه، فتركت السيارة ورحت راكضاً إلى مركز الشرطة، لكنني وصلت بعد فوات الأوان!!

فقد إقتحمت الجماهير المركز وأطلقت سراح الرجال الذين ترغب في تحريرهم بينما جلس بقية السجناء مرتعدين في زاوية السجن.. وكان هناك ثلاثة أو أربعة من المجندين المحليين الجدد على سطح المبنى!!

وفي الخارج امتلأت الساحة والشارع البحري بالغواصين الهائجين الذين يريدون الإغارة على السوق.. وقام أصحاب المحلات التجارية بغلق أبواب دكاكينهم الخشبية وهم في حالة هلع شديد!!

وأمام مدخل السوق، وقف الشيخ راشد بن محمد عم الشيخ حمد، الذي كان عمره يناهز السبعين، متصدياً لجموع المتظاهرين.. ولم يكن يحمل معه سوى عصا (عكاز) في يده!! وعندما رآه المتظاهرون توقفوا.

وإنضممت أنا إلى جانب الشيخ راشد لتهدئة الغواصين.. وفجأة جاء خادمي وهو شاب بحريني ووقف معنا حاملاً بندقية وعصا متينة وأحد السيوف التي حصلت عليها سابقا كهدية ووضعتها في غرفة الطعام بمنزلي.. وقال الخادم انّه اعتقد إنني سأكون في حاجة إليها، وكنت سعيداً بهذا التصرف فقد نفعتني العصا في مواجهة المعركة التي لا تكفي فيها قبضات الأيدي!!

وفي هذه الأثناء، جاء المزيد من رجال الشرطة ومن بينهم بعض الجنود الهنود وتطورت المعركة على طول الشارع البحري، وتم اطلاق النيران بضراوة على المتظاهرين الذين تفرقوا بعد مقتل العديد منهم وجرح بعض رجال الشرطة.

وفي اليوم التالي أمر الشيخ حمد بالقاء القبض على زعماء الفتنة وتم احضارهم إلى سوق المحرق حيث جلد كل واحد منهم عشر جلدات أمام جمهور كبير.. ثم أطلق سراحهم وأمروا بالعودة إلى عملهم!!

ومنذ ذلك اليوم لم تقع مشاكل أخرى حول قوانين الغوص، وتحقق الغواصون فيما بعد ان الاصلاحات والتغييرات التي وضعت هي لصالحهم وأصبحوا يؤمنون بأن ما فعلته أنا والشيخ حمد كان الغرض منه تحسين أحوالهم وظروفهم المعيشية.

بعد هذه الحادثة شكل الشيخ مجلسا للغوص يجتمع مرتين أو ثلاث مرات في السنة لمناقشة التعديلات على بنود قانون الغوص، ولتحديد حجم المبالغ التي تقدم للغواصين، والتاريخ الذي سيبدأ فيه الموسم، ولسماع أية اقتراحات جديدة.. لكن نظرا إلى كون أعضاء المجلس من تجار اللؤلؤ وأصحاب السفن فقد كانوا غير مستعدين للنظر في الاقتراحات الجديدة كإدخال الأجهزة الميكانيكية في عملية الغوص، بل كانوا ينظرون إليها بالكثير من الريبة وعدم الموافقة، وعندما اقترح أحد الأعضاء امكانية انتاج اللؤلؤ الصناعي في البحرين أصيب بقيتهم بالفزع!!

واللآلئ الصناعية ممنوعة في البحرين، ففي احدى قضايا المحكمة أدين شخصان بتهمة زرع اللؤلؤ الصناعي في المحارات وحكم عليهما بالسجن لمدة سبع سنوات!! وفي قضية أخرى أدانت المحكمة شخصاً قطري الأصل بتهمة خلط اللؤلؤ الصناعي مع الطبيعي وحكمت المحكمة عليه بالسجن وبعدها تم ابعاده عن البلاد.

وهنا في البحرين يتمتع اللؤلؤ بسمعة طيبة جداً في جميع أنحاء العالم وأن أي اقتراح بخلط اللؤلؤ الطبيعي مع الصناعي كان سينتج عنه تدمير هذه الصناعة!!

كنت أرأس اجتماعات مجلس الغوص وقبل انتهاء مدة عملي في البحرين اعترف أعضاء المجلس بأنني قد عرفت الكثير جداً من أنظمة وقوانين الغوص رغم أنني لا أمتلك الخبرة والمعرفة بشؤون اللؤلؤ.. وكانت الاجتماعات مليئة بالضوضاء والصراخ والانتقادات، ويرتدي فيها جميع الأعضاء الثياب العربية!!

بعض الأعضاء بدأوا حياتهم كغواصين، لكنهم منحدرون من أصول ترجع إلى أصحاب السفن ويعلمون كل شئ عن اللؤلؤ والغوص والبحر.. لقد كانوا شديدين (غليظين) في كلامهم ولم يترددوا في قول ما يعتقدونه حول بعضهم البعض أو في الرد عليّ عندما لا أتفق معهم في الرأي، لكن التعامل معهم أسهل بكثير من التعامل مع الشبان البحرينيين.. الذين يعملون كأعضاء في مجالس ولجان الحكومة هذه الأيّام!!

الفصل الخامس

- ليلة الدخلة ... اختفت العروس تحت السرير!!

- "الخاطبة" هي وسيلة الزواج السائدة تلك الأيام

مارجوري ترشح المدرسات للزواج!!

في صيف 1928 سافرنا ــ أنا وزوجتي ــ إلى بلادنا في اول اجازة سنوية لنا .. لكنني منذ ذلك العام درجت على أن آخذ اجازة تقارب الثلاثة أشهر مرة واحدة كل سنتين، ما عدا سنوات الحرب العالمية الثانية.. فقد كنت أسافر إلى الهند حيث يوجد إبننا حمد (جيمس) الذي كان يدرس في إحدى مدارس كشمير الخاصة.

بعد الرجوع من الإجازة كنت متلهفاً لمعرفة ماذا حدث في البحرين خلال فترة غيابي.. إلاّ ان الأمور كانت تسير بشكل جيد!!

عندما وصلت السفينة إلى شاطئ البحرين كان بانتظارنا عدد كبير من الشيوخ والتجار الذين بدا عليهم السرور لرؤيتنا مرة أخرى!!

بعد أيام قليلة من رجوعنا دعينا ــ أنا وزوجتي ــ لحضور عدد من احتفالات الزواج لبعض أفراد العائلة الحاكمة .. وفي الحقيقة.. كانت الأعراس بين العائلات العريقة والغنية في فترة الثلاثينات مدهشة ومثيرة للاعجاب .. أما اليوم فقد أصبحت هذه المراسم بسيطة، فغالبا ما يتم زواج بنات التجار على الطريقة الحديثة أو ما يسمى (بالموضة) والذي ترتدي فيها العروس فستان الزفاف الأبيض المجلوب من بيروت أو لندن والطرحة وغطاء الوجه الشفاف ولا يسمح خلاله برؤية العروس إلاّ للنساء.

أول احتفال للزواج حضرناه كان في جزيرة المحرق حيث توجد غالبية منازل العائلة الحاكمة في ذلك الوقت، إلاّ أنه مع مرور السنوات.. انتقل العديد من الشيوخ للسكن في الرفاع وضواحي المنامة... وبعد عبورنا إلى تلك الجزيرة بواسطة القارب "اللنش" سارت بنا السيارة إلى أرض سهلية واسعة خلف المدينة حيث تجمع الكثير من المواطنين لمشاهدة رقصات "العرضة" ابتهاجاً بهذه المناسبة. وقد كان رجال آل خليفة وأتباعهم الذين يؤدون الرقصات يرتدون الملابس الزاهية والملونة والبشوت السوداء أو البنية الجميلة ويحملون السيوف والخناجر والبنادق وهم يلوحون بها.. أما رجال الخيالة فقد امتطوا صهوات أحصنتهم وجعلوها تقفز بهم إلى أعلى وإلى أسفل وهم يستعرضون أسلحتهم ويطلقون الرصاص في الجو بهدف الإثارة!! وبعضهم كان يقوم بألعاب تظهر مهارته وسيطرته على الحصان الذي يركبه..

وفي ليلة الزفاف التي يسميها العرب "ليلة الدخلة" أقام والد العريس وليمة عشاء للرجال بينما دُعيت زوجتي مارجوري لزيارة العروس.. وبعد تناولنا الطعام مشينا في موكب الزواج يتقدمنا الشيخ حمد عبر الأزقة الضيقة (الدواعيس) والشوارع المتعرجة.. ويسير أمامنا رجال يحملون الفوانيس لانارة الطريق إلى أن وصلنا بيت العروس.. وامتلأت الساحة (البراحة) التي أمام البيت بالراقصين وانبعثت اصوات غناء النسوة في الداخل لتصل إلى أسماعنا خارج المنزل، ولقد شاهدنا هناك مواكب النساء المتشحة بالعباءات وأغطية الوجه السوداء تسير إلى بيت العروس وهي تغني وتدق الطبول إبتهاجاً وفرحا.. دلفنا إلى فناء المنزل المكتظ بالناس وصعدنا السلم إلى غرفة الزواج "الفرشة"..

وهي الحجرة الوحيدة في سطح البيت، وبعد جلوسنا لدقائق معدودة شربنا القهوة وتمنينا السعادة والتوفيق للعريس في حياته الزوجية بينما وقف هو صامتا خجلاً في زاوية الغرفة يتلقى التهاني من الحاضرين!!

كانت "الفرشة" مزينة بالأقمشة الحريرية الملونة المطرزة بالذهب التي تغطي سقف الحجرة والجدران كما في الخيمة.. وتمتد إلى الأرض حاجبة النوافذ.

وعلقت أعداد كبيرة من المرايا في جميع زوايا الغرفة، بينما تدلت كرات زجاجية ملونة كالتي تستخدم في أشجار عيد الميلاد (الكريسماس) من أعلى السقف وحول المرايا.. في أحدى زوايا "الفرشة" شاهدنا صندوقاً خشبياً مزخرفاً بمسامير نحاسية صفراء حيث تحفظ العروس هدايا زوجها.

لكن مثل هذا الصندوق لا يستخدم هذه الأيام وقد استعيض عنه بالشنط والحقائب الجلدية.. كما كانت أرضية الغرفة مفروشة بعدد من السجاد الايراني الثمين وقد وضعت الواحدة منها فوق الأخرى!!

أما أثاث الغرفة فقد تكوّن من سرير النوم المزدوج ذي الأطراف الخشبية المنحوتة، وطاولة وضعت عليها الشموع، ومزهرية مليئة بالورود المختلفة والنباتات العطرية.. بالإضافة إلى جرة ماء وبعض الأكواب!! كان جو الحجرة معبئاً بالبخور ورائحة المشموم وهو أحد النباتات التي تشبه النعناع وتكثر زراعته في البحرين وقد لائم هذا الجو المناسبة التي حضرناها!

في الفناء الداخلي للبيت سمعنا غناء النسوة ورقصهن رغم كونهم معزولات عن رؤية الرجال.. وكما أخبرتني مارجوري تجلس النساء على الأرض ويتمايلن وتؤدي رئيسة الفرقة الأغاني العاطفية بمصاحبة الطبول وتصفيقات أيدي بقية أفرادها.. وأثناء الرقص تهز النساء شعورهن الطويلة المجدولة ذوات الضفائر المزركشة بزهور الياسمين في حركات دائرية سريعة، وتحمل احداهن "المبخر" المحتوي على البخور المحترق، وفي احدى الزوايا أشعلت نار صغيرة لاحماء الطبول وشدّها لكي تصبح صالحة للدق.

وعندما وصلت مارجوري إلى بيت العروس، أدخلت من باب آخر يؤدي إلى المكان الذي تتواجد فيه النساء، وهو غرفة احتشدت فيها المدعوات بالإضافة إلى العروس التي ارتدت الثياب الحريرية المزينة بالمجوهرات البديعة وأساور اليد وقلادات العنق الذهبية والخواتم الفيروزية وأقراط الأذن الهلالية الشكل المرصعة باللؤلؤ..

بالاضافة إلى الحلي والسلاسل الذهبية المزدانة بالأحجار الكريمة.. التي تتدلى من على جبهة رأسها .. أما شعرها فقد جُدل باتقان على هيئة ضفائر تتخللها أنواع من الورود كالياسمين و(الرازقي) و(الورد المحمدي).

وقد نقشت على يديها وقدميها أشكال رائعة باستخدام صبغة الحناء ثلاث ليال متتالية، وتم تجميل عينيها باستعمال الكحل الأسود.

جلست العروس ساكنة.. خجلة... تنظر طوال الوقت إلى الأرض ... بينما أخذت النساء المدعوات في التأمل فيها وفي ملابسها ومجوهراتها كما لو كان دمية جميلة!!

بعد فترة قصيرة أدخلت العروس إلى الغرفة بواسطة قريباتها اللواتي بقين معها حتّى سماع تهليل "يبّاب" وغناء النساء في الخارج اعلانا بقدوم العروس حيث انصرفن.. وعندما يدخل "المعرس" على زوجته عادة ما يقدم هدية ثمينة إليها وفي أغلب الأحيان تكون هذه الهدية قطعة من المجوهرات، ثم يقوم برفع الغطاء عن وجهها.. ومن المفترض انّه يراها لأول مرة رغم ان هذا الشئ ربما لا يصدق هذه الايام فمن غير المستبعد مشاهدة الشاب لشريكة حياته قبل الزواج.

ومن العادات التي تجري في بعض مناطق البحرين ـــ لكنها اندثرت الآن ـــ لف العروس داخل سجادة مطوية ونشرها أمام العريس عند دخوله لغرفة الزواج "الفرشة"..

ثم يستمر الغناء والرقص خارج الغرفة لساعات متأخرة من الليل قبل مغادرة المنزل... وفي اليوم التالي يستقبل العريس المهنئين بالزواج في بيت العروس لمدة ثلاثة أيام متتابعة صباحاً ومساء، وفي اليوم الرابع ينتقل الزوجان إلى منزل العريس للإقامة الدائمة.. وغالبا ما يكون هذا المنزل بيتاً مشتركا يضم والدي الزوج وباقي أفراد أسرته.. ليبدأ الاثنان حياتهما الزوجية العادية!!

وعندما ينوي أحد الشباب الزواج يشترك في العملية شخص مهم هو الخاطبة أو ما يسمى في البحرين بـــ "الخطّابة".. وهي المرأة التي عادة ما تكون كبيرة في السن وتدخل جميع البيوت لزيارة العائلات والتعرف على الفتيات البالغات سن الزواج ووصف محا سنهن وصفاتهن وعيوبهن للشباب

الراغبين في الزواج!! أما اتفاقات الزواج بين العائلات الميسورة أو العريقة فترتب عن طريق كبار أفراد الأسرتين من الرجال .. لكن الأمور تغيرت هذه الأيام، وأصبح للفتاة الحق في إبداء رأيها فيمن يتقدم لطلب يدها وفي أحيان كثيرة ترفض الزواج ممن لا يعجبها من المتقدمين رغم موافقة أسرتها عليه!!

خلال السنوات التي أشرفت فيها زوجتي مارجوري على إدارة مدارس البنات كان يتصل بها أولياء أُمور بعض الشبان لكي تزكّي لهم الطلبات المناسبات لأولادهم، لكنها لم تتحمل قط مسؤولية الترتيب للزواج.. وعندما تنوي مدرسة من المدرسات العربيات المعارات من سوريا ولبنان أو الاردن الزواج من أحد البحرينيين، تقوم هي ــ بصفتها مسؤولة عنهن ــ بالكتابة إلى أهلهن في الخارج واعطائهم تفاصيل الشاب المتقدم، فإذا وافق الأهل عليه.. يتم الزواج!!

تعودت الفتيات البحرينيات أن يتزوجن في سن مكبرة جداً قد تصل أحيانا إلى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من العمر.

وقد تحدثت احداهن لمارجوري عن خوفها الشديد وعدم نضجها "ليلة الدخلة" حيث انها اختبأت عن زوجها تحت السرير وكان عمرها حينذاك اثنتي عشرة سنة بينما كان بعلها رجلا عجوزاً!! أما اليوم فقد تغيرت أشياء كثيرة، فلا تتزوج غالبية الفتيات قبل بلوغ السابعة عشرة أو السادسة عشرة على أقل تقدير، وقد أصبح شيئاً مألوفاً تأجيل العديد منهن ذلك إلى ما بعد اكمال دراستهن! هذه الأفكار الحديثة لا تعجب الجيل القديم من الرجال والنساء.

ويفضل الشباب المتعلم الآن الزواج من بنات متعلمات.. فمن الطبيعي ان تتمتع الفتاة التي درست حتّى المرحلة الثانوية ببعض الخصال التي تجعلها مفضلة ومرغوبة من الكثيرين!!

احدى العادات السائدة في البحرين قديماً هي زواج البنت الاجباري من ابن عمها إذا تقدم لخطبتها.. كذلك اعتاد الشبان البحرينيون الزواج من بنات أعمامهم... إلاّ ان هذه التقاليد في طريقها إلى الزوال الآن.. بل وكثير من الشباب يسافرون إلى الخارج ويتزوجون فتيات من بعض الدول العربية مثل سوريا ولبنان.. وهناك عدد من العائلات الكبيرة والمهمة التي تمنع زواج بناتها من خارج نطاق العائلة.. وفي هذا الصدد نذكر ان خلافات وشجارات عديدة تنشب بين أفراد العائلة أو القبيلة حين يتقدم شخص لا ينتمي إليها بطلب يد احدى بناتها، وقد يتطور الخلاف فيصل إلى المحاكم المدنية والشرعية للبت فيه.

ادفع عشرة جنيهات وتزوج!!

ـ أم القوطي تصطاد ضحيتها عند باب القنصلية!!

عصافير مكتبي تثير الدهشة!!

في الماضي.. كانت عمليات الطلاق في البحرين تحدث بصورة متكررة.. لكنها اليوم أصبحت أقل بكثير بل وأصبح الرجل الذي "يغّير" زوجاته موضع حديث دائم في السوق!!

في بداية عملي بالبحرين تعرفت إلى جار كبير في السن.. وكان يأتي لرؤيتي بعد العشاء حيث نجلس على سطح المنزل تحت ضوء القمر ونتحدث حول العديد من الأشياء المتفرقة .. وكان صاحبنا رجلاً مزواجاً لديه عائلة كبيرة من الأولاد والبنات، وفي إحدى الليالي سألته عن عدد المرات التي تزوج فيها فراح يحصي تلك المرات باستخدام أصابع يديه.. وفي نفس الوقت يذكر إسم كل زوجة منهن وعمرها وصفاتها واصلها وبعض الزوجات لم يتذكر أسمائهن!! وعندما وصل العدد إلى العشرين قال: أنا رجل عجوز وذاكرتي لا تسعفني على تذكر بقية زوجاتي خصوصاً الكبيرات في السن ولدي الآن أربع زوجات.

ولما سألته عن عدد ابنائه وبناته وجد صعوبة شديدة في إعطائي قائمة بأسمائهم وأضاف أن هناك آخرين كثيرين توفوا حين ولادتهم أو في فترة رضاعتهم.

في هذه الأيام من غير المعتاد أن يتزوج الشاب أكثر من امرأة رغم أن الدين الإسلامي يبيح ذلك.. وقد تناقشت حول هذا الموضوع مع بعض البحرينيين الذين أوضحوا بأن الزواج من امرأة ثانية يسبب العديد من المشاكل الداخلية في الأسرة، بالإضافة إلى أنه يتطلب مصروفات مالية إضافية، كما أن الشاب المتعلّم يتزوج فتاة متعلمة أيضاً ويعتبرها شريكة حياته ولا يريد أبداً الزواج من غيرها!!

كانت زوجتي مارجوري تسمع آراء النساء في الزواج وجميعهن يردن ويتمنين البقاء زوجات وحيدات لازواجهن لكنهم يفضلن الزواج من رجل له زوجة أخرى على بقائهن عوانس طول العمر!!

وفي هذه السنوات (الخمسينات) فأن نسبة النساء غير المتزوجات في البحرين نادرة جداً، وحسب الشريعة الإسلامية تعتبر المرأة غير المتزوجة قاصراً مهما كان عمرها.. وتدار أملاك وأموال القاصرة بواسطة أولياء أمورهم من الرجال! ولحسن الحظ فان عدد الذكور في البحرين يساوي تقريبا عدد الأناث!!

لقد أزدادت مصاريف الزواج في السنوات الاخيرة حالها كحال مستوى المعيشة الآخذ في الارتفاع.

وعادة ما يعطي الرجل المهر إلى العروس أو إلى والديها.

وقبل خمسة وعشرين عاماً كان بامكان الشخص العالم الحصول على زوجة نظير مهر يتراوح بين 10 جنيهات و15 جنيهاً استرلينيا "حوالي 200 روبية هندية" لكن عليه اليوم (1959) أن يدفع مبلغاً

يتراوح بين 150 جنيها إلى 200 جنية (حوالي 2500 روبية هندية) نصفها على الأقل نقـداً والبـاقي يعتبر ديناً عليه يسدّده فيما بعد أو عندما يريد تطليق زوجته!!

ولقد لجأ شبان كثيرون إلى الزواج من فتيات من خارج البحرين حيث يسافرون إلى إيـران أو عمان ويدفعون مهوراً صغيرة.. وهناك بعض العائلات البحرينية التي تحدّد مهور بناتها بمبلـغ معـيّن معقول لا تتجاوزه أبداً!!

ان سبب معظم حالات الطلاق يرجع إلى عدم التفاهم أو الخلاف بين الزوجين وهذا الشئ غيـر مستغرب بسبب عدم معرفة الزوجين لبعضهما قبل الزواج وبعضهم لا يعرف أي شـئ عـن شـريكة حياته إلاّ عند زواجه منها، ونفس الشئ ينطبق على الزوجة.

وفي مرات نادرة جداً تطلب الزوجة الطلاق من زوجها ويحق لها ذلك في حالات معينة كالعجز الجنسي للرجل!!

وطوال سنوات عملي في البحرين التي بلغت أحدى وثلاثين سنة واجهتني قضيتان فقط تم فيهـا تطليق الزوجة من زوجها ويرجع السبب في احداهما إلى تزويج فتاة لرجل مصاب بالجذام!!

وبالنسبة لنا نحن معشر الرجال تعتبر مسألة الطلاق من جانب واحد لكن إذا نظرنا إلى ذلك من زاوية اخرى، فان حقوق المرأة مكفولة بصورة جيدة في الدين الإسلامي فالارملة ترث تلقائياً عند وفاة زوجها 1/8 (ثمن) ثروته قبل اجراء أي تقسيم لها وإذا كان له أكثر من زوجة فيتم تقسيم هذه النسـبة (الثمن) على عدد الزوجات.

من التقاليد المتبعة في المجتمع البحريني ويرى ضرورة تطبيقها هو لبس المرأة للعباءة (الدفّة)، وهذا التقليد تحرص الدول المجاورة مثل المملكة العربية السعودية، قطر، وعمان على اتباعه بحـزم.. لكنني اعتقد أنه خلال السنوات القادمة سيصبح هذا الشئ جزءاً من الماضي... فالجيـل المـتعّلم مـن الشباب والشابات لا يعجبه ارتداء المرأة للعباءة.

وعند سفر الفتيات أو النساء إلى الخارج يقمن بخلعها في أقرب فرصة مواتية.. لكن لا أحد من الجيل الجديد يجرأ على مناقشة الجيل القديم الذي يعارض بشدّة أي اقتراح من هـذا النـوع.. وقبـل عشرين سنة (الثلاثينات) لا تظهر أية سيدة في الطريق العام دون ارتداء عباءة سوداء سميكة تغطيهـا من أعلى رأسها حتّى أخمص قدميها وغالبا ما تغطي وجهها بنقاب أو "بطّولة" سوداء اللون، وفي أوقات الصيف الحارة تذوب الصبغة السوداء "للبطّولة" فتنزل في هيئة قطرات على وجه المرأة!!

وتزيّن نساء الطبقة الراقية في البحرين عباءاتهن بخيوط ذهبية (زري) حول أطرافها وبخطـوط كبيرة من الذهب في وسطها.. وعندما تبلى العباءة وتصبح قديمة نتيجة استهلاكها يأتي احد المشـترين الذين يجوبون الشوارع كل صباح وينادون: "زري عتيج... ماو عتيج" ويقصدون بذلك شـراء الـذهب والنحاس الأصفر فتخرج اليهم النساء وتبيعهم ما لديهن منه حيث يقومون بصقله وتلميعه وبيعـه مـرة أخرى إلى صانعي العباءات.

لقد حققت المرأة في البحرين تقدماً اجتماعياً خلال السنوات الأخيرة خاصة في المدن وبدرجة أسرع من تقدم الرجل، وهذا يرجع بصورة أساسية إلى وجود مدارس البنات..

ورغم مرور فترة قصيرة نسبيا على انشاء هذه المدارس إلاّ أنها أحدثت تغييرات جذرية في نظرة المرأة وتفكيرها.. كما ساهمت وسائل المواصلات ودور السينما وأجهزة الهاتف في هذا التغيير..

فصارت فتاة اليوم تقرأ المجلات والجرائد والروايات وتعلم ماذا يدور في العالم الذي حولها.. وتقارن موقعها في المجتمع بباقي النساء في الدولة المسلمة الأكثر تقدماً في العالم الإسلامي.

ونتيجة للتعليم أصبحت المرأة تهتم بالسياسة فخلال فترة الاضطرابات السياسية في البحرين قامت طالبات أحدى مدارس البنات باضراب عن الدراسة واشتركت طالبة منهن في المظاهرات وقادت موكب الطالبات حول العاصمة...

وأرسلت مارجوري بصفتها مديرة تعليم البنات إلى أولياء أمور الطالبات الغائبات الذين أعربوا عن معارضتهم الشديدة لتصرف بناتهم وحصلت منهم على ضمان وتعّهد كتابي بعدم السماح لهن في المستقبل بالاشتراك في المظاهرات، وتم فصل الطالبة القائدة من المدرسة!!

وتلبس طالبات المدارس الآن زيّاً موحداً بينما ترتدي المدرسات الملابس الأوروبية تحت عباءاتهن... وعندما تسافر النساء الشابات إلى الخارج يشاهدهن المرء في المطار وهن متغطيات بالعباءات السوداء أثناء توديع أقاربهن.. لكن ما ان تغادر الطائرة أرض المطار حتّى تتخلص النساء من عباءاتهن ويظهرن في ملابسهن الأوروبية الأنيقة..

ونساء البحرين أكتسبن ذوقاً جميلاً في اختيار الملابس بسرعة أكبر من النساء التركيات عندما تحررن من العباءة، وهذا يرجع بالطبع إلى تأثير المدرسات اللبنانيات اللواتي يجلبن ملابسهن المصممة حسب الأزياء والموضات الفرنسية من بيروت.

كان الناس يقترحون عليّ دائماً بأن محافظة المرأة على لبس العباءة (الدفّة) يمكن أن يجعل لها تأثيراً أكبر في المجتمع من تأثيرها في حالة عدم ارتدائها لها، لكنني كنت أشكّ باستمرار في هذا الرأي!!

يوجد خارج سواحل البحرين في أعماق البحر العديد من منابع المياه الحلوة (الجواجب) وهي ظاهرة لم أسمع بها أبداً في أي مكان آخر من العالم...

وقبل ظهورة الآبار الأرتوازية كان الناس يذهبون في قواربهم إلى مواقع (الجواجب) ويغوصون إلى القاع حاملين أوانيهم المصنوعة من الجلد (القُربْ) ويملأونها بالماء الطازج ويغلون فوهتها بإحكام ثم يصعدون مرة أخرى إلى سطح البحر حيث يعودون إلى المدينة ويبيعون المياه في السوق...

ولقد درجت أحدى السيدات البحرينيات على زيارتي لمناقشة مشروع جيد لتوصيل الماء من أحد المنابع البحرية الموجودة بالقرب من أرضها وضخه لري بستانها.. وبمساعدة مهندسي شركة النفط (بابكو) تم تجريب مشروعها، لكن لسوء الحظ حينما تم وضع خزّان حول المنبع تدفق الماء في جهة أخرى.

مع ذلك فقد أعجبت بذكاء هذه السيدة رغم عدم تعلمها!!

في أحيان كثيرة تأتي سيدات من عائلات معروفة لمقابلتي تصحبهن خادماتهن اللواتي يجلسن على الأرض في مكتبي الصغير... والغرض من زيارتهن هو إستشارتي في مسائل تتعلق بأملاكهن عند عدم الثقة في الرجل الذي يقوم برعايتها أو لمناقشتي في حقوقهن ببعض العقارات، وأحياناً فقط للشكوى من أزواجهن..!!

وتلعب الخادمة التي عادة ما تكون كبيرة السن دوراً رئيسياً في المحادثات وتخرج الوثائق المتعلقة بالموضوع من صندوق معدني أسطواني صغير تجلبه معها..

وغالباً ما أجد صعوبة في أنهاء المقابلات خلال وقت قصير حيث تستمع السيدات بالخروج من المنزل.. كما أن الوقت لا يعني شيئاً بالنسبة لهن!

في بعض الأحيان تقع لي حوادث مزعجة أو تجعلني أتضايق منها.

في أحدى المرات جاءت لزيارتي امرأة من الطراز القديم وجلبت معها عنزة (غنمة) كبيرة لتقديمها لي كهدية.. وكالعادة رفضت قبول الهدية، لكن ذلك الحيوان المرعب أفلت من يديها وراح يحطّم محتويات المكتب من تحف وزهور ويقضم بأسنانه قطع الأثاث الخشبية.

فأخذ الموظفون التابعون لي يلاحقونه وهو يجرى في القاعة ملوثاً لأرضيتها ومشوهاً ترتيبها في مشهد كوميدي، ولم يتم القبض عليه إلاّ بعد أن أتلف أشياء كثيرة في المكتب!!

عجوز أخرى مختلة عقلياً نوعاً ما لكنها لم تصل إلى درجة وضعها في مستشفى الأمراض العصبية (دار المجانين) كانت مصدر إزعاج دائم للمعتمدين السياسيين في البحرين.. وسبب إختلال عقلها هو محاكمتها التي استغرقت زمناً طويلاً بمحكمة القنصلية في قضية قانونية!!

لقد دأبت هذه السيدة، كلما سمعت عن زيارة المعتمد السياسي لمدينة المحّرق ــ حيث تسكن ــ أن تنتظره في شارع ضيّق وتندفع نحوه عندما يظهر وتطوقه بذراعيها مبعثرة أوراقها (وثائق القضية) في أنحاء الشارع.. (تلك الحوادث وقعت قبل انشاء الجسر الواصل بين المنامة والمحرق).

وفي النهاية اضطررت إلى أمر الشرطة بإبعاد هذه العجوز عن أنظار المعتمد السياسي حينما يزور المدينة، لكنها كانت ماكرة ومراوغة، وفي مرات عديدة تصطاد ضحيتها عند باب القنصلية!! وكانت هذه العجوز تعرف في البحرين باسم "أم القوطي".

كان مكتبي يقع في الطابق الأرضي من البيت مع وجود باب يطل على شرفة واسعة خلفها حديقة حيث استمتع بالنظر إليها وأنا جالس على كرسي المكتب.. ويوجد بالحديقة مدخل يشرف على الشارع...

وفي أوقات الظهيرة، أثناء غياب الحارس يجلس الناس للاسترخاء والاستناد على هذا المدخل المغلق بواسطة مزلاج مثبت في أعلاه، وأحياناً يفتحون الباب ويأتون للحديث معي عندما أكون بمفردي..

هذا المنفذ إلى مكتبي سبّب لي بعض المتاعب واصبح يستهوي الاشخاص المخبولين (المجانين) الذين يوجد عدد كبير منهم في البحرين.. فعاد يجذبهم كما يجذب المغناطيس قطعة الحديد.. ومن هؤلاء الاشخاص رجل مسن يتصور دائماً بأنه مظلوم في قضية خيالية حكمت فيها المحكمة ضده.. كان هذا الرجل بإستمرار يزحف بهدوء إلى داخل غرفة المكتب ثم يقفز بسرعة ناثراً ظروف رسائل وأوراقاً قديمة على أرضية الغرفة!!

وعندما يكون معي بعض الزوّار فانهم يصابون بالفزع والخوف من تصرف هذا المخبول الذي يهذي بكلمات لا معنى لها قبل أن يخرجه الحرس الموجودون في المكتب.

أما المستخدمون العاملون في مكتبي فهم ابناء رجال يعملون في الشرطة وكنت أطلق عليهم لقب (العصافير) حيث أنهم يجلسون على الكرسي الخشبي الطويل في الممر بإنتظار الجرس ويثرثرون طوال الوقت ولا يصمتون أبداً .. وقد اخذ الناس جميعاً يطلقون عليهم اسم "العصافير" !!

وفي بعض الاحيان أجد ملاحظة كتابية موجهة لي من قبل رئيس الكتاب تقول مثلاً: كبير العصافير عبّود (أي عبد الله) يريد إجازة ولدينا عدد كافٍ من العصافير للقيام بالعمل دون الحاجة إليه، هل يوافق سعادتكم على منحه إجازة!!؟.

وأنا متأكد إنه إذا تم الاطلاع في المستقبل على الملفات التي تضم مثل هذه الملاحظات فانها ستسبب الدهشة والاستغراب للاشخاص الذين يطّلعون عليها!

رجل آخر طويل القامة، نحيف الجسم، أسم اللون، دائم الصمت، كان يأتي بالقرب من باب المكتب كل صباح لمدة عشرين سنة تقريباً ويرفع يديه لتحيتي ثم يختفي بنفس الهدوء الذي جاء به.. لم يكن قط يتحدث إلى أي شخص في المكتب ولا أحد يعرف أين يسكن هذا الرجل؟.. وإذا حاولت التحدث إليه فأنه يتراجع منسحباً!! بعد تركي للبحرين سمعت ان هذا الرجل تخلى عن صمته ولا زال يزور المكتب ويسأل عن موعد رجوعي!!

كان منزلنا يقع فوق المكتب مع وجود سلّم يوصل إليه من الشرفة... ولم نكن نغلق أبواب المنزل وقت النهار وفي مرات نادرة نغلقها في الليل..

وقبل قيام الحرب العالمية الأخيرة جاءت صحفية المانية تابعة لمجلة "فرانكفورتر زيتونج" لمقابلتي بعد الترخيص لها من قبل السلطات البريطانية بزيارة البحرين.. وقد صادف أن كنت خارج المنزل، والمكتب مغلق والخدم في مواقعهم.. وانتهزت الصحفية الفرصة وصعدت بجرأة وشجاعة إلى الطابق العلوي ودخلت غرفة الجلوس حيث توجد اللوحات والرسومات وأخذت تتمعن فيها..

بعد ذلك كتبت هذه المرأة موضوعاً تفصيلياً أبدت فيه اعجابها الشديد بالغرفة ووضعت بالتفصيل الصوّر والزهور وباقي الأشياء الجميلة المزينة للغرفة كما امتدحت فيه حالة الأمن التي تسود البلاد والتي مكنتها من القيام بمغامرتها غير المشروعة!!

الفصل السادس

ستة أغنام وسيف.. تهنئة للمولود!!

في بداية تعييني كان المسمّى للمنصب الذي أتولاه هو "المستشار المالي"... ان التعامل مع أُمور الدولة المالية الذي كان سهلاً نسبياً في تلك الأيام هو واحد من المهام العديدة التي أسندت الي ...

فلقد أخذ الشيخ حمد يطلعني ليس على المسائل المتعلقة بالدولة فقط.. وإنما على أُموره الشخصية أيضاً .. كتولي مسؤولية العناية ببساتينه وأراضيه وأملاكه التي كان يديرها وكلاء غير مخلصين، وعلى طلبات الهبات المالية وهبات الأراضي!! كانت ايرادات البحرين في السنوات الخمس الأولى لمجيئي ضئيلة جداً.. الشئ الذي جعلنا نضطر إلى ممارسة سياسة اقتصادية حازمة.. فقد كان يأتينا في كل عام شيوخ عرب من جميع أنحاء الخليج العربي لطلب المساعدة المالية من الشيخ... بل وأخذوا بعد ظهور النفط يأتون في أعداد أكبر، رغم أن الوضع الاقتصادي للبلد لم يتحسن كثيراً إلاّ بعد مرور سنوات طويلة!!

في بعض الأمور التي بدلت لي أنها هامة أعطاني الشيخ حرية التصرف، لكنه كان يعترض على ما اقترحه من اجراءات قد لا تلاقي التأييد من قبل عائلة آل خليفة أو لا تنال رضا الشعب.

لكن سموه كان يتحمل مسؤولية أي عمل تقوم به حكومة البحرين... وفي أية خطوة أو اجراء تقدمه الحكومة لابد من وجود المعارضين أو المنتقدين!!

مع ذلك.. كان من الممكن ان يدخل أي مواطن إلى مجلس الشيخ حمد المفتوح للسلام عليه أو لتسليمه شكوى.. أو تظلم كتابي.. ولقد كان الشيخ غالباً ما يدفع الي بتلك الرسائل والطلبات قائلاً: خذها معك وإدرسها وضع حلولاً لهام ثم أخبرني بها لنتناقش ونقرر ما نريد.

لم يكن هناك مجلس للوزراء لاستشارته، فقد كان الشيخ حمد حاكماً مطلقاً للبحرين يبحث الكثير من أمور البلاد مع شقيقه الشيخ عبد الله والشيخ محمد ومع نجله الأكبر الشيخ سلمان.

في البداية وجدت صعوبة في إعطاء المشورة حول الناس وحول المسائل التي لا أعرفها جيّداً ... ولكنني بعد مرور سنة أو سنتين أكتسبت خبرة طيبة عن صفات وسلوكيات الناس الذين أتعامل معهم... وغالباً ما كان جوابي الدائم هو: إذا لم أكن قد وجدته كذلك ما كنت سأقضي فيها إحدى وثلاثين سنة متواصلة من العمل!!

لقد كان عملي هنا ممتعاً ومشوقاً جداً أستحوذ على كل أعجابي لأنه عمل متنّوع ومتعدد ولأنه ينطوي على التعامل اليومي مع أفراد من بني الإنسان وليس مع أشياء جامدة!!

قبل إكتشاف النفط بسنوات قليلة باشرنا العمل في عدة مشروعات كبيرة.. ففي عام 1930 بدأ تشغيل محطة الكهرباء التي زودّت المنامة بالطاقة الكهربائية...

وبعدها بسنة تم توصيل الخدمة إلى المحرق.. كما بدأ العمل في الجسر الذي يربط بين المنامة والمحرق عندما كان إيراد الدولة مرتفعاً.. لكن الجزء المتحرك من الجسر والممتد فوق المياه العميقة لم يتم إكماله إلاّ في عام 1942.

وكالعادة، لا قى هذا المشروع المعارضة.. خاصة من البحارة وأصحاب "اللنشات" الذين كانوا ينقلون الركّاب من أحدى المدينتين للأخرى عبر مسافة تبلغ ميلاً ونصف الميل!! مع ذلك أحس سكان المحرق بالسعادة والسرور لإنجاز هذا المشروع النافع والذي لولاه لكنا سنواجه صعوبة في ادارة مطار البحرين الواقع في تلك الجزيرة!!

وقمنا ــ أي الحكومة ــ أيضاً بإنشاء نظام هاتفي في المنامة.. وكان يقوم بتشغيل البدّالة التيلفونية شابان بحرينيان لطيفان رغم استماعهما لمعظم المحادثات الهاتفية!! وفي بعض الأحيان يكون هذا الشئ ذا فائدة، فحينما يريد شخص ما الاتصال بشخص آخر فغالباً ما يعرف هذان الشابان المكان الذي يوجد فيه ذلك الشخص فيقولان مثلاً إنه يتعشى الآن مع السيد فلان في بيته... لقد سمعناه وهو يدعوه للعشاء صباح اليوم!!

وقد كانت الخدمة التليفونية الاوتوماتيكية (الآلية التي جاءت بعد ذلك أكثر فعالية وإتقاناً... لكنها افتقدت التدخل الشخصي أو اللمسة الشخصية!!

في يومي السبت والثلاثاء من كل اسبوع كان يأتي الشيخ حمد إلى مكتبه الحكومي.ز ولقد سار على هذا التقليد ــ أيضاً ــ نجله الشيخ سلمان عندما خلفه في الحكم بعد وفاته.

يصل الشيخ في سيارة كبيرة بصحبة أبنائه الصغار وعدد من الخدم..

فنبدأ في مناقشة الشؤون المحلية.. كما كان يشاركنا في الاجتماع أحياناً ــ أخوانه: الشيخ عبد الله والشيخ محمد .. بعد ذلك أعرض عليه الأوراق والمستندات التي تحتاج إلى توقيعه أو ختمه.

وفي أيام الاسبوع الأخرى أذهب لزيارة الشيخ في قصره بالمنامة الذي عادة ما يكون مليئاً بالزوّار.. وفي أحيان كثيرة أزوره في منزله الريفي بالصخير.. المكان المفضل لديه.. نجلس على كرسي خشبي طويل مغطى بالسجاد في مكان ظليل يقينا من شمس الصيف الملتهبة... ونتداول أُمور الدولة المختلفة.

وفي أوقات كثيرة كان يأتي الشيخ إلى مكتبه الحكومي قبل تناول طعام الافطار، وهو في طريقه إلى المحرق.. أو يجئ إلى منزلي عصراً ونتحدث في مواضيع الدولة والمواضيع الأخرى المختلفة..

لقد كان الشيخ لا يحب الرسميات.. لكنه يتمتع بمهابة طبيعية عظيمة بالإضافة إلى كونه عطوفاً مراعياً لمشاعر الآخرين وحقوقهم.. بل وكان يبدى إهتمامً كبيراً بأمورنا الشخصية.

في أبريل 1929 رزقنا ــ أنا وزوجتي ــ بطفل حيث وضعت مارجوري في البيت بمساعدة طبيبة من الإرسالية الأمريكية ... ونظراً لحالة الطفل الصحية السيئة سافرت زوجتي بعد ثلاثة أسابيع إلى انجلترا للعناية به هناك.. ثم عادت مع الطفل إلى البحرين في الشتاء التالي..

وفي اليوم الذي ولد فيه إبننا أرسل الشيخ لي شاحنة (لوري) محملة بستة أغنام (ماعز) سـمينة بالإضافة إلى سيف موضوع في غمد ذهبي مع خطاب يتضمن التهنئة بالمولود الجديد!!

وحسب التقاليد المتبعة هنا ذبحنا الماعز ووزعنا لحومها على الجيران والأصدقاء!!

وقد صادف يوم ولادة الطفل مع وصول "جوفري برايور" المعتمد السياسي البريطـاني الجديـد للبحرين، فأرسلت إليه قطعة لحم كبيرة من فخذ الماعز، فأصيب بالدهشة والحيرة واعتقد فـي بـادئ الأمر أن من عادة الحكومة البحرينية الترحيب بممثل ملك بريطانيا بهذه الطريقة.. إلى أن أوضحت له الموضوع بعد ذلك!!

ولقد أبدى الشيخ حمد إهتماماً شديداً بابننا (وهو أول طفل بريطاني يولد فـي البحـرين) وكـان مسروراً جداً عندما أخبرناه برغبتنا في اختيار إسم "حمد" كأحد أسمائه.. إلاّ أننا عندما قمنـا بتعميـده بالكنيسة في بريطانيا كان القسيس مستغرباً لاختيارنا هذا الإسم الذي ــ على حد قوله لم يصادفه مـن قبل!!

كما أنني أتذكر ان الولد اصيب بالحمى لفترة طويلة ولم ينفع معها العلاج الطبي.. وحينها قـال لي الشيخ القلق على حالته: إنني أعرف علاجاً سيشفي إبنك من المرض، لكنني لا أعتقد ان زوجتـك ستوافق عليه!!

ولما سألته عن هذا العلاج، أجاب: كي جسم الطفل بقضيب من الحديد الساخن بواسطة شـخص خبير في هذا النوع من العلاج الشعبي!!

ومع إيماني بأن هذا العلاج كان البحرينيون يستخدمونه لعلاج أمراض عديدة وأنه أثبت فعاليتـه في بعض الحالات.. إلاّ أنني أبلغت الشيخ بأن زوجتي لن توافق عليه، فقال إنه سيأتي إلى منزلي ويقرأ بعض الآيات والصلوات من أجل شفائه!!

وفي تلك الليلة جاء الشيخ حمد، وذهب إلى غرفة نوم إبننا الذي كان نائما وتركناه بمفـرده مـع الطفل.. وعقب فترة بسيطة خرج الينا قائلا: سوف يشفي إبنكم إن شاء الله.. وبالفعل، فبعد أيام قليلـة تماثل الولد للشفاء.

وعندما وصلت القصة إلى أسماع المبشرين في الإرسالية الأمريكية أبدوا غضبهم وعدم موافقتهم أو إقرارهم لأن يصلي شخص مسلم من أجل إبننا (المسيحي)!

من الأشياء التي أتذكرها عن البحرين قبل ثلاثين عاماً (الثلاثينات) نقـص الخـدمات الطبيـة المناسبة لعلاج المرضى الأوروبيين، خاصة النساء.. فقد كان هناك عادة طبيب أمريكي جيد على الأقل في الإرسالية، لكن الإقامة في المستشفى التابعة للإرسالية لا تلائم الأوروبيين، وغالباً ما يسافر الطبيب

إلى المملكة العربية السعودية لعلاج بعض الحالات.. أمـــا اليـــوم (1959) فلـــدى حكومـــة البحـــرين مستشفيات حديثة للرجال والنساء حيث يتم فيها علاج المواطنين والاوروبيين.

والعاملون في هذه المستشفيات هم أطباء وجراحون وممرضون بريطانيون وهنود من الجنسين.. وفي مدينة "عوالي" يوجد لدى شركة نفط البحرين (بابكو) مستشفى ممتاز للعناية بموظفيها من العـــرب والأوروبيين.

وبصفة عامة فإن الخدمات الطبية الموجودة في البحرين الآن أفضل من تلك الموجودة في العديد من الدول الأوروبية!!

في فصل الشتاء كان الشيخ حمد يدعوني أحياناً لمرافقته في رحلات القـــنص وصـــيد طيـــور الحباري بواسطة الصقور في الجزء الجنوبي من البحرين.

وقد كان يتم اصطياد الصقور من الجبال الإيرانية وتجلب لبيعها هنا بمبالغ مرتفعة قد تصل إلى 60 جنيهاً للصقر الواحد!!

وهناك نوعان من الصقور المستعملة في البحرين أحدهما يسمى "الشاهين" والآخر يسمى "الحُرّ" ويقال ان الكلمة الثانية مشتقة من الإله الفرعوني القدم حورس..

والذي كان رأسه عبارة عن رأس صقر!! ويستمر موسم الصيد لشهرين أو ثلاثة أشهر حينمـــا تكون الحباري موجودة في البحرين في هجرتها نحو الجنوب.

والحباري هي طيور تشبه الدجاج الرومي وتغطيها أجنحة كبيرة وتستطيع الطيران بقوة شديدة.

في أحد أيام ديسمبر انطلقت بنا السيارة التي يقودها عبد الله الشرطي السائق التابع لنـــا خـــارج المنامة باتجاه شارع البديع الذي توجد على جانبيه غابات من النخيل وبساتين مليئة بالاشجار المختلفة.

ولقد شاهدنا أثناء سيرنا الباصات الخشبية المصنوعة بألوان فاقعة متجهة نحو العاصـــمة وهـــي مكتظة بالركاب من المواطنين والتي كان سائقوها عندما يرونني يخففون من سرعتهم خشية ان أوقفهم وأقوم بعدّ الراكبين الذين عادة ما يفوقون العدد المرخص به!! وفي أثناء سيرنا ــ أيضاً ــ مررنا على أرضٍ واسعة حتّى وصلنا إلى قرية "الزلاق" الصغيرة الواقعة على نتوء جبلي يحيطه البحر من ثـــلاث جهات..

أخيراً وصلنا إلى "المطلّة" حيث يوجد بيت صغير للشيخ محاط بالخيـــام والســـيارات والجمـــال والحمير... وأمام الخيمة التي يجلس فيها الشيخ شاهدنا الصقور الضخمة التي يبلغ طولها القدمين وهي مربوطة إلى الأرض!!

بدا الشيخ ــ في ذلك اليوم ــ سعيداً جداً أكثر من أي وقت مضى حيث تخلص من متاعب أمور الدولة وخلد إلى الاستجمام في رحلة القنص!!

كانت عملية صيد الحباري تبدأ عندما يطلق الشيخ حمد صقره المفضل المسمى "منصور" فيطير وراء فريسته (الحباري) في عملية مطاردة مثيرة محاولاً الانقضاض عليها بمخالبـــه الجارحـــة حتّـــى

يسقطها على الأرض وهو ينتّف ريشها المتبعثر في الهواء، فيجري الرجال بأقصى ما يستطيعون لكي يلحقوا بالحباري قبل تمزيقها إرباً إربا!!

وفي بعض الأحيان يطلق صقران مرة واحدة لاصطياد الفريسة!!

كما أننا في تلك الليلة استمتعنا بوجبة لذيذة من الحباري وغيّرنا من أكل الطعام اليومي المعتاد: اللحم أو الدجاج!!

مطاردة كلاب الصيد السلوقية للأرانب البرية رياضة أخرى نمارسها هناك. حيث يطلــق هــذا النوع من الكلاب المعروف بسرعته نحو ارنب ما ويحاول اللحاق به واصطياده ونحن نــركض وراء الكلب لكي نعاين العملية..

وهذا الكلب يعتمد في صيده لفريسته على بصره القوي وليس حاسة الشم كمــا تفعــل الكــلاب البوليسية.. ولعدة سنوات كان لدّي كلب من سلالة "سلوقي" يصطاد الأرانب ببراعــة... لكنــه بعــض الأحيان يصطاد غزلاناً!! وهذا الشئ يضايقني حيث أن الشيخ لا يحب أن يقتل أي غزال!!

وقد كان البحث عن "الفقع" بعد نزول المطر.. أحد الهوايات المحببة للبحرينيين كذلك!!!

والفقع هو نبات صغير يشبه البطاطا يبرز في الرمال!!

لقد درج الشيخ على الذهاب إلى البر مع أولاده ومرافقيه لتمشيط رمال الصحراء الغنيــة بهــذا النبات!

وكانت الغزلان تتواجد في الموقع الحالي لمدينة عوالي التي أنشأتها شركة النفط "بابكو"، لكنهــا نزحت إلى الطرف الجنوبي من الجزيرة.

وفي جزيرة أم النعسان توجد قطعان كبيرة من الغزلان والوعول السود التي جلبت من الهند منذ سنوات طويلة.. وأحيانا يسمح الشيخ بإطلاق النار وصيد الوعول.

خلال السنوات الأولى لوجودي في البحرين، كان هناك حوالي إثنا عشر شخصاً أوروبيــاً فــي المنامة بما في ذلك المبشرين التابعين للكنيسة الهولندية الاصلاحية لأمريكا التي قامــت بعمــل طبــي وتعليمي نافع لكنها لم تنجح إلاّ نادراً جداً في تحويل الناس إلى المسيحية!!

وكانت هذه الجالية تجتمع في معظم الأيام وتمارس هوايات مختلفة مثل لعب التــنس والبريــدج وتقيم حفلات العشاء الصغيرة!!

وفي الصيف يأتي تجار اللؤلؤ الفرنسيون من باريس فيحيون الجــو بجلــب الأطعمــة الشــهية والمشروبات الروحية لنا... وكانت المراكب الشراعية التابعة للبحرية البريطانيــة تزورنــا بصــورة متكررة، ومنذ عام 1928 بدأت أسراب الطائرات الشراعية التابعة للقوة الجوية الملكية البريطانية فــي النزول باستمرار في البحرين قادمة من البصرة.

وقد استغليت تلك الفرصة وطلبت من القوة جلب النباتات والشجيرات من البصرة لزرعها فــي حدائقي.

ومن النباتات التي أحضرتها لي نوع يسمى الدّفلي وهو نبات سام له أزهار ذات رائحة عطرة ولم يكن هذا النبات موجوداً في البحرين من قبل.. أما اليوم فهو أكثر أنواع الشجيرات انتشاراً في البلد!!

وعند مغادرتي للبحرين كان عدد أفراد الجالية الاوروبية يتراوح بين الفين إلى ثلاثة آلاف شخص وحياتها الاجتماعية في الشتاء تصبح جولة من حفلات الكوكتيل ومآدب العشاء التي لا تساعد على النهوض المبّكر في الصباح أو زيادة النشاط!!

كما أفرزت هذه الحياة أيضاً روحاً من التنافس الاجتماعي حيث أخذ الأفراد الذين ليس عليهم التزامات رسمية بالاستمتاع والصرف باسراف أكثر مما تسمح به ميزانياتهم !!

لقد كانت الحياة الاجتماعية في الماضي أكثر بهجة وسعادة مما آلت إليه بعد ذلك!!

عام 1932 غاصت أول طائرة في رمال المنامة!!

ضريبة جديدة على السلع تفرضها الحولة!!

ذات يوم أبلغني ضابط بريطاني يعمل تحت خدمتي (والذي يصف معرفته للغة الفرنسية بأنها صدئة) أبلغني في رسالة كتب عليها كلمة "عاجل" ان رجلاً يسمي نفسه "البرت لندن" وصل إلى البحرين مرتدياً ثياباً عربية، وقال انّه يمثل مجلة الحياة الباريسية Lavie Parisiene ، وهو شخصية مشبوهة وتم احتجازه في سجن الشرطة!!

فور قراءتي لهذه الرسالة أسرعت إلى مركز الشرطة لتقصي أمر هذه الشخصية المشبوهة فوجدت رجلاً فرنسياً جالساً على دكة خشبية صلبة وهو يتأمل فيما حوله بفضول.. وعرفت أنه "البرت لوندرز" الكاتب الفرنسي المشهور الذي كان يعد سلسلة مواضيع لصالح جريدة "لوبتي باريسيان" Letit Parisiene (الباريسي الصغير)..

وقد جاء من مدينة جدّة بالمملكة العربية السعودية بعد زيارة الملك سعود بن عبد العزيز الذي أهداه بعض الملابس العربية.

دعوت هذا الرجل إلى بيتي ولحسن الحظ، اعتبر الموضوع كنكتة أو مقلب ظريف خاصة فكرة كونه عضواً في حركة الحياة!!

وفيما بعد وصف المؤلف الحادثة بطريقة مشوقة في كتابه "صيد اللؤلؤ".

في عام 1932 عانت البحرين من الكساد الاقتصادي الذي اجتاح العالم... وانخفض إيراد الدولة إلى (50.000) جنيه استرليني تقريبا... بعد ان كان يبلغ حوالي (82.000) جنيه كرقم متوسط للسنوات السبع السابقة.. وأصبح الإيراد لا يكفي لدفع تكاليف الخدمات والمصاريف الادارية للبلاد.

شرحت الوضع للشيخ حمد وللأعضاء الكبار في العائلة الحاكمة وتأكدت لهم خطورة الموقف حيث وافقوا على تقليص المخصصات المدفوعة لأفراد العائلة وعلى تخفيض رواتب المسؤولين والموظفين الحكوميين بنسبة 10% إلى أن يتحسن المركز المالي للدولة..

وفي نفس الوقت تم إبطاء العمل في المشاريع الجديدة التي تنفذها الحكومة.. وسحبنا مبلغاً صغيراً من احتياطي الدولة القليل.. والذي بدأت بتكوينه قبل سنوات قلائل، واتخذت الخطوات لزيادة ضريبة الجمارك على السلع غير الضرورية من 5% إلى 10% من سعر السلعة.. أما بالنسبة للتبغ والسجائر فقد رفعنا النسبة إلى 15%...

وبالمناسبة نذكر إن المشروبات الروحية التي كان لا يسمح باقتنائها أو تناولها إلاّ للاوروبيين فقط، يتم استيرادها دون فرض رسوم ضريبية عليها لأن الشيخ حمد لا يؤيد فكرة تحصيل إيراد للدولة عن طريق استيراد سلعة محرمة حسب الشرع..

وقد كان تعاون المسؤولين الحكوميين والموظفين لاجتياز هذه الأزمة مدهشاً فلا أحد منا يود أن يرى راتبه الشهري ناقصاً، لكن وعي الجميع وتحملهم للمسؤولية فاق التوقع، ولم تصدر أية شكاوي أو علامات تذمر من الموظفين، كما لم يحدث أي اضراب بالبلاد بينما نجد ان مجرد التفكير فقط بمثل هذا الاجراء التقشفي في هذه الايام (1959) سوف يؤدي إلى الاضرابات.

والجماعة الوحيدة التي سبب لنا المتاعب في تلك الأيام هي فئة الغواصين!!

في أُكتوبر من عام 1932 هبطت بالبحرين اول طائرة ركاب.. وهي تابعة للخطوط الجوية الملكية البريطانية في طريقها إلى الهند.

وكان ما يسمى مجازاً بالمطار وهو الأرض التي نزلت فيها الطائرة يقع في المنامة وقد تحول الآن إلى ميدان أو ساحة للسباق.

وكانت المناسبة عظيمة وتاريخية، وتوجه الشيخ وأشخاص كثيرون لرؤيتها. وسارت الأمور على ما يرام إلى ان شرعت الطائرة في الاقلاع مرة ثانية وانطلقت تتحرك عبر مضمار المطار.. ثم فجأة غاصت في الرمال ونزلت إلى أسفل الأرض وشعر الجميع بالهلع والخوف الشديدين!!

وعلمنا ان سبب حدوث هذا الشئ المفاجئ هو وجود مجرى نهري قديم ومهدور في ذلك المكان ولم يكن أحد يدري بوجوده.

وأدى ضغط وزن الطائرة الثقيل على ذلك المكان إلى انهيار طبقة التراب العلوية من الأرض. رغم ذلك لم يصب أي من الركاب أو الطائرة بأضرار، لكنها انحدرت إلى عمق المستنقع ووجدنا صعوبة كبيرة في إخراجها... وطوال ذلك اليوم حاول مئات من الرجال سحب الطائرة وجرها من الحفرة بواسطة الحبال السميكة التي كانت تتقطع باستمرار كلما رفعت الطائرة بسبب وزنها الثقيل جدّا!! وفشل الرجال في استخراج الطائرة.

في ذلك اليوم انتهزت فرصة تعطل الطائرة في "المطار" واستضفت عددا من المسافرين في منزلي بما فيهم مضيف الطائرة الذي ساعد الخدم العاملين بيتي في تجهيز الطعام، بينما ذهب بقية الركاب إلى منازل أخرى ...

واعتقد إن المسافرين استمتعوا بقضاء فترة توقفهم في البحرين وشاهدوا خلالها بعض معالم هذا البلد!!

في اليوم التالي عاودنا العمل لاخراج الطائرة "التعيسة" حتّى نجحنا في تحريكها وطار بها قائدها الكابتن هورسي مباشرة إلى جزيرة المحرق حيث هبطت علـــى ارض ســـهلية واســـعة ذات أرضـــية مسطحة خلف المدينة!!

واعتباراً من ذلك اليوم أصبح هذا المكان موقع مطار البحرين الذي لا تزال الطائرات تحط فيه حتّى يومنا الحالي.

والعائق الوحيد للسفر بطريق الجو قبل انشاء الجسر الواصل بين المنامة والمحرّمه هو اضطرار المسافرين عبور البحر الواصل بين الجزيرتين بواسطة القوارب.

وقد استقبل المواطنون دخول الطائرات للبحرين بفتور.. فبعد اسبوعين من نـــزول أول طـــائرة أصبح مشهد الطائرات في الجو شيئاً عادياً، وقلما اهتم المرء بمراقبتها ومتابعتها في السماء!! وخـــلال فترة قصيرة صار معلوما لدى معظم البحرينيين بإن الطائرات هي إحدى وسائل السفر بين بلد وآخر أو من مكان إلى مكان آخر في نفس البلد!!

توفي الشيخ عيسى بن علي آل خليفة في 9 ديسمبر 1932 وهذا التاريخ يصادف ذكـــرى يـــوم ميلادي، وكان عمره حينذاك 94 سنة تقريبا، لكن بالنسبة للتقويم الهجري بلغ عمره أكثر من 97 عاماً وذلك بسبب فارق الأيام بين السنة الميلادية والسنة الهجرية.. وقد كانت حكومة البحـــرين حتّـــى قبـــل سنوات قليلة تعمل بنظام السنة الهجرية وتدفع رواتب موظفيها في نهاية كل شهر عربي...

إلاّ انني استطعت في عام 1953 تغيير ذلك النظام إلى التقويم الميلادي (الجريجوري) وأعـــددنا ميزانية الدولة وحساباتها وفقا لذلك النظام ابتداء من ذلك العام.

وبسبب عدم حلول الأشهر العربية (الهجرية) في نفس موعدها أو موسمها من كل عـــام يقـــوم الفلاحون المحليون بزراعة نباتاتهم اعتماداً على النجوم والقمر وهذا يسبب الحيرة وعدم الفهـــم لهـــواة الزراعة من الاوروبيين المتواجدين في البحرين!!

بعد وفاة والده، أصبح الشيخ حمد الحاكم الوحيد والمطلق للبحرين.. وتم الاعتراف الرسمي بـــه من قبل حكومة الهند البريطانية في احتفال حضره المقيم السياسي البريطاني نيابة عن نائب ملك انجلترا وسلم إلى الشيخ "الخريطة" وهي رسالة الاعتراف الرسمية به كحاكم للبحرين..

هذا التقليد في اعتقادي يرجع أصله إلى الهند ويلائم الامراء الهنود أكثر من أمير البحرين الذي وصفته بريطانيا رسمياً في المعاهدة المبرمة بين الطرفين بأنه حاكم لامارة عربيـــة مســـتقلة تربطهـــا علاقات وثيقة مع حكومة الهند البريطانية.

بالرغم من ذلك فقد كانت هذه المناسبة فرصة للاحتفالات واقامة المهرجانات والمواكب.. فقمت أنا وزوجتي مارجوري بالتحضير لحفل التتويج.. وتم تصميم وصناعة العرش الذي جلس عليه الشـــيخ بواسطة نجارين محليين. وكان منظر قاعة الاحتفال المضاءة بطريقة غير مباشرة غاية فـــي التنظـــيم ورائعاً جداً حيث حاز على اعجاب جميع الحاضرين..

وبدا الشيخ حمد في هيئة ملكية مهيبة في ثيابه المطرزة بالحرير مرتدياً العقال (الشطفة) الذهبية اللون فوق رأسه المغطى بالغترة البيضاء.. وقبع خنجره الذهبي في وسط حزامه، بينما وضع في يده سيفاً ذهبياً.

وكان أفراد العائلة الخليفية يرتدون الحلل الجديدة الزاهية احتفاء بالمناسبة.

وكذلك الحال بالنسبة للراقصين الشعبيين الذين انتشروا هناك فقد ارتدوا الملابس الجميلة البراقة .. اما المعتمد السياسي البريطاني وموظفو القنصلية فقد جاءوا في زيّ الاستقبال الرسمي.

وأتى رجال القوة الجوية والبحرية الملكية البريطانية بملابسهم العسكرية الكاملة.

كانت المشكلة الوحيدة التي واجهناها خلال حفل التتويج هي إن العديد من المدعوين البحرينيين قاموا بالقاء الكلمات والاشعار والخطب الطويلة احتفاء بهذه المناسبة السعيدة رغم اننا لم نحسب حساب ذلك مما أدى إلى تعطيل وتغيير برنامج الحفل بالكامل!!

وخلال أيام الاحتفالات بتنصيب الشيخ استمرت الرقصات الشعبية في جميع أنحاء البحرين ووزعت الوجبات والأكلات على الكثير من المواطنين، وعطلت جميع المؤسسات الحكومية والأهلية لمدة ثلاثة أيام متواصلة.. وسار موكب سيارات الشيخ في سوق المنامة ليلاً وسط الأنوار الملونة الجميلة في مشهد يشبه أحد البالية الروسي.. وزين كل متجر بالسوق بالسجاد الايراني والأقمشة الحريرية الخضراء والبرتقالية والارجوانية التي تدلت من أعلى.. وامتلأت الشوارع بجمهور المواطنين الذين لبسوا الثياب العربية.

وأثناء سير موكب السيارات البطئ رش أصحاب المتاجر ماء الورد والعطور الزكيّة الرائحة على الموكب.. وكنت أجلس مع الشيخ حمد في سيارته التي أحيطت بالعطور والبخور من جميع الجهات!!

وقد استغرق جفاف ملابسي من تلك السوائل وقتاً طويلاً!! بينما جلست ما رجوري وولدي الصغير جيمس أو "حمد" في سيارة أخرى واستمتعنا كثيراً بهذا الاحتفال الخيالي، في الوقت الذي قدم أصحاب الدكاكين إلى جميع المشتركين في الموكب الصواني بالحلويات والبسكويت بالإضافة إلى تعطيرهم!!

في معظم الأوقات يكون سوق المنامة مكاناً جذاباً يبعث على اعجاب المتسوقين والمواطنين نظرا لنظافته الفائقة وخلوه من الروائح الكريهة إلاّ إذا قام الفرد بزيارة القسم الذي يباع فيه السمك المجفف أو ما يسمى في البحرين "بالمالح" أو "الأحلة".

وتمتلأ المتاجر والدكاكين الكبيرة ذوات النوافذ الزجاجية بالبضائع والسلع الأوروبية والأمريكية وبالكاميرات وأدوات الزينة والأجهزة الكهربائية، وبالقمصان وربطات العنق وكل ما يريد أن يشتريه المتسوق..

ولم يكن مبنى "باب البحرين" قد شيد بعد، ولم نشاهد الملصقات الاعلانية المروجة للسلع في الشوارع والطرقات بالسوق كالمنتشرة هذه الايام.

وكانت الممرات الداخلية الضيقة مغطاة بالحصر والجدران الداخلية للدكاكين معتمة تشبه الاكواخ أو العشش، لكن أشعة الشمس تخترق ِأسقف هذه الممرات من خلال فتحات موجودة في الحصر وتنفذ إلى واجهات الدكاكين لتضئ ديكوراتها الخارجية الملونة والبضائع المعروضة للبيع في مقدمة المتاجر.

كانت زاويتي المفضلة في السوق والتي حاولت مرات عديدة رسمها في لوحاتي هي الركن الذي تباع فيه التوابل والأطياب.

ويعرض الباعة على امتداد الممر الضيق أوانيهم المعدنية فلا يتبقى إلاّ مجال قليل بين الدكاكين للسير فيه، لكنه متسع بما فيه الكفاية كي أعبره راكباً صهوة فرسي، حيث كنت غالبا ما أزور هذا الركن صباحاً قبل تناول طعام الافطار في طريق عودتي من تفقد دائرة الشرطة بالقلعة!!

وسوق التوابل بالمنامة عبارة عن مجموعة متناسقة من الألوان البنية والصفراء، وعلى المناضد الخشبية خارج الدكاكين تشاهد السلال المختلفة الأحجام والتي تحتوي على الزعفران الاصفر وبراعم الورود الجافة وكميات من الفول والبازلاء الجاف والفلفل الأحمر الغامق وحبات الثوم والقرفة والكركم والمساحيق الغريبة الألوان التي تستخدم في الطهي، والتمر الهندي وجميع أنواع التوابل والمشهيات للأكل، واكواز السكر المخروطية ا لشكل الملفوفة في أوراق زرقاء كالتي يستخدمها الباعة المتجولون...

وجو السوق عادة ما يكون معطراً بشذى الروائح الزكيّة للتوابل وماء الورد، وترى أصحاب المحلات وهم مستقلين بكسل فوق السجاجيد الإيرانية في الأماكن المنعزلة والمعتمة داخل دكاكينهم.. إما نائمين أو مرددين آيات قرآنية أو أدعية دينية... وعندما يمر شخص عليهم فأنهم يدعونه لتناول الشاي.

وفي أعلى هذا الممر الرطب الموصل بين جوانبه وسطحه يوجد متجر كبير تتعرض مقدمته لأشعة الشمس التي تضئ أواني زجاجية ذوات ألوان خضراء زاهية تحتوي على ماء الورد المستورد من إيران، وترى السجاد الأحمر الشهير المجلوب من مدينة بخارى والأقمشة البرتقالية والبيضاء والصفراء المعلقة على أسلاك معدنية أو حبال رفيعة خلال الأجزاء الداخلية للدكاكين!!

وفي هذا الموضع الخلفي الهادئ بالسوق كان يسير العمل التجاري بطريقة بطيئة ومتكاسلة.. أما الشوارع فهو ضيق جداً بحيث يصعب مرور السيارات عبره، ويتم توصيل رزم البضائع الثقيلة والأكياس الضخمة بنقلها على ظهور الحمير البيضاء القوية الجسم التي تشتهر بها البحرين!! وهذه الحمير تزيّن وتجمّل من قبل أصحابها بأشكال من مادة "الحناء" التي تصبغ رؤوسها به، مع تعليق تعويذات من السبحات الزرقاء اللون حول رقابها لأبعاد عين الحسود عنها!!

الفصل السابع

أخطأ الجميع.. وصدق هولمز!!

إن تاريخ امتياز التنقيب عن النفط في الخليج العربي يعتبر قصة محزنة من وجهة النظر البريطانية.. قبيل نهاية عام 1922 بدأت المؤسسة الشرقية والعامة " EAST & GENERAL

SYNDCATE" ـــ وهي شركة بريطانية صغيرة يمثلها في الخلـيج الميجـور فرانـك هـولمز ـــ المفاوضات مع الملك عبد العزيز آل سعود لمنحها حق الامتياز عبر مساحة من الاراضي تقـدر بـــ 35.000 ميل مربع في اقليم الاحساء بالمنطقة الشرقية التابعة للمملكة العربية السعودية...

وتنتج شركة النفط العربية الامريكية (ارامكو) الآن (1959) أكثر من ستين مليـون طـن مـن البترول سنوياً في هذه المنطقة.

وبين عام 1922 و1926 نجح هولمز في جعل شركته تفوز بامتيازات التنقيب فـي الاحسـاء والبحرين والمنطقة المحايدة التي تقع بين الكويت والسعودية.. وبسبب عدم وجود رأس المال الكـافي لها، لم تتمكن الشركة من استكشاف وتطوير وتشغيل حقول النفط، كما انها لم تكن تمتلك حتّى الرافعـة المعدنية التي تقام فوق البئر النفطي!!

واتصلت المؤسسة بشركة البترول البريطانية الإيرانية وشركة "بورما شل" بهدف الوصول إلـى إتفاق للعمل المشترك معهما، لكنها لم تلق تأييد أي منهما للمشروع.. ثم حاولت جذب اهتمـام جهـات أخرى لكن دون جدوى!

استمر بحث المؤسسة عن شرك يمولها لتنفيذ امتيازاتها التنقيب حتّى عام 1927 حيث أبرمـت إتفاقاً مع شركة نفط الخليج، الامريكية الجنسية، حصلت فيه الأخيرة على خيارات التنقيب في الاحساء أو البحرين أو المنطقة المحايدة.

بعد فترة قصيرة حولت الشركة حقوقها إلى شركة أمريكية أُخرى هي ستاندرد أويـل كومبـاني أوف كاليفورنيا الشركة الأم أو المالكة لبابكو.. وقد تم التحويل تطبيقا لشروط "اتفاقية الخـط الأحمـر" التي كنا نسمع عنها كثيرا في تلك الأيام، والتي بموجبها تمنع أية شركة بريطانية أو أمريكية أو فرنسية لها اسهم أو مصالح في شركة النفط العراقية من امتلاك امتيازات أخرى في البحرين أو المملكة العربية السعودية ...

ونظرا لكون شركة نفط الخليج امريكية وينطبق عليها هذا الشرط فقد حرمت من هذه الفرصة.

واليوم تقوم الشركات الامريكية بانتاج أكثر من نصف كمية النفط في الخليج العربي رغم انهـا في الماضي لم تبد إلاّ اهتماماً قليلاً بالمنطقة.

لم أسمع قط في حياتي تفسيراً مقنعاً لعدم رغبة الشركات البريطانية في التقدم لهذا المشروع مع انها كانت تستطيع الفوز بجميع امتيازات التنقيب، أو على الأقل مشاركة المؤسسة الشرقية والعامة في حق الامتياز وفقا لشروط معتدلة جداً.. وقد جرت سابقا عملية مسح لسطح ارض في البحرين بواسطة جيولوجيين نفطيين نتج عنها عدم تفاؤلهم وتحمسهم لامكانية وجود النفط.. لكـن هـولمز الـذي كـان جيولوجيا أيضاً لم يشك أبداً في اعتقاده بأن الذهب الأسود موجود في البحرين.

وقد أثبت التاريخ صحة رأيه فيما بعد.. وربما امتنعت شركة البترول البريطانية الإيرانية عـن الاشتراك بسبب عدم اقتناعها بوجود النفط، أو لأنها لا تريد التنقيب عنه، أو ربما ظنت ان استكشـاف البترول في اراض جديدة بالخليج سوف يخلق لها مشاكل سياسية مع الحكومة الإيرانية التي كانت تدعي

تبعية البحرين إليها وتطالب بضمها لحدودها... ولو حدث ان ساندت الحكومة البريطانية هولمز ودعمته بقوة وقامت شركة نفط انجليزية بالمغامرة وتبني المشروع ــ كما فعلت ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا ــ فإن خارطة النفط بالخليج ستكون بالتأكيد مختلفة جداً!!

كانت الحكومة البريطانية تنظر باستمرار إلى هولمز على أنه شخص غير مرغوب فيه.. وذلك رغم التقدير الكبير والاحترام الذي يلقاه من قبل الشعب والحكومة البحرينية، خاصة الشيخ حمد الذي كان يشعر بالامتنان نحوه ليس فقط بسبب إكتشافه النفط في هذه الجزيرة وإنما أيضاً لكونه أول من حفر آبار الماء الارتوازية التي تمد الأهالي بالمياه الحلوة.

على الرغم من ذلك، هناك إيجابيات لعمل شركات النفط الامريكية التي تمتلك استثمارات ضخمة في البحرين والكويت والمملكة العربية السعودية جنبا إلى جنب مع شركات النفط البريطانية.. ولأسباب سياسية وجوهرية كان الامريكيون قلقين مثلنا وراغبين في الابقاء على السلام في الخليج وحصول دويلاته على استقلالها!!

ومع ان بعض طرقهم وأفكارهم بدت غريبة بالنسبة لنا، وبالرغم من كثرة الاحتكاكات والخلافات التي تحدث معهم، لكن في ظل وجود اتفاق بريطاني امريكي حول السياسة العالمية، كان للحضور الامريكي في الخليج فائدة لكل من العرب والإنجليز.. وغالباً ما تطرح اقتراحات بتدخل شركات النفط الامريكية في السياسة!

وفي البحرين حرصت أنا على مراقبة نشاطات شركة النفط عن قرب.. ولم يحدث أبداً خلال السنوات الطويلة التي قضيتها بالبحرين أن تدخلت شركة نفط البحرين (بابكو) أو أقحمت نفسها في سياسة البلد الداخلية أو في السياسة الخليجية...

فمنذ أول يوم بدأت فيه الشركة عملها بالبحرين وحتى الآن فإن العلاقات بينها وبين الحكومة اتسمت وما زالت تتسم بالتعاون الكامل، وفي حالة بروز أية مسائل أو قضايا متعلقة بالسياسة، فإن ادارة الشركة تستشيرني باستمرار في الإجراءات التي ستسلكها.

وعندما منح الشيخ عيسى بن علي حق الامتياز الأصلي للمؤسسة الشرقية والعامة، اشترط عليها عدم تحويل الامتياز إلى شركة غير بريطانية.. لكن مع استلام نجله الشيخ حمد زمام الحكم في البلاد، كانت موارد البحرين المالية في وضع غير مستقر بسبب كساد تجارة اللؤلؤ وبالرغم من تفضيله لعمل شركة بريطانية بالجزيرة إلاّ أنه لم تبدِ أية واحدة منها الرغبة في ذلك، ولهذا وافق الشيخ على إعطاء الإمتياز لشركة أمريكية... وكان سمّوه يأمل أن يؤدي ذلك إلى سرعة انتاج البترول في حالة العثور عليه.

بعد مفاوضات مطولة بين مكتب المستعمرات وشركات النفط تم الإتفاق أخيراً في شهر أغسطس 1930 على قيام شركة جديدة تسمى شركة نفط البحرين المحدودة (بابكو) وأن تكون جنسيتها ومقر تأسيسها هو كندا لكي تضفي على شركة ستاندرد أويل كومباني أوف كاليفورنيا الصبغة أو الانتماء البريطاني.

والحقيقة أن غالبية الشعب البحريني تجهل أولا تعطي أدنى أهمية لكون بابكو مسجلة في كندا بل تعتبرها شركة أمريكية، وهي في الواقع كانت كذلك!!

بدأت بابكو عملياتها مع نهاية عام 1931 في وسط الجزيرة بالقرب من جبل الدخان ولم يهتم المجتمع البحريني بقدوم شركة نفط إليه... وذلك عكس الأوروبيين المتواجدين هنا!! كما لم يكن الشيخ أو أنا أو أي شخص يتصور مدى الثورة الإقتصادية والاجتماعية والسياسية التي سيحدثها تفجر النفط في هذا البلد إذا تم العثور عليه!!

كان بالبحرين أول حقل نفطي يتم تطويره في منطقة الخليج رغم مرور سنوات كثيرة على قيام شركة النفط العراقية وشركة البترول البريطانية الإيرانية، ولم يكن أحد في البحرين يتوقع الدخول المفاجئ لصناعة غربية كبرى إلى دولة شرقية متخلفة نسبياً!!

في بداية عملها لم توظف الشركة عمالاً كثيرين في عمليات الحفر، واستمر ذلك حتّى بناء مصفاة النفط أو معمل التكرير حيث تم تشغيل نسبة كبيرة من السكان.

وقوبل مجئ "رجال النفط" ببعض التخوف والحذر من قبل الجالية الأوروبية في البحرين. فقد سمع الناس روايات عن مغامرات الأمريكيين العاملين بحفر الآبار التابعين لشركة النفط البريطانية في مدينة عبدان وتوقعوا منهم التصرف مثل رجال الكاوبوي الذين نشاهدهم في الأفلام الأمريكية.. لقد كانوا جماعة خشنة غليظة مع الناس، لكنهم بالتأكيد اختيروا بسبب سلوكهم الحسن.

مع مرور السنوات ازداد عدد "رجال النفط" بصورة كبيرة واشتمل على نسبة عالية من العمال البريطانيين القادمين من شمال انجلترا وأخذت الحوادث المزعجة تقع باستمرار!!

احدى الصعوبات التي واجهناها معهم كانت تتعلق باللون، فعندما يذهب بعضهم إلى السوق ويسبب الفوضى أو يثير القلاقل فلابد أن تتدخل الشرطة لتؤدي واجبها. ونظرا لكون معظم رجال الشرطة سمراً افريقيين أو ذوي صبغة سوداء فإن الأمريكيين على وجه الخصوص يرفضون الانصياع لأوامر البوليس!!

وفي أحيان كثيرة يتم إبلاغي ليلاً أثناء حضوري لحفلات عشاء بأن "الأمريكيين يعملون تشويشاً" ويجب عليّ الحضور بصفتي رئيساً للشرطة!

وفي الحال أتجه إلى مكان الحادث لأحل الاشكال وأبقى هناك حتّى ترسل الشركة عدداً من رجال الأمن لديها لابعاد المشاغبين.. وقد كنت دائماً أتوقع مطاردتي من قبل الأمريكيين لكن ذلك لم يحدث أبداً!!

وربما أدى ظهوري المفاجئ باستمرار في أنحاء السوق مرتدياً معطفي المسائي إلى تأثير فعال وإلى إنضباط المنتهكين المزعجين.

بعد عدة سنوات، عندما استعانت شرطة البحرين ببعض الضباط الإنجليز، أصبحت المهمة سهلة وانصاع موظفو بابكو الأمريكيون والمخمورون للنظام.

أول سكن لعمال وموظفي النفط بني على سفح جبل الدخان وكان عبارة عن مخيم (كامب) يتكون من أكواخ برميلية تبنى من صفائح حديدية جاهزة، وهذه الأكواخ تعرف بإسم أكواخ نيسن.

وقد حسدنا ــ نحن القاطنون في المنامة ــ الأمريكيين على التسهيلات ووسائل الراحة والمتعة الموفرة لهم.. فقد كانوا ينعمون بالماء الحار والبارد وبالمرافق الصحية الحديثة، وبثلاجات التبريد وبمعدات الطبخ الجديدة بالنسبة لتلك الأيام.

أول مدير لبابكو هو أدوارد سكينر الذي أصبحت زوجته صديقتنا الحميمة.. وبعد مغادرته البحرين بسنوات، رجع ليشغل منصب المدير المقيم للشركة واستمر في منصبه حتّى وفاته قبل مدة قصيرة من تركنا البلاد بصورة نهائية.

وبدأت زوجات الموظفين الأمريكيين في المجئ إلى البحرين حيث أضفن نكهة جديدة إلى الحياة الاجتماعية هنا وبعضهن أدهشن سكان المنامة المحتشمين بتعابيرهن الجريئة!!

وكنا نلتقي بالكثيرات منهن ونتقابل على مآدب العشاء مساء كل يوم أربعاء.

في إحدى المناسبات أدهشت سيدة أمريكية موظفي الشركة وأحرجتهم عندما قالت بصورة علنية انها لا تعتقد بأنها ستلعب التنس لأنها حامل!! وكانت عمتي (والدة زوجتي) التي تسكن معنا دائماً تردد هذه الواقعة.

سيدة أخرى دأبت باستمرار على ارتداء قفازات اليد حتّى ظننا جميعاً ان هناك عيباً بإحدى يديها، إلى ان قالت في إحدى المرات بأنها لا تريد ان تلمس أي شئ يلمسه الأهالي!! على الرغم من ذلك، فقد كانت النساء الأمريكيات مرحات وودودات وبإعتقادي انهن كنا ينظرن إلى بعضنا كأناس غريبين أو شاذين عن المألوف!!

سألني صديق بحريني ذات مرة عن السبب في وضع الأمريكيات الكثير من "البودرة" على وجوههن، فرددت بأنهن ربما يردن الحفاظ على جمال بشرتهن، فعلق قائلاً: ان وجوههن ناصعة البياض قبل أن يضعن أي شئ عليها، فهل يردن أن يجعلنها أبيض من ذلك؟

القليل من الاجانب يعرف ان البحرينيين سريعي الملاحظة.. ففي احدى حفلات العشاء، ارتدت السيدات الأمريكيات ملابس سوداء أو داكنة جداً .. تاجر بحريني حضر إلى الحفل، سألني: من هو المتوفى؟ وأجبته على الفور: لا أحد، لكن لماذا تسأل هذا السؤال؟ فرد التاجر: إذن لماذا تلبس النساء ملابس الحزن السوداء؟

في مايو 1932 عثر على النفط في اول بئر تم حفره، لكن حجم تدفق السائل كان صغيراً بالإضافة إلى كمية قليلة من الغاز الطبيعي.

ولذلك بدلاً من الفرحة والاندهاش، تحدث خبراء النفط بحزن عن عدم وجود البترول بكميات كافية للاستغلال التجاري وعن عدم توفر الغاز اللازم لدفع النفط إلى خارج الأرض، لكن المناسبة العظيمة هي ان الذهب الأسود قد اكتشف في البحرين.

على الرغم من ذلك لم يؤد هذا الحدث إلى إثارة وتحريك البحرينيين... وبدأت بابكو في حفر بئر آخر، وفي يوم عيد الميلاد (الكريسماس) بعد مغادرتنا مباشرة لكنيسة الإرسالية الأمريكية جاءتنا رسالة من الميجور هولمز يطلب منا المجئ في الحال إلى موقع البئر رقم (2) الذي تدفق منه النفط بانـــدفاع شديد.. كان يوماً قارس البرودة بلغت فيه درجة الحرارة خمس درجات مئوية بالرغم من بزوغ الشمس وتبين للأجانب مدى البرودة التي يمكن أن يصل جو البحرين إليها في الشتاء..

وعندما وصلنا ــ أنا ومارجوري ــ إلى البئر الواقع على السهل القريب من جبل الدخان شاهدنا بركاً ضخمة من السائل الأسود وأنهاراً من النفط تجري عبر الوادي وأخذ البترول إضافة إلى الـــدخان الأسود (الذي عرفنا فيما بعد انّه الغاز الطبيعي) يتفجران ويندفعان بقوة من البئر المحفورة وتلطخـــت جميع الآلات والمعدات والرجال من أعلى إلى أسفل بالنفط.

وصار من المستحيل علينا أن نميز العمال الأمريكيين عن البحـــرينيين حيـــث أصـــبح لـــونهم متشابهاً!!

لم يكن المنظر جميلاً لكنها كانت لحظات مثيرة وتاريخية بالنسبة لي، فقد تم العثور على حقـــل للنفط في البحرين.

وكان يوماً خالداً ومشهوداً للميجور هولمز الذي أثبت صحة نظريته الآن. لم نمكث طويلاً عنـــد بئر النفط بسبب إرتباطنا بإقامة حفلة للأطفال في عصر ذلك اليوم على شرف ابننا الصـــغير جـــيمس، وإرتباطنا الآخر بإقامة مأدبة عشاء لجميع أفراد الجالية الأوروبية في البحرين.

ولسوء الحظ، وقع خلل كهربائي بالبيت اضطررنا على أثره الإحتفال مع الأطفال على ضـــوء الشموع، واستمر انقطاع الكهرباء الذي كان مألوفاً في تلك السنين حتّى وقت الاعداد للعشاء وهذا هـــو أحد الأسباب التي تجعل من الصعب أحياناً الحفاظ على ترتيب و تنسيق منزلنا. لكن الخدم التابعون لنا أظهروا همتهم ونشاطهم وأدوا مهمتهم على أحسن وجه، وعادت الأنوار إلى المنـــزل قبـــل وصـــول الضيوف، حيث اضاءت الاحتفال البهيج جداً بمناسبة اكتشاف اول بئر نفطي "حقيقي" في البحرين!!

إثر هذا الحدث الكبير، ظننت ــ وكنت مخطئاً جداً ــ ان صعوبات البلاد المالية التـــي أقلقتنـــي طويلاً سوف نجد لها حلاً على الفور بسبب وجود النفط.. لكن تصدير أول شحنة من انتاج النفط إلـــى الخارج لم يتم إلاّ بعد سنتين وبدأت على اثرها إيرادات البحرين في التحسن. وخلال السنة الأولى التي تلت إكتشاف النفط دارت مفاوضات طويلة جداً بين الحكومة التي أمثلها أنا نيابة عن الشيخ حمد، وبين شركة النفط المراقبة جيداً من قبل الحكومة البريطانية. وعقدت إجتماعات مستمرة ومناقشات مطولـــة استغرقت ساعات عديدة كل أسبوع، وبعد كل إجتماع أقوم بإبلاغ الشيخ حمد عما يجري خلاله وآخـــذ وجهة نظره وأفكاره حول الإقتراحات المطروحة... كانت المفاوضات عسيرة، لم يتفق الطرفان فيهـــا على أُمور معينة، كما أقحمت المسائل الشخصية بشكل كبير أثناء المناقشات... كانت بابكو تريد التوسع في الترخيص الممنوح لها بالتنقيب عن النفط على رقعة من الأرض تبلغ مساحتها 100.000 أكراً فقط،

وتنوي إضافة بقية الأراضي والمناطق البرية والبحرية التابعة للشيخ إلى ذلك، وكنت والشـيخ نريـد تطوير حقل النفط بأقصى سرعة ممكنة حتّى يتسنى للحكومة فرض الرسوم الضريبية عليه.

أما الحكومة البريطانية فقد اهتمت بسياسات نفطية أشمل تؤثر على المنطقة جميعها وذلك رغـم غموض هذه السياسات الشديد بالنسبة لنا.

وتعقد الموقف بصورة أكبر حينما تقدمت شركة نفط العراق في عام 1934 كمنافس آخر للتنقيب عن النفط في الأراضي الإضافية.

وفي النهاية حسم الشيخ حمد الأمر لصالح بابكو حيث منحها ذلك التـرخيص بالكامـل، وأحـد الأسباب التي دعته إلى إتخاذ ذلك القرار هو ان البحرين صغيرة جداً ولا يمكنها اسـتيعاب شـركتين نفطيتين متنافستين في آن واحد.

للمرة الأولى... الميزانية تعلن للشعب

أعطى اكتشاف النفط في البحرين دفعة قوية إلى شركات البتـرول الأخـرى للحصـول علـى امتيازات التنقيب بإمارات الخليج العربي.

ففي عام 1935 منح حاكم قطر امتيازاً لشركة النفط العراقية التي حفرت اول بئر ناجح لها في عام 1938. وبنفس السنة حصلت شركة ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا على حق التنقيب في المنطقـة الشرقية بالمملكة العربية السعودية وتم العثور على النفط بعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ.

وفي الكويت، عقب مفاوضات طويلة ومعقدة، أعطي الإمتياز لشركة نفط الكويت التـي تملكهـا مناصفة كل من شركة البترول الإيرانية البريطانية وشركة نفط الخليج (الأمريكية) واكتشف النفط فـي البئر الثاني هناك عام 1938.

أما المنطقة المحايدة فقد فازت بامتيازها شركة البترول الأمريكية المستقلة، التي وجدت الـنفط بكميات تجارية في عام 1953.

لكن البحرين وهي أول إمارة خليجية يكتشف فيها النفط، كان حقل البترول بها صغيراً جداً ولـم يستطع إنتاج أكثر من مليونين وربع المليون طن سنوياً على الرغم من إستخدام وسائل العناية والمراقبة القصوى.

وهذه الكمية من الإنتاج ضئيلة عند مقارنتها بانتاج الكويت والمملكة العربية السعودية التي تنتج كل منها ستين مليون طن تقريباً (1959).

أما النعمة التي أسبغها الله على البحرين فهي الزيادة التدريجية في عائدات النفط التي سمحت في وقت قصير ببناء إدارة متكاملة قادرة على التخطيط للمستقبل، فلم يكن التحول مفاجأً كما حـدث فـي إمارات الخليج الأخرى التي انتقلت من مرحلة الفقر الشديد إلى مرحلة الثروة الخيالية.

كنت أتوقع مع مطلع كل سنة حجم مدخول النفط الذي سنحل عليه بالتقريب وغالباً مـا تصـدق توقعاتي.

وأقنعت الشيخ حمد بإصدار ميزانية تقديرية مطبوعة لكل سنة لكي يعرف الشعب حجم إيرادات الدولة وأوجه مصروفاتها وأوضحت له ان هذا النظام تتبعه جميع الدول المتقدمة.

وقد وافق الشيخ على ذلك بشرط إلاّ يؤدي إلى حدوث مشاكل.

عندما أبلغت رئيس الكتاب، البحريني الكبير في السن، موافقة الشيخ لم يصدق في البداية لكنه حينما عرف انني جاد فيما أقوله علق قائلاً: ان الناس هنا لا يريدون ان يعرفوا هذه الأمور، كما انهم لا يفهمون الارقام، فلماذا نطلعهم عليها؟! ورددت عليه بأنه في هذه الحالة لا يوجد أي خوف أو مانع من نشرها.

وعندما أصدرنا نسخا من الميزانية التقديرية الأولى المبسطة لحكومة البحرين وجدنا أن الشعب إستحسن الفكرة كثيراً.

ولهذا وضعت نهاية للفكرة القائلة بأن الحكومة تحتفظ بالأموال الطائلة لديها وإنها تستطيع أن تصرف أكثر مما تنفق حالياً!!

في السنوات التالية.. أخذنا ننشر ميزانية الدولة بالكامل بالجريدة الرسمية واستمر ذلك لسنوات طويلة قبل أن تبدأ إمارات الخليج الأخرى الإعلان حتّى عن الإطار الخارجي لميزانياتها.. وتم تقسيم إيرادات النفط إلى ثلاثة أجزاء متساوية، الجزء الأول خصص لإحتياطي الدولة وللمشاريع الإنتاجية، والثلث الثاني خصص للشؤون الإدارية وأمور التنمية والجزء الثالث جعل لمخصصات الشيخ والعائلة الحاكمة.

لم تلاقي هذه السياسة التأييد الشعبي.. فكثير من البحرينيين رأوا انّه لا توجد فائدة من إيداع مبالغ معينة في جهة دون المساس بها وذلك تحسباً للمستقبل كما اعتبروا الفوائد المصرفية التي نحصل عليها من هذه الاستثمارات قليلة جداً!!

وعدد كبير منهم تمنى ان تستخرج جميع كميات النفط الموجودة بالارض بأسرع ما يمكن لكي تتحول إلى مبالغ نقدية في الحال وبالنسبة للمستقبل ــ حسب رأيهم ــ فإن الله سيتكفل به "وسيرزقنا من حيث لا نحتسب"!!

مع مرور الزمن توسعت عمليات بابكو، وكانت هناك دائماً خطة انشائية كبيرة جديدة تحت التنفيذ، وفي الحقيقة لم تتوقف عجلة الشركة أبداً في مشاريعها ولا حتّى لاستراحة قصيرة من أجل التنفس ومعاودة السير.

أما المشروع الأكثر أهمية الذي نفذته بابكو فهُو بناء مصفاة النفط المسماة بمعمل التكرير الذي أنجزته المرحلة الأولى منه في عام 1937، وتم توسعته وتطويره فيما بعد لاستيعاب النفط القادم من المملكة العربية السعودية عبر خطوط أنابيب يبلغ طولها 25 ميلاً ممتدة تحت البحر من مدينة الدمام إلى المعمل.

وبنت بابكو رصيفاً بحريا طوله ثلاثة أميال بالقرب من المصفاة الواقعة على الساحل والذي مكن ناقلات البترول من الإصطفاف بمحاذاة الرصيف، كما شيدت بابكو مصنعاً للأسفلت وآخر للخزانات.

وأخذ حجم مدينة النفط وهي "عوالي" يزداد بصورة مستمرة وانشئت مكاتب إضـــافية، وأنديـــة، ودور سينما وأماكن للترفيه والتسلية، وكثرت المنازل لكن عدد سكان المدينة من الموظفين الأوروبيين كان الغالب عليها.

ونتج عن النشاط المتواصل للشركة زيادة عدد العمال البحرينيين وارتفاع أُجورهم وأنفقت بابكو مبالغ طائلة على مشاريع البناء وساهمت مشترياتها من السوق المحلية بدرجة كبيرة في ازدهار الدولة.

لقد كان حقل النفط صغيراً، وتوقعنا أن تكون حياته الانتاجية صغيرة نسبياً، لذلك شعرت دائمـــاً بأن وجود مصفاة كبيرة للبترول تعتمد بصورة رئيسية على النفط السعودي وتوفر الوظائف لقطاع كبير من سكان البحرين، هو تقريباً في نفس مستوى الفائدة التي يقدمها حقل النفط لاقتصاد البلاد.

من الاقسام الاولى التي شيدت بمعمل التكرير ما يسمى بمصنع "التكسير" الذي تجرى به عملية التقطير الهدام للبترول، ونظراً لأني لست مهندساً لن أقوم بشرح وظيفته... وعندما اكتمل بنـــاء هـــذا المصنع دعينا لرؤيته، وذهبت مع زوجتي مارجوري وابننا الصغير جيمس البالغ مـــن العمـــر خمـــس سنوات...

وبعد ان شاهدنا كتلا كبيرة من الأنابيب والآلات المعقدة عدنا راجعين إلى البيت. وأثناء قيـــادتي للسيارة سألني جيمس بعتاب: لماذا لم يرونا مصنع التكسير الذي أخبرتني به سابقاً؟ فقلت له: لا تكـــن غبياً، لقد شاهدناه كلنا.. وبدا إبني غير مقتنع وقال معلقاً: انني لم أشاهد أي مصنع هناك، ولـــذلك أنـــا مصرّ على رؤية المصنع الذي يتكسر ويتفرقع!!

كانت العلاقة بين الحكومة وبابكو دائما جيدة، ولعدة سنوات لم تواجه الشركة أية مشاكل عمالية ملحوظة، رغم انّه في عام 1938 ، حاولت مجموعة من البحرينيين القاطنين بالعاصمة (المنامة) والتي لا تعمل في بابكو تنظيم اضراب وذلك تعاطفاً مع ميولها السياسية، لكنها فشلت في ذلك.

وكانت هذه المجموعة تعلم أن باستطاعتها الحصول على التأييد الشعبي بالتظاهر إحتجاجاً على كثرة الموظفين الهنود بالشركة.

لم يضع البحرينيون في تصورهم ان تدريب الموظفين الجدد لكي يصبحوا عمالاً مهرة قـــادرين على الامساك بالمراكز الادارية يستغرق وقتاً طويلاً، وانه من الضروري الاستعانة ببعض الخبـــرات الاجنبية من الهند والعراق لبضع سنوات لشغل المناصب التي يحتل البحرينيون الآن معظمها..

لكن الشعور والتظاهر ضد تشغيل الأجانب لم يمتدا إلى الانجليز والأمريكان، فحتى الناس الأكثر عداء لتوظيف الأجانب يعرفون أن لدى الأوروبيين المؤهلات العلمية التي لا يحملونهـــا. أمـــا اليـــوم (1959) فهناك شعور مختلف، فالكثير من الشباب البحريني المتعلم بالخارج يعتقدون بـــأنهم مؤهلـــون وأكثر قدرة على تولي المناصب العليا من الأوروبيين.

وفي رأيي ان بعضهم، وليس جميع من يفكر بهذه الطريقة، هم أهل لهذه المسؤولية.. لكن حتّـــى أولئك الذين حصلوا على درجات جامعية من الدول العربية يفتقرون إلى الخبرة التي يمكن الحصـــول

عليها بعد سنوات طويلة من الدراسة في الدول الغربية يتم خلالها الاهتمام بتشكيل الشخصية وبناؤهـــا، وهذا الشئ لا يوجد ضمن مناهج البلدان الشرقية!!

الفصل الثامن

في يناير 1936 عُيّن الشيخ حمد قائداً شرفياً للفرسان في الإمبراطورية الهندية التابعة لبريطانيا العظمى.. وقد دعت الحكومة البريطانية الشيخ لزيارة انجلترا وتسلم الشارة الشرفية من الملك أدوارد، فطلب منا الشيخ مرافقته في الرحلة.. فقمت بالترتيب للسفر عن طريق البر، وتكوّن أعضاء الوفد مـــن الشيخ، وإثنين من أبنائه، أنا وزوجتي، وسكرتير الشيخ الذي لا يتكلم الانجليزية بالاضافة إلى ثلاثة خدم لم يشاهدوا أبداً في حياتهم أي قطار!!

وعند وصولنا إلى انجلترا اضطرت مارجوري للعمل كسكرتيرة اجتماعية أو ممثلـــة علاقـــات عامة فأجادت دورها بكل اتقان!!

توقفنا في بغداد حيث قابل الشيخ ملك العراق، وزرنا السفير البريطاني في مبنى السفارة القـــديم والجذاب في نفس الوقت والواقع على ضفاف نهر دجلة، والذي أحرقه المتظاهرون في عام 1958 .. وركبنا القطار الخاص الذي وفرته لنا الحكومة العراقية وكانت رحلتنا عبر العراق مريحة جداً، وفـــي كل محطة نقف فيها، نجد لجنة للاستقبال تقوم بالترحيب بنا.

ثم انتقلنا إلى قطار الأكسبريس السريع وحينما وصلنا إلى العاصمة التركية ايقظنا الخدم قـــائلين بأن هناك جماعة من الناس على رصيف المحطة يسألون عنا.. فقمنا أنا والشيخ بارتداء ملابسنا علـــى عجل وخرجنا لنشاهد مجموعة من المسؤولين في المكتب الخارجي للسفارة البريطانية بانتظارنا لتحيتنا.

بعد ذلك كنا نستعد لمقابلة الزوار في كل محطة رئيسية تالية، لكننا لم نشـــاهد أحـــداً يســـتقبلنا! وعقب اسبوع تقريباً وصلنا إلى الجهة القاصدين إليها.

استغرقت زيارة الشيخ لبريطانيا أكثر من شهر كامل، قابل الملك ادوارد حيـــث قلّـــده الشـــارة العسكرية، كما حصلت أنا على رتبة من نوع آخر وتم تسليمي إياها في حفل خاص.

وخلال إقامته بلندن، حضر الشيخ حمد مأدبة عشاء أقامها على شرفه اللـــورد زتلانـــد وزيـــر الخارجية البريطاني لشؤون الهند، والتقينا خلالها بأصدقاء قدامى منهم السير بيرسي كوكس، واللـــورد لويد.

لقد زرنا عدة أماكن سياحية بالعاصمة لندن ومدينة ساوثمبتون وتجولنا فيهما بعناية بالإضافة إلى تسوقنا.

وكان برنامج الزيارة الموضوع لنا يحتوي على حضور حفل باليه مونت كارلو بصحبة الملكـــة فيكتوريا حيث شاهدنا الأميرة شهر زاد، كما زرنا متحف توسو، وأخذ الشيخ يتأمل تمثال الملك هنري الثامن محاطا برؤوس زوجاته التي يقطعها عندما يسأم منهن!!

وقد حضرنا سباقاً للكلاب في ويمبلي حيث استمتعنا بأمسية رائعة راهنت فيهـا علـى الكـلاب المتسابقة والتي فازت وجعلتني أربح الرهان.. ورغم ان الشيخ امتنع عن المشاركة في الرهان إلاّ أنه أوصاني باختيار كلاب معينة، وكان اختياره موفقا!!

وذهبت مع الشيخ إلى كلية لنكولن باكسفورد وهي الكلية التي درست فيها سابقاً وأخـذنا العميـد إي. سي. مارشانت في جولة بأنحائها.

كما زرنا هنتلي اند بالمر للبسكويت بمنطقة ريدنج حيث طلب من الشيخ اختيـار نمـاذج منهـا لتقديمها له كهدية وشحنها إلى البحرين، وكذلك طلب مني أن أختار مجموعة أخرى مـن البسـكويت لارسالها لي.

وفعلا تم شحن حقيبتين كبيرتين محملتين بالهدايا عن طريق البحر. وعند رجوعي إلى البحرين لم أجد الحقيبة المرسلة بإسمي رغم وصولها!! أما حقيبة الشيخ فقد وصلت بسلام، وعلى ما يبدو فـإن عملية سطو قد وقعت للحقيبتين وكلما أتذكر هذه الحادثة أشعر بالأسف لفقدان نماذج البسـكويت التـي انتقيناها بعناية!!

وقمنا بزيارة المدرسة التحضيرية التي يدرس فيها إبني جيمس البالغ السابعة من عمره آنذاك.

وفي قلعة لندن تناولنا القهوة في بيت حاكمها وحينما سأل الشيخ عن صاحب الصورة المعروضة بالقلعة، انتهزت الفرصة لكي أخبره بكل فخر بأنه عمي الأكبر المارشال السير ريتشارد داكريس الذي كان يوماً ما مسؤولاً عن القلعة.

ذهبنا إلى مدينة ادنبره وقضينا عدة أيام، وصباح كل يوم يتجمع حشد كبير من الناس أمام الفندق الذي يقيم فيه الشيخ لرؤية الأمير الشرقي غير المألوف لديهم!! وحضرنا مأدبة غداء اقامها على شرف الشيخ اللورد بروفوست عمدة ادنبره تخللها الموسيقى وأبواق النفخ.

كما رافقنا أثناء رحلتنا الكولونيل جوردون لوك الذي عمل في فتـرة سـابقة كمقـيم سياسـي بالبحرين.. وزرنا معه قلعة بينس القديمة الرائعة بالقرب من لينليثجو وفي طريقنا للقلعة مررنا بمدرسة أطفال أعطي تلاميذها إجازة في ذلك اليوم من أجل رؤية الشيخ.

وأحاط مئات التلاميذ من الأولاد والبنات بالشيخ وهم يلوحون بأتوغرافاتهم لكي يوقع فيها.

ولما حان موعد العودة، سلك الشيخ نفس خط الذهاب بعد قضـائه بضـعة أيـام فـي بـاريس واسطنبول.. وقد سافرت معه حتّى مدينة حيدر باشا حيث ودعته عند محطة القطار الذي سـوف يقلـه إلى بغداد، ورجعت إلى انجلترا لتكملة إجازتي.

مدير الهداية الخليفية يهاجم المقيم البريطاني .. ويرحل!!

20% من سكان البحرين يعانون من الملاريا!!

البعوض يمتص دماء البحرينيين!!

أربعة أشقاء بخمس عيون فقط!!

كان عام 1937 عاماً مميزاً في تاريخ البحرين، شهدت خلاله تقدماً في إيرادات النفط وبدأ تحديث الدولة وتحسين الوضع الصحي بالبلاد.. وذلك بناء على رغبة الشيخ حمد إثر زيارته لبريطانيا.. وكان مرض الملاريا منتشراً بجميع أنحاء البحرين خصوصاً في القرى حيث يتكاثر البعوض بمجاري المياه الملوثة وفي العيون الراكدة بمزارع النخيل إضافة إلى جرات الماء الفخارية الكبيرة الموجودة بكل بيت والتي لا يتم اخلاؤها وتنظيفها أبداً.

في تلك الفترة قمت بجلب الميجور أفريدي وهو خبير في مكافحة الملاريا يعمل في خدمة الحكومة الهندية وقد أعد تقريراً يبين كيفية تقليص تفشي المرض ثم القضاء عليه نهائياً.

أول خطوة توجب علينا إتباعها كانت توعية الناس بأن البعوض هو الذي يسبب الملاريا، فالكثير منهم يغطون أجسامهم بالشراشف والبطانيات والأقمشة في الليل لكي يقوا أنفسهم شر البعوض لكن دون أن يربطوا بين هذا العمل وبين الملاريا.

وقد رسمت مجموعة ملصقات مبالغاً فيها تظهر هذه الحشرات المؤذية داخل جرات الماء وهي تمتص دماء البحرينيين المستسلمين لها وكان لهذه الملصقات ــ حسب اعتقادي ــ بعض التأثير.

ثم قمنا بإحضار أفلام وكتب تثقيفية توضح أخطار البعوض. وبعد حملة التوعية الصحية التي اشتملت على شرح كيفية حدوث الملاريا وتحذير الناس بدأنا بكسر الجرات التي ينمو فيها البعوض وواجهنا صعوبة شديدة عند تنفيذ هذا الإجراء بسبب امتناع المواطنين عن التجاوب معنا لأنهم سوف يخسرون الجرات التي دفعوا في شرائها ثمناً لا يستهان به.

ثم وظفنا مشرفين هنود ملمين بهذا العمل حيث تولوا مهمة إدارة عدد كبير من الرجال وتوجيههم لتنظيف مجراي المياه واستنزاف العيون.

لكن للأسف، لم نلق أي تعاون من قبل الشعب، فبعض أصحاب البساتين رفضوا السماح لنا بدخول بساتينهم، كما امتلأ مكتبي كل يوم بالمزارعين الغاضبين الذين يشتكون من فرق مكافحة الملاريا التابعة للحكومة، لكنهم عادة ما يخرجون راضين مع أخذ وعد منهم بمساعدة رجالنا.

مع مرور السنوات بدأ الناس التحقق من فائدة ذلك العمل وأصبح القرويون يأتون لي باستمرار للإبلاغ عن الأماكن التي يتواجد فيها البعوض ويطلبون إرسال فرقة مكافحة الملاريا إليها.

أظهرت الإحصائيات التي أجريت من قبل المدارس والمستوصفات والشرطة في عام 1937 ان عشرين بالمئة من سكان البحرين يعانون من مرض الملاريا.

وهذه النسبة تم تقليصها إلى أقل من واحد بالمئة في عام 1956. ولتحقيق هذا الإنجاز الكبير توجب علينا صرف مبالغ كثيرة وبذل جهود مضاعفة بواسطة الدكتور سنو رئيس الفريق الطبي وموظفيه.

ومع ان هذا الإنجاز ليس براقاً وملموساً يمكن ان ينال إعجاب كبار ضيوف البلاد واطلاعهم عليه كالشوارع الجميلة والمباني الحديثة والموانئ الجديدة، إلاّ أنه كان واحداً من أنجح المشاريع التي نفذناها وربما أكثرها نفعاً للمواطنين.

مشروع آخر كان يدور بخلدي، وأقره الشيخ إلاّ وهو بناء مستشفى حكومي في البحرين. ولا أنكر هنا ان مستشفى الإرسالية الأمريكية أدى وما زال يؤدي خدمة جليلة لأبناء البلاد، كذلك قام مستشفى الملكة فيكتوريا التذكاري، التابع لدار الاعتماد السياسي البريطاني، رغم صغره وقلة تجهيزه، بدور لا يستهان به حسب إمكانياته.. مع ذلك كان عدد أفراد الجهاز الطبي والتسهيلات التي تقدم بهذين المستشفيين غير كافية لتغطية احتياجات سكان الجزيرة!!

إضافة إلى ذلك شعرنا ــ أنا والشيخ ــ بضرورة أن توفر الدولة الخدمات الطبية لشعب البحرين.

فقبل ذلك العام، انتشرت بعض المستوصفات البدائية نسبياً في مختلف أرجاء البلاد والتي اشتملت على الرعاية الجيدة للمرضى وقمنا بتوظيف العديد من القابلات القانونيات المدربات من الهند للتعامل مع النساء.

وأدارت زوجتي مارجوري بالاشتراك مع ممرضة هندية عيادة صحية في القلعة لعلاج عائلات رجال الشرطة، كما استقبلت العيادة أشخاصاً من الأحياء المجاورة، لكن معظم النساء البحرينيات كن يخشين ان يتولى الرجال الأجانب العناية بهن أثناء الولادة، لذلك ارتفعت حالات وفيات المواليد والأطفال الرضع.

لقد انزعجت الممرضة واسمها السيدة جامب كثيراً من الممارسات الخاطئة والخطيرة "للولاّدات" المحليات اللواتي يحشين رحم المرأة عقب ولادتها مباشرة بكميات من ملح البحر لغرض تقليص عضلاته والعودة إلى حالته الطبيعية!! وهذا الشئ يؤدي إلى حدوث مضاعفات شديدة للمرأة عندما تضع مولودها التالي.

وفي بعض الحالات تقف القابلة المحلية فوق بطن المرأة الحامل للتعجيل بالولادة!! ولذلك ليس من المستغرب خروج العديد من المواليد وهم أموات.

أمراض العيون أيضاً كانت منتشرة بكثرة في البحرين خصوصاً التراخوما وعدد كبير من البحرينيين لم يكن لديهم إلاّ عين واحدة فقط!!

ومن الطرائف التي أذكرها في هذا الصدد وجود أربعة أشقاء من التجار المشهورين بالجزيرة والذين يبلغ مجموع العيون السليمة لديهم خمس عيون فقط!!

وفي الماضي امتلأت سوق المنامة بالذباب قبل ان تبدأ دائرة الصحة برش المدينـــة بالمبيـــدات الحشرية المعروفة بإسم دي . دي. تي، كذلك انتشرت الأمراض التناسلية التي يتحدث عنها الناس بخفة ودون اكتراث كما لو كانوا يتحدثون عن الانفلونزا!!

الجدري أيضاً كان له نصيبه حيث يظهر كل عام بالرغم من إجراءات الحجر الصحي، واستمر ذلك الوباء حتّى تبين للمواطنين فائدة التطعيم وأخذوا يُقبلون بالآلاف على المستوصـــفات مـــن أجـــل التحصن ضد هذا المرض، كما فرضت الحكومة التطعيم الإجباري لطلبة المدارس وللمســـافرين إلـــى الخارج.

في السنوات الأخيرة أصبح الجدري نادر الوجود في البحرين وعندما نعثر على بعض الإصابات به نجد أنها جاءت نتيجة العدوى المحمولة من بلدان أُخرى.

وفي الحقيقة ان هذا الحديث عن الأمراض المستوطنة بالبحرين لا يعني انها كانت مكاناً غيـــر صحي بالنسبة للأوروبيين المقيمين، فلقد تكيفوا حتّى مع جوها الشديد الحرارة والذي تصـــل درجتـــه خلال فصل الصيف إلى 44 درجة مئوية مصحوبا بالرطوبة الخانقة التي تبلغ 98 بالمئـــة، واحتفظـــوا معظم الأوقات بصحة جيدة!!

قبل بناء المستشفى صار لزاماً عليّ إنشاء دائرة للاشغال العامة. ففي السابق كنت أقوم بنفســـي بتصميم جميع المباني الحكومية الجديدة، لكنها كانت مبان عادية وبسيطة، لذلك فان تخطيط وتشييد أحد المستشفيات هو أمر معقد جداً لا أستطيع تحمل مسؤوليته.

وأعمال البناء في تلك السنوات كانت تجري تحت إشراف خان صاحب محمد خليل مراقب دائرة التسجيل العقاري بالاشتراك مع اثنين أو ثلاثة من الموظفين العرب والهنود.

ومن المباني التي قاموا بتشييدها قاعدة البحرية البريطانية، مبنـــى محـــاكم البحـــرين، ومبنـــى الجمارك. وقمت بالاستعانة بموظف هندي متقاعد في شؤون الاشغال العامة لتولي مســـؤولية الـــدائرة الجديدة، الذي شغل هذا المنصب لعدة سنوات قبل تعيين مدير انجليزي لها.

في عام 1937 إزدهر الاقتصاد البحريني فقد شهدت الجزيرة موسم غوص جيد، وارتفعت أجور العالمين بشركة النفط... وقرر بعض الشبان من أبناء البلاد فتح دار للسينما واعتقـــدوا انهـــا ســـتكون مشروعاً ناجحاً ومربحاً.

كانت هذه الفكرة موضع نقاش طوال السنوات القليلة السابقة لكنها قوبلت بالمعارضة مـــن قبـــل كبار السن الذين رأوا بان السينما سوف تجذب الأطفال والشبان اليهما وستضطرهم إلى لعـــب القمـــار والسرقة من أجل توفير ثمن تذكرة الدخول.

هذا الرأي بدا من وجهة نظري غير موضوعي ومستبعد الحدوث. وفـــي تلـــك الســـنة هـــدأت المعارضة وافتتحت أول دار للسينما بالبحرين، ومنذ ذلك التاريخ أصبح البحرينيـــون عشـــاقاً للأفـــلام وهناك الآن (1959) ثمان دور سينمائية أهلية في المنامة والمحرق بالاضافة للدور التابعـــة للقـــوات الجوية الملكية البريطانية ولبابكو وللبحرية البريطانية.

أنا شخصياً مغرم بمشاهدة الافلام، لكنني اعتقد بأن عدم فرض مراقبة على الافلام القادمة له تأثير سلبي على أي شعب متخلف نسبياً... فدخول السينما إلى البحرين أدى إلى أخلق الناس وعاداتهم، فبعد عرض أحد الافلام الذي تضمن قذف شخص لسائل حمضي حارق على آخر، وقعت حادثتان مشابهتان بالبلاد.

كما انتشرت ظاهرة محاولات انتحار الفتيات والنساء هذه الأيام عن طريق سكب الكيروسين (الكاز) على ملابسهن وإشعال النار فيها، وأنا أعزو هذه الظاهرة إلى مشاهد الانتحار المتكررة في أفلام السينما.

الأفلام المصرية هي الأكثر شعبية بالبحرين لانها ناطقة باللغة العربية، لكن أفلام المغامرات الغربية ذات الطراز القديم وأفلام طرزان هي التي يستمتع القرويون البسطاء كثيراً بمشاهدتها. وعندما يرتفع مستوى تعليم الناس، فان تأثير السينما عليهم يصبح أقل أذى، ربما لعدم إيمانهم بأن الشاشة الكبيرة لا تعطي صورة صادقة عن الحياة في الغرب.

كان التعليم واحداً من أصعب القضايا التي تحتم عليّ التعامل معها، وأشعر بأن النتائج التي تحققت لم تتناسب مع المبالغ الكبيرة التي أنفقت في سبيله ولا مع الجهد والعمل الشاق الذي بذله بعض المدراء والمدرسين.

فمنذ افتتاح اول مدرسة نظامية عام 1919 (مدرسة الهداية الخليفية) بمدينة المحرق والتي ساهم الأهالي جزئياً بتحمل تكاليفها، عانت المدرسة من الخلافات والشجارات بين المدرسين وبعضهم أجانب وبين اللجنة التي تدير المدرسة بدعم مالي من الحكومة، وتتكون من أعيان المدينة وغالبيتهم أميُّون.

ومن أوائل المدراء للمدرسة الشيخ حافظ وهبة المصري الجنسية الذي أصبح فيما بعد سفيراً للمملكة العربية السعودية ببلاط السانت جيمس في لندن.

وقد وقع خلاف بين هذا الرجل وبين المقيم السياسي البريطاني فهاجمه بشدة واضطر لترك البحرين، وهذه الحادثة وقعت قبل مجيئي للجزيرة.

في السنوات التالية كنت على علاقة جيدة به ومن المعجبين بحسن ادارته لهذا المنصب الحساس خصوصاً في سنوات الحرب (العالمية الثانية).

في عام 1926 افتتحت مدرسة ثانية بالمنامة. وفي عام 1928 جمع سكان الأحياء الأخرى بالمنامة بضعة آلاف من الروبيات وبنوا مدرسة أهلية خاصة بهم.. وكونوا لجنة منهم لإدارة المدرسة رغم جهلهم بطرق الإدارة المدرسية، وبعد سنوات ليلة قررت الحكومة تحمل مسؤولية جميع المدارس في البحرين.

وعين الشيخ شقيقه عبد الله بن عيسى آل خليفة وزيراً للمعارف، وقمنا أنا وهو، بمساعدة مفتش تعليم لبناني، بالتصدي لمشكلة التعليم الشائكة!!

ومع حلول عام 1937 كانت هناك ثلاث مدارس بالمدن وخمس مدارس بالقرى وبلغ عدد الطلاب ألف تلميذ تقريباً، ولم نجد صعوبة في جلب الاولاد للمدارس، لكن الصعوبة كانت في الحصول على المدرسين.

وإذا كانت مقولة اللورد بروغهام التي مفادها "ان التعليم يجعل الشعب سهل القيادة، صعب التسيير، من السهل ان تحكمه لكن من المستحيل ان تستعبده" هي صحيحة، فلابد ان يكون هناك خطأ جذري في التعليم بالبحرين!!

فالشباب "المتعلم" هنا بالتأكيد تمت قيادته بواسطة أشخاص غير صالحين يعارضون أي شكل للانضباط أو الحكم، وكان طلبة المدارس اول من بدأوا عادة الإضرابات في البلاد. فالتعليم كان ينظر اليه، ولا يزال، فقط كوسيلة لتمكين الشاب من الحصول على عمل وعلى راتب أعلى، ولم أتعرف خلال فترة عملي الطويلة هنا إلاّ على اثنين أو ثلاثة من البحرينيين الذين لديهم الرغبة الحقيقية في إكتساب المعرفة التي تدفعهم للعلم مهما بلغت تكلفته المالية!!

ربما تكون هذه النظرة اليوم هي نفس نظرة طلاب المدارس والجامعات في بريطانيا، لكنني عندما كنت طالباً بالمدرسة، ثم بجامعة إكسفورد لم تراود ذهني أبداً فكرة حجم المبلغ الذي سأحصل عليه بعد تخرجي ولم يكن هذا يعني إهمالي لعنصر المال في الحياة، فمنذ اشتغالي بالجيش البريطاني وحصولي على راتب متواضع يبلغ سبعة بنسات في اليوم الواحد، وهو اقل مما يتقاضاه أي عامل الآن، كنت أعتمد كلية في معيشتي على هذا الأجر.

الاهالي يعترضون وشيوخ الجوامع يستنكرون!!

هرج ومرج يصاحب تعليم البنات!!

قلعة البحرين مسكونة بالجن والاشباح!!

جبل الدخان يرتدي حلة وردية اللون!!

طقما حمام أثريان بالقلعة!!

سفينة الأميرال التركي تغرق بصناديق الذهب

في أحد الايام، بعد مرور سنة أو سنتين على مجيئي للبحرين، قالت زوجتي مارجوري لحرم الشيخ حمد: "إنه لأمر محزن ألا تتاح للبنات هنا فرصة التعليم مثل الاولاد".

وأحست حرم الشيخ بأهمية الموضوع على الفور، فقد كانت برفقته أثناء زيارته لبريطانيا عام 1925، وعلى علم بوجود مدارس للبنات في البلدان الاخرى.

وتدارست السيدتان هذه الفكرة ووعدت الشيخة بمساندتها وتأييدها لمارجوري إذا قامت بالاشراف على إدارة المدرسة.

بعد أيام قلائل، فاتحت الشيخ في الموضوع فأعرب عن موافقته عليه رغم إنـــي كنــت أتوقــع العكس!!

الخطوة التالية تمثلت في الحصول على دعم الأهالي لهذه الفكرة، وهي مهمة صعبة لعلمي بــأن مشروع افتتاح مدرسة للبنات سيعتبره الناس بدعة جديدة وهدّامة!!

اعتقدت في بادئ الامر أنَّ باستطاعتي الاعتماد على تأييد عدد من التجار المتحضرين فطلبــت من كل واحد منهم أن يأتي لمقابلتي على انفراد وإبلاغه عن الخطة المقترح تنفيذها ... وبعد مناقشــات طويلة معهم جاء رد أغلبهم كالتالي: "انّه لشئ جميل أن يكون لدينا مدرسة للبنات، لكني أفضل عدم ذكر إسمي كمساند لهذه الفكرة... بالطبع أنا لست رجعياً، لكن أصدقائي سيغضبون إذا عرفوا بتشجيعي لها.. مع ذلك سوف أقدم لكم كل ما أستطيعه من عون ومساعدة من خلف الكواليس".

كان هذا هو الرد التقليدي لمعظم البحرينيين!!

اثنان أو ثلاثة منهم فقط هم الذين أيدوا المشروع بصورة علنية، كان من بينهم الحاج محمد علي زينل آل رضا وهو تاجر لؤلؤ مشهور أصله من الحجاز وله تاثير كبير في مجتمع البحرين..

لقد كان هذا الرجل مشجعاً للتعليم وأنشأ بنفسه عدة مدارس للأولاد في الحجاز وبومبي وســاند فكرة تعليم البنات.. وبموافقة الشيخ أعلنا لجميع السكان بأن الحكومة ستفتتح مدرسة للبنات.

قوبل هذا القرار مباشرة بردود فعل واسعة وقدّم الاهالي عريضة بقيادة بعض الشخصيات الهامة وسلموها إلى الشيخ إحتجاجاً على مثل هذه البدعة الخطيرة!!

أحد القضاة استنكر في خطبة الجمعة هذا القرار وانتقده بشدة والكثير مــن البحــرينيين الــذين أعرفهم جاءوا إلى مكتبي للاعتراض على هذه الخطوة "الطائشة" التي أقدمت عليها.

تاجر لؤلؤ محرقي كبير في السن جاء إلى مكتبي غاضباً وأمسك بيدي للتأكيد علــى معارضــته وهو يقول بصوت حاد: إننا لا نريد الفتيات أن تتعلم، فالنساء يسببن لنا ما فيه الكفاية من المشــاكل ــ كنت أعلم أنّ لهذا التاجر العديد من الزوجات ــ وأردف قائلاً: "ما فائدة التعليم لهن؟ انني لم أذهب في حياتي أبداً إلى المدرسة فلماذا تذهب بناتي إليها؟ وإذا تيسر لهن ذلك فسوف يتخيلن بأنهن أفضل مــن آبائهن".

وكان الموقف لا يتحمل الرد عليه فقلت له منهياً الموضوع: "أنت غير ملزم بارسال بناتك إلــى المدرسة".. فتجاهل التاجر كلامي واستمر قائلاً: "إذا تعلمت البنات القراءة والكتابة من الذي ســيمنعهن من مراسلة الشبان دون علم أولياء أُمورهن".. وآخر كلماته التي تلفظ بها وهو يخرج من المكتب هي: " يا مستشار، لم نكن نتوقع منك ان تطرح مثل هذا الاقتراح المشين"!!

لكن مارجوري وجدت ان غالبية النساء البحرينيات لا يعارضن الفكرة باستثناء بعض العجــائز اللواتي أعربن عن استنكارهن في الوقت الذي إستهوت الشابات!!

كنا نخشى أن يؤدي هذا الهياج والاضطراب إلى ان يغير الشيخ رأيه في الموضوع قبل الموافقة النهائية عليه، لكن توقعنا لم يكن في محله وعينت زوجة مفتش المدارس كأول مديرية للمدرسة تساعدها في هذه المهمة سيدتان أو ثلاث من البحرينيات اللواتي لهن إلمام قليل بشؤون التعليم.

وفي البداية التحقت التلميذات بالمدرسة بصورة سرية نسبياً لكن مع مرور الوقت سمح أولياء أُمور بحضور بناتهم للدراسة.

استطاعت مارجوري ان تحصل على معلمة أخرى من بيروت وعندما هدأت الضجة افتتحت مدرسة أخرى بالمحرق في احتفال رسمي حضرته حرم الشيخ.. وهذه المرة لم يحدث هرج ومرج كما في السابق!

استمتعت الفتيات بالمدرسة وتدريجياً أخذت البنات اللواتي لم يسمح لهن آبائهن سابقاً بالالتحاق في الضغط عليهم من أجل تغيير رأيهم.. وأدركت الأمهات انّه من المناسب بقاء أطفالهن خارج المنزل بأيد أمينة خلال جزء من النهار، وحتى الآباء عندما تأكدوا من أن بناتهم يتعلمن أشياء مفيدة بالمدرسة بدأوا بالنظر بصورة أكثر منطقية وعقلانية بالنسبة لموضوع تعليم البنات!

بعد عدة سنوات جاء تاجر اللؤلؤ المحرقي الذي عارض سابقاً وبشدة فتح مدارس البنات ليشتكي من عدم قبول بناته بمدرسة المحرق بسبب عدم التسجيل في الموعد المحدد لذلك، وعندما ذهبن إلى المدرسة في أول يوم دراسي لم يسمح لهن بالانتظام!!

أفهمته بأن هناك قائمة انتظار طويلة من الطالبات المستجدات يبلغ عددها مئة تلميذة وكلهن سجلن للدراسة قبل عدة أشهر.. ولذلك يتحتم على بناته انتظار دورهن... وانتهزت الفرصة لأسأله: أعتقد انك قلت في السابق إنك لن ترسل أحداً من بناتك إلى المدرسة أبداً فهل غيرت رأيك؟ فقال وهو يزأر ضاحكاً: هذا صحيح، ذلك ما كنت أعتقده في تلك الايام، أما الآن فإن جميع جيراني قد سمحوا لبناتهم بالذهاب إلى المدرسة، كما ان الشبان من أفراد العائلة يصرون على تعليم الإناث.

وعدت أسأله: إذن أنت الآن لا تعتقد بأن التعليم مؤذ ومخجل للناس؟

فرد مقراً بخطئه: لا، انني أرى أي ضرر من التعليم، لكنني أريد ان أسألك شيئاً يتعلق بزوجتك التي تجيد القراءة والكتابة، هل تعلمت هنا في البحرين، أم التحقت منذ صغرها بالمدرسة؟ فرددت عليه مؤكداً بأنها درست منذ الطفولة في بلادها مما جعله يطمئن تماما ويقتنع بصحة ما أقدمنا عليه.

يعود الفضل في بدء تعليم البنت في البحرين إلى مارجوري. وفي السنوات الأولى لم تشغل زوجتي منصباً رسمياً رغم اشتراكها الفعال ونشاطها فيما يخص شؤون المدارس، واستمر ذلك الوضع حتّى عام 1930 حيث عيّنها الشيخ مديرة لتعليم البنات.

ومنذ ذلك التاريخ صارت تعمل في هذه الوظيفة بدوام كامل، فتخرج من البيت صباحاً بعد تناولها الفطور وقلما ترجع قبل وقت الغداء، وفي بعض الأحيان لا تنجز عملها بالكامل قبل العصر..

كانت إحدى المواد التي أحبتها زوجتي كثيراً هي الخياطة والتطريز والتي أبدت الطالبات مهارة جيدة بها.

ففي كل عام دراسي، كان يقام معرض لأشغال الحياكة، وفي إحدى السنوات أُقيم هذا المعــرض بقصر المنامة الذي أعاره الشيخ لهذه المناسبة وخصصت أيام معينة لزيارة الرجال وأُخـرى لزيــارة النساء، وقد حضر المعرض آلاف المواطنين.. وأتذكر ان الطــوابير الطويلــة للــزوار البحــرينيين والأوروبيين كانت تصطف قبل موعد افتتاح أبوابه لكي يكون لها الأسبقية في الدخول لشراء الملابــس والاقمشة المطرزة المعروضة للبيع.

ولاقت ملابس النساء الداخلية وقمصان النوم إقبالاً كبيراً بين رواد المعرض!

مع حلول عام 1956، وهي السنة التي سبقت مغادرتنا للبحرين، بلغ عدد مدارس البنات تشرف عليها مارجوري ومساعدتها اللبنانية السيدة وفيقة ناير 13 مدرسة تضم أكثر من 4000 تلميــذة و135 معلمة من ضمنهن 94 ممن تلقين تعليمهن بمدارس البحرين.

عموماً، كان تعليم الفتاة البحرينية مثمراً وسار بصورة هادئة قياساً لتعليم البنين!!

وفي ذلك العام أدى الطلاب والطالبات نفس الامتحان لأول مرة، واظهرت نتيجة الفترة الاخيرة حصول الطالبات على المراتب الاولى، والثانية والثالثة، والرابعة على مستوى البحرين، مما جعل دائرة تعليم البنين تصاب بالذعر الشديد، نظراً لوجود التنافس الحاد بين مدارس البنين والبنات!!

الزيادة المطردة لإيرادات النفط وضعت نهاية لمخاوفي إزاء الأوضاع المالية للدولة.. وبدا لي ان البحرين مقبلة على مرحلة جديدة من الإزدهار كالتي مرت بها قبل آلاف السنين، لكن انتقالها من بلــد يعتمد على صيد اللؤلؤ والتجارة والزراعة إلى دولة منتجة للبترول، مع وجود مصفاة ضخمة، كانت في وقت ما رابع أكبر مصفاة في العالم، خلق لنا صعوبات ومشاكل لم نواجهها من قبل.. فالحياة في عصر ما قبل النفط كانت أحلى، حيث تسنى لي الوقت الكافي للاهتمام شخصياً بأُمور كثيرة وشــعرت بــأنني أقرب إلى الناس على خلاف السنوات التي تلت إكتشاف النفط وأنشأت فيها العديد من الدوائر الحكومية وتعاملت مع اللجان الكثيرة والمسؤولين البحرينيين والأوروبيين ووجدت نفسي أقضي معظم أوقاتي في حل المشاكل التي تحدث بين الموظفين!!

عصر كل يوم غالباً ما كنت أقود سيارتي بصحبة زوجتي إلى الريف. وفي الربيع، بعد انتهــاء موسم الأمطار البالغ معدل سقوطها من بوصتين إلى 3 بوصات سنوياً، تكسو الاراضي البرية طبقة من الحشائش الخضراء فتضفي على تلك المناطق منظراً جميلاً جداً.. وعند غروب الشمس يلــبس جبــل الدخان وبيت الشيخ حمد الأبيض بمنطقة الصخير حلة بديعة من اللون الوردي المحمــر الــذي يشــع بالدفء والجمال!! لقد حاولت مراراً رسم هذا المنظر لكن محاولاتي دائماً تفشل بسبب قصر الفترة التي يمكثها!!

في أحيان كثيرة نذهب إلى قلعة البرتغال الأثرية (قلعة البحرين) على الســاحل القريــب مــن المنامة التي يعتقد البحرينيون بأنها مليئة بالأشباح والتي شهدت الكثير من المعارك الحربية الرهيبة!!

في إحدى الصيفيات خيمت هناك بمحاذاة جدران القلعة ولقيت حينها معارضة وامتناع شـديدين من قبل خدمي إحتجاجاً على فكرة النوم بالقرب جداً منها وحلفوا لي جميعاً بأنها مسكونة بالجن الـذي سيظهر أثناء الليل!!

البرتغاليون اغاروا على الخليج في بداية القرن السادس عشر واحتلوا جزيرة هرمز الواقعة على الساحل الايراني والتي تنعم بالثروة الكبيرة والرفاهية العظيمة.

وإلى هذه البقعة من العالم الشبيهة بفص الخاتم الذهبي المرصع بالمجوهرات وفد التجـار مـن الشرق لعرض بضائعهم الثمينة والتسوق في الاثواب الحريرية والاقمشة المصنوعة من الذهب والفضة والخمور والتوابل الشهية بالاضافة إلى كونها مستودعاً ضخماً للؤلؤ وتحوي أجمل الحمير الموجودة في العالم كله!!

مصدر اللؤلؤ هو البحرين، أما الحمير البيضاء فقد اشتهرت بها أوال في الماضي!!

في عام 1521 م احتل البرتغاليون البحرين بعد معركة دامية قتل خلالها حاكمها المحلي في ذلك الوقت. وقد قطع الجيش المنتصر رأس الحاكم وأخذوه إلى هرمز، وعلى إثر ذلك منح ملك البرتغـال قائد الجيش لقباً عسكرياً رفيعاً يضاف إلى اسمه إلاّ وهو "رأس الملك" وذلك إعترافاً بمـا حققـه مـن انتصار مظفر.

واستمر إحتلال البرتغاليين للبحرين حتّى عام 1602 رغم تكرار ثورات البحرينيين ضدهم والتي نتجت في إحدى المرات عن مقتل قائد الحامية البرتغالية.

في تلك الحقبة من الزمن كان البرتغاليون والبريطانيون والهولنديون والايرانيون يتصارعون من أجل الهيمنة على الخليج، وفي سنوات لاحقة إنضم الاتراك إلى هذه المجموعة وقاموا بمحاولة فاشـلة للاستيلاء على البحرين.

وفي حادثة أخرى زار الأميرال التركي بيربج البحرين تصحبه ثلاث سفن محملـة بـالثروات المنهوبة من المدن الأخرى... وعند عودته غرقت احدى السفن في المياه القريبة من جزر البحـرين.. ولم يعثر حتّى الآن على أثر لتلك السفينة، وعندما أقوم بجولات بحرية غالباً ما أنظر إلى قاع الميـاه الصافية وأتساءل عن احتمال عثور أحد غواصي اللؤلؤ يوم ما على بقايا هذه السفينة الضخمة والحاوية للصناديق البالية المليئة بالنقود الذهبية!!

في السنوات اللاحقة كنا نزور أعضاء بعثة إكتشافات مثيرة ومهمة والتوصـل إلـى حقيقـة ان الإنسان كان يستوطن البحرين في العصر الـ (Palacolitchie) وهو البلد المذكور فـي اسـطورة دلمون، المدينة التي جاء ذكرها في النقوشات البابلية والسومرية منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد.

وتروي الاسطورة ان تجار دلمون كانوا ينتقلون بين العراق والهند حاملين معهم بالإضافة إلـى الأشياء الأخرى "عيون الأسماك" وهو الاسم الذي كان يطلق في تلك الأيام على اللؤلؤ.

وحلو قلعة البرتغال وأسفلها اكتشفت بعثة الآثار جدران العاصمة القديمة للبحرين والتي اختـار البرتغاليون موقعها لبناء قلعتهم.

في موقع آخر على شارع البديع عثرت البعثة على ثلاثة معابد بُني الواحد منها فوق الآخر أقدمها يرجع أصله إلى 2500 سنة قبل الميلاد، وفي إعتقادي انهم سيتمكنون قريباً من حل واحد من أهم الألغاز الأثرية المتبقية في العالم وهو هوية الاشخاص المدفونين بأكبر مقبرة في العالم والتي تضم نحو مائة ألف من القبور التلالية البالغة مساحتها أكثر من عشرين ميلاً مربعاً والواقعة في الطرف الشمالي لجزيرة البحرين.

أحياناً تحقق بعثة التنقيب الدنمركية إكتشافات مدهشة. ففي عام 1957 حفرت بعمق تحت أساسات قلعة البرتغال ووجدت غرفة صغيرة مبنية أعلنت البعثة أنها مكان دفن فيه شخص مهم، ربما يكون ملكاً.

ودعت المواطنين لحضور عملية فتح القبر وكانت هناك تكهنات وتوقعات مثيرة حول الكنز الذي قد يعثر عليه!!

وعندما فتح القبر دهش جميع الحاضرين من الاشياء التي وجدت بداخله وهي طقما حمام يشبهان جداً الطراز المستخدم حتّى الآن في دول الشرق الأوسط مع وجود مجرى حجري متصل بخزان ماء.

الفضوليون من الناس الذين شهدوا هذا الحدث قالوا ان أحد الحمامين مخصص للرجال والآخر للنساء. لكن البحرينيين اعتبروا ان هذا الإكتشاف أكثر جذباً من الآثار القديمة الأخرى التي تم العثور عليها، ودائما يأتون إلى القعلة في الباصات المكتظة بهم لمشاهدة أقدم طقم حمامات في العالم!!

في حوالي عام 326 قبل الميلاد كان أُسطول الاسكندر الاكبر يجوب الساحل الايراني بعد حملته على الهند. وقامت سفينتان تابعتان له بزيارة تايلوس وهو اسم البحرين في ذلك الوقت. وعقب مجيئي إلى هذه الجزيرة بسنوات قليلة وجد بعض الرجال الذين كانوا يحفرون جدولاً خلف منزلي على دورق (قارورة) فخارية مزينة بأشرطة نقش على أحدها كلمات أغريقية مبعثرة. وقضيت وقتاً طويلاً في محاولة فك رموز هذه الكلمات، لكن دون جدوى.

فيما بعد عندما عرضت هذه النقوشات على أحد العاملين بالمتحف البريطاني وضع الدورق جانباً ليقول ببساطة: أجل، أنها الأبجدية الأغريقية، وهي نوع شائع من الديكور اليوناني وضحكت حينها من نفسي لأنني رغم دراستي للغة اليونانية بالمدرسة لم أستطع التعرف على أحرفها!!

الفصل التاسع

عجوز ثرثارة تقودنا إلى جثة الفتاة

السلع اليابانية رخيصة الثمن جميلة المنظر، رديئة النوعية

سوق سوداء لبيع المشروبات الروحية!!

يولدن فيلقى بهم في أماكن القمامة!!

أحياناً أقوم بزيارة مراكز الشرطة بصحبة أُسرتي ونشرب القهوة مع أفرادها الذين يسعدون دائماً برؤيتنا، خاصة إذا كان إبننا الصغير "حمد" معنا.. وكان لإبننا صديق في مثل سنه، شديد السمرة إسمه "جوهر" وهو إبن أحد رجال الشرطة.. ونظراً لتعلق هذا الصبي الشديد بأسرتنا فقد عرف بين النـــاس بأنه "عبد إبن المستشار" أو " عبد حمد".

أيام الجمعة نتوجه غالباً إلى بستان قريب من الساحل حيث ننعم بالسباحة فـــي البحـــر والميـــاه الارتوازية ونشعر بالانتعاش بالماء العذب بعد ملوحة البحر...

وأحياناً نذهب في رحلة إلى إحدى القرى حيث يدعونا القرويون إلى بيوتهم لارتشاف القهوة، ثم نجلس في المزرعة أو تحت ظلال البيت على حصير أو سجاد قديم ونتحدث عن محصول الرطـــب أو صيد اللؤلؤ في ذلك الموسم.

وكنت أتوقع أن أسمع أشياء جديدة أو مختلفة نظير تحملي الجلوس على سجادة وســخة لكننـــي عادة ما يخيب ظني!!

في تلك السنوات لم نكن نجد الاطفال والمراهقين، ذوي السلوك غير اللائق، الذين نراهم في جيل اليوم والذين يتزاحمون حول الاجانب (الاوروبيين) في القرى طلباً "للبخشيش" ويخّربون سياراتهم أثناء وقوفها دون سائقيها.

وفي رأيي ان تدهور سلوكيات وتصرفات هؤلاء الشباب مصدره الأوروبيون أنفســـهم، فـــالكثير منهم لديهم معتقدات غريبة حول كيفية التعامل مع أناس ذوي أُصول عرقية مختلفة، فاما أن يعـــاملوهم بغطرسة وتكبر واما ان يكونوا ودودين وقريبين أكثر من اللازم معهم ولا يقبلون ان يرد الناس علـــيهم بنفس الدرجة.

والملاحظة التالية للورد مورلي تنطبق جيداً على الامـــريكيين والاوروبيـــين المتواجـــدين فـــي البحرين... هذه الملاحظة تقول "إذا كانت التصرفات السيئة تعتبر خطأ في كل مكان، فإنها تعتبر جريمة في الاراضي المحلية"!!

وإذا تحدثنا عن المدن، خاصة المنامة نجد أن هناك آثاراً واضحة للتغير العمراني والمدني عندما نقارنها بمنظرها قبل عشرين سنة سابقة.. فقد استبدلت أكواخ النخيل والقش بالبيوت المبنية بالحجر وتم

تحديث العديد من البيوت الكبيرة القديمة الطراز.. وترك السكان عادة بناء الأبراج الهوائية العالية التي تجلب الهواء العليل إلى داخل الغرف، واستخدموا المراوح الكهربائية بدلاً من ذلك.

كانت تكاليف المعيشة في تلك السنوات منخفضة وبدأت المتاجر والدكاكين باستيراد البضائع المتنوعة من الخارج خاصة اليابان لان السلع اليابانية معروفة برخص ثمنها وجمال منظرها ورداءة نوعيتها!! حتّى أن كلمة يابانية أصبحت تستخدم لوصف المرأة سيئة السمعة، وقد تعودت على سماع هذه الكلمة بهذا المعنى في المحكمة عند مناقشة قضايا النساء!!

في بداية مجيئي للبحرين نادراً ما كنت أرى بحرينياً يرتدي ملابس غربية. وفي احدى السنوات عندما عاد إبن أحد رجال الدين من قضاة المحكمة من زيارة قام بها إلى مصر وهو يرتدي البنطلون والقميص والمعطف، رفض أقاربه، الذين كانوا في استقباله، السماح له بالنزول قبل أن يبدل ملابسه ويعود إلى الزي العربي!!

وعندما بدأ الأهالي العمل في شركة نفط البحرين المحدودة (بابكو) وجدوا ان الثياب العربية غير ملائمة وخطرة ولا تناسب المهن التي يقومون بها، فنشطت تجارة جديدة في البحرين وهي تجارة الملابس المستعملة المستوردة من أوروبا!!

فلم يعد مستغرباً أن نشاهد بحرينياً بلباس أحد رجال الجيش في اوروبا الشرقية أو بالزي الرسمي لساعي البريد البريطاني!!

ومنذ ذلك الحين أصبحت البنطلونات والقمصان والمعاطف لباساً اعتيادياً لعمال حقل النفط في بابكو!!

التعليم، الإذاعة، تسهيلات السفر ووسائل الاتصال مع الاجانب المقيمين في البحرين وخارجها هي الأمور التي تستهوي المواطنين اليوم خاصة بين جيل الشباب المتعلمين بالمدارس والذين استكمل بعضهم دراسته الجامعية في الدولة العربية.

لقد نما هذا الجيل الجديد تحت رعاية حكومة مستقرة وتعود على وجود المدارس والمحاكم، والبلديات والمؤسسات الحكومية الاخرى التي لم توجد في عهد آبائهم.

ولا يبدو ان هذا الجيل يدرك ويستوعب جميع التغيرات والتطورات الجديدة التي حدثت للبحرين ويقوم بمقارنتها بما كانت عليه الحياة والظروف ببلده قبل عشر أو عشرين سنة خلت، لكنه يقارنها بالظروف التي تعيشها دول أخرى يسمع عنها عن طريق أجهزة "المذياع" المنتشرة الآن في بعض البيوت والمقاهي، ويقرأ عنها في الصحف والمجلات والكتب!

بعد استقرار أوضاع البلاد السياسية لم تقع جرائم كثيرة، وندر حدوث عمليات القتل، وعندما تقع عملية من هذا النوع فإنها غالباً ما تتعلق بالشرف، والنساء اللواتي يشوهن سمعة عائلاتهن! فقتلُ المرأة لهذا السبب أمر يبيحه معظم البحرينيين.. وبذاكرتي الآن قضايا مرتبطة "بذبح" شابات غير متزوجات بسبب كونهن حوامل، لكني لم اقابل أبداً حالة واحدة تم فيها قتل الزوجة لأنها خائنة!!

هناك جريمة أتذكرها دائماً، وقعت بمدينة الحد في جزيرة المحرق والتي ينتمي أغلب سكانها إلى قبيلتين عربيتين كبيرتين ولا زالوا يحتفظون بعاداتهم وطبائعهم القبلية رغم مرور أكثر من نصف قرن على استقرارهم فيها.. لقد وجدت صعوبة في التعامل مع هؤلاء السكان!! فقد وصلت إلى الشرطة اشاعة تقول ان فتاة من هذه المدينة اختفت فجأة، ولاحظت النساء اللواتي يعرفنها عدم وجودها وحين يسألن أقاربها عنها يحصلن على أجوبة غامضة ومتناقضة.. وصل الخبر إلى أسماع شرطة الحد وتم إبلاغهم بالموضوع حيث كنت قائداً للشرطة في ذلك الوقت ووجب علينا التحرك بحذر لأن التحقيق مع النساء من قبل الشرطة يؤدي في أغلب الاوقات للمشاكل، وحينما يعمل الناس بقيامنا بالبحث والتقصي الأمني فإن كل الأفواه تنغلق.

الفتاة المفقودة ــ وهي إبنة والدين فقيرين محترمين ــ عازبة ويعتقد بوجود علاقة حب تربطها بأحد الشبان.

وبعد جمع كمية كبيرة من الأقوال والمعلومات المتناقضة معظمها من إمرأة عجوز عرفت بثرثرتها في الحد وتربطها قرابة مع زوجة أحد رجال الشرطة، أرسلنا في طلب والد الفتاة، وعندما حضر سألناه عنها فأخترع قصة مفادها انها سافرت إلى السعودية لزيارة أهلها حيث كانت مريضة.

ولم أصدق رواية الرجل لأنني أعلم بعدم وجود أقارب لهذه العائلة في المملكة. فقررنا انتهاز الفرصة وتفتيش البيت وهي مهمة أشبه ما تكون بالامساك بمخبأ الزنابير (الدبابير) نظراً لكون البيت بمدينة الحد!!

في تلك الليلة، ودون أن نعطي عائلة الفتاة مجالاً للاستعداد والترتيب ذهبنا أنا وأحد الضباط برفقة ستة من أفراد الشرطة إلى هذه المدينة، ومشينا بهدوء وحذر شديدين داخل طرقاتها الضيقة الحالكة الظلام، ولم نشاهد أثناء سيرنا أي شخص حتّى وصلنا إلى البيت الموعود فطرقنا بابه... بعد دقائق قليلة سمح لنا بالدخول، وكان الأب وإبناه الإثنان وعدة نساء متواجدين بالمنزل.

تعابير الرجال وتصرفاتهم بدت لنا عادية جداً، ولم يظهروا الدهشة والاستغراب لزيارتنا، أما النساء المتدثرات بالكامل في ثيابهن فقد بكين لبعض الوقت، ولم يكن معنا أحد يستطيع التعرف على الفتاة في حالة العثور عليها، لكن العائلة لا زالت تكرر بأن الفتاة غادرت البحرين إلى السعودية وإتضح لنا عدم وجود أي أثر للفتاة سواء حية أم ميتة!

بعدها دخلتُ إلى غرفة صغيرة بالطابق الأرضي وشممتُ رائحة كريهة.. ولما سألت عن مصدرها أجابني احد الرجال بأنها رائحة المرحاض الواقع في فناء المنزل، ولكن تلك الرائحة كانت مختلفة مما جعلني أشك في الأمر. وجاء ضابط الشرطة البحريني، وبعد لحظات قال ان الفتاة مدفونة هنا. كانت هناك علامات تدل على ان الغرفة يسكن فيها أحد، كالملابس الملقاة على الفراش وأعقاب السجائر المرمية على الأرض.

أمرتُ بجلب أدوات الحفر كالفئوس والمجارف (الصخاخين) وبدأ شرطيان بحفر الأرض وأسفر عملهما عن الشئ الذي كنا نبحث عنه وهو جثة الفتاة. وظل أفراد العائلة من الرجال هادئين جداً أثناء استخراج الجثة، لكنني لم أستطع تحمل المشهد فخرجت انتظر انتهاء المهمة في الفناء.

خلال المحاكمة تبين لنا ان الفتاة قتلها رجل من العائلة لأنها "ارتكبت الفاحشة" والنساء كن على علم بمقتلها لكنهن لا يعرفن من هو القاتل، والدها ام أخوتها؟.

عمليات التحقيق والتحري التي قامت بها الشرطة عارضها أهالي الحد كثيراً بسبب تعاطفهم الكلي مع عائلة الفتاة، وحتى بعض "التقدميين" البحرينيين اعتبروا ان إراقة دم هذه الفتاة له ما يبرره.

الجنس عادة ما يكون هو الدافع وراء جرائم القتل، وأحيانا تكون الضحايا من النساء سيئات السمعة اللاتي يغتالهن العشاق بسبب الغيرة!! هؤلاء النساء كن يعرفن باسم "بنات الهوى" .. وكانت الحكومة تقوم بحملات تطهيرية مستمرة للبلاد من الغانيات وتسفرهن إلى بلادهن التي أتين منها عن طريق البحر!!

في أحيان كثيرة نجد أطفالاً حديثي الولادة مرميين وهم أحياء في الأماكن المخصصة للقمامة (المزابل) الموجودة بزوايا الشوارع أو نجدهم أمام المستشفى. ولدى مستشفى الارسالية الامريكية ملجأ للايتام حيث يوضع بعض هؤلاء الأطفال "اللقطاء" وتتم رعايتهم.. وعندما يبلغون السادسة يرسلون إلى المدرسة ثم يحصلون على عمل. البعض الآخر يتم الاعتناء بهم في المستشفى الحكومي وغالباً ما تتبناهم سيدات عاقرات أو ليست لديهم عائلة.

عندما اكتشف البترول في البحرين، إكتسب هذا البلد سمعة بين إمارات الخليج على انّه بلد جميع شوارعها مرصوفة بالذهب!! ووفد الخليجيون من الامارات الاخرى إلى البحرين بحثاً عن العمل آملين في جمع ثروة مالية خلال أشهر قليلة!!! وقد أصدرت نظاماً لمنح الجوازات للمواطنين وتنظيم دخول البلاد ومغادرتها، بعد فترة قصيرة من عملي بالبحرين، لذلك أصبح ممكناً لحد ما إحباط عمليات دخول الاجانب ... لكن الكثيرين دخلوا البحرين بطريقة غير شرعية بعد اتفاقهم مع أصحاب القوارب والسفن على نقلهم في الليل إلى سواحل الجزيرة المهجورة نظير إعطائهم مبالغ كبيرة.

في بعض الحالات يتم إنزال المتسللين في مواقع بحرية ضحلة جداً وايهامهم بأنهم على ساحل البحرين، لكن عندما يرجع البحر إلى حالة المد يرتفع مستوى سطح المياه ويغرق العديد من هؤلاء المساكين الذين "ضُحك عليهم".

وأدى دخول الأجانب غير المرغوب فيهم إلى البحرين إلى زيادة عدد الجرائم فيها خاصة تلك المتعلقة بالحشيش وصناعة الخمور!

إن تداول الخمور حُرّم بشدة من قبل الشيخ حمد على أساس ديني، وقبل عشرين سنة كان جميع المواطنين تقريباً يمتثلون لهذا القرار.. أما اليوم فان الشباب البحريني يعارض القيود المفروضة على المشروبات الروحية.

وهم لا يعتقدون بأن هناك مبرراً لتعرضهم لعقوبات قاسية كالسجن مثلاً بسبب ضبطهم وهم يحملون زجاجة بيرة في صناديق سياراتهم، بينما تسمح كل من مصر والعراق وهما دولتان إسلاميتان بشراء وبيع الخمور بحرية ودون أي قيود.

كما يعارض هؤلاء الشباب أيضاً السماح للأوروبيين والأجانب بتناول هذه المشروبات وشرائها من شركة بريطانية عاملة في البحرين تقوم باستيرادها من الخارج. وربما يعتقد الناس الغربيون ان التحريم الديني لهذه المشروبات يجب ان يترك شأنه للافراد، لكن حكومات الدول الإسلامية تحرص على متابعة وتنظيم الحياة الدينية لشعوبها وذلك عكس الحكومات الغربية.

في السنوات الأولى لمجيئي للبحرين كنت أسمع بأن اثنين أو ثلاثة مواطنين فقط درجوا على عادة الشرب.. وعندما كثر عدد الأوروبيين بهذا البلد وأخذ البحرينيون يسافرون إلى الخارج، أصبح الخمر منتشراً بصورة أكبر.

واليوم هناك القليل من شبان العائلات الثرية الذين لا يشربون الخمرة، أما الباقي، فالبعض يشربها بإعتدال، والبعض الآخر باسراف والعديد رأوا فيها شيئاً جميلاً يخالفون به القانون، وصار في البحرين سوق سوداء لبيع المشروبات الروحية التي يتم تهريبها إلى الداخل أو تتسرب عن طريق الأجانب المسموح لهم بشرائها.

أما في المملكة العربية السعودية فالوضع يختلف، وقبل سنوات أصدر الملك عبد العزيز أمراً بمنع استيراد المشروبات الروحية، وأنطبق هذا القرار على شركة النفط الامريكية وعلى جميع السفارات الاجنبية!!

عندما أدعو البحرينيين إلى منزلي.. فانهم لا يتناولون الخمر ابداً، ولكنهم في بعض البيوت الاوروبية ومنازل المسؤولين الحكوميين البريطانيين يتشجعون على الشرب رغم معرفتهم بقرار المنع.

الطريف في الامر ان الكثير من هؤلاء المواطنين كانوا يعتقدون أن القيود المفروضة على المشروبات الروحية مبالغ في جديتها، وانها غير ضرورية... مع ان تحريمها جاء تطبيقاً للشريعة الإسلامية وهو القانون الذي تسير عليه البلاد.

في السنوات الاولى لمجيئي للبحرين كان "الشراب" الشائع هو العرق المقطر من التمور.. وكان لدى الشرطة أوامر بتنفيذ كل ما هو ممكن لمحاربة صناعته وبيعه ولعدة سنوات شننتُ حرباً ضد المشتركين في صناعته الذين كانوا أذكياء جداً في اخفاء حمولاتهم.

أحيانا كثيرة أذهب مع الشرطة في غاراتها على هذه المواقع وتفتيش البيوت والحدائق حيث يتم تقطير العرق.

والحقيقة انني استمتعت بهذه الغارات! فبعض عصابات الخمور كانت تختار أماكن لا تخطر على باب أحد لتخبئة بضاعتها!!

في احدى المرات وجدنا معملاً لتقطير العرق في المستشفى الذي يرقد به المختلون عقلياً (دار المجانين) يقوم بتشغيله أحد الحراس (النواطير)!

وفي مرة أخرى عثرنا على مخزن لزجاجات الخمرة تحت أحد الشوارع الرئيسية والمتصل بنفق ارضي إلى منزل بائع متجول سئ السمعة، وقد اكتشفنا هذا المخزن بطريق الصدفة عندما تم حفر الشارع.

البيوت المهجورة في القرى أيضاً مواقع مفضلة لهذه الجماعات حيث تخفى القنينات المحرمة في قاع الحفرة أو تدفن بحديقة المنزل!

الأفيون وهو أحد المخدرات كان محظوراً في تلك السنوات ويستعمله المقيمون الاجانب كالايرانيين والبلوش.. ومن السهل إخفاء الأفيون لكن من الصعب اكتشاف موقعه، ولذلك اعتمدنا كثيراً على تقارير المخبرين.

الافيون، الذي يشبه اعواد الشمع البنية اللون، كان يجلب للبحرين إيران ومعظم الاشخاص الذين يبيعونه ايرانيون.

في احدى المرات كنت أفتش منزلاً أعتقدت بوجود الافيون بداخل، وبعد ان عاينا البيت بأكمله لم نجد شيائً واصبح الوقت متأخراً من الليل، فنظرت إلى ساعة الحائط لكنها كانت متوقفة، وعن غير قصد استفسرت من صاحب المنزل عن جدوى الاحتفاظ بالساعة رغم انها لا تعمل، فلاحظت عند تحدثي معه تغير قسمات وجهه وارتباكه مما أوحى لي بفكرة قمت بتنفيذها فوراً... فتحت الساعة فوجدت أن أجزاءها الداخلية ازيلت تماماً وملا الحيز الذي تشغله بكميات من الافيون قيمتها تساوي مئات الجنيهات الاسترلينية.

كانت هناك شبكة قوية مرتبطة بالخارج لإدخال الأفيون إلى البلاد وتهريبه إلى أُوروبا، وتدفع في سبيل ذلك مبالغ كبيرة لرشوة أشخاصاً معينين لكي يساعدوها في عملياتها.

وينقل الافيون من إيران إلى الساحل المتصالح وهو الاسم الذي أطلق على امارات الخليج الست الصغيرة الواقعة على لاطرف الجنوبي الشرقي من الخليج العربي عندما عقدت معاهدة عامة مع الحكومة البريطانية في عام 1820 م، وقبل ذلك كانت المنطقة تعرف بـ "ساحل القراصنة".

ومن هذه النقطة يحمل الافيون في سفن شراعية إلى البحرين، وتعمل الشبكة على ان يتزامن وقت وصوله مع امكانية تهريبه إلى إحدى السفن المتجهة إلى أُوروبا أو أمريكا أو الشرق الأقصى.

أحياناً لا تنجح الخطة ويتحتم إخفاءه في البحرين حتّى موعد وصول سفينة أخرى إلى الميناء، والعصابة تملك سيارات و"لنشات" ومبان لحفظ الافيون، لكن الخطر يلاحقها دائماً عندما تريد نقل بضاعتها من مكان لآخر.

لقد ضبطت الشرطة عدة شحنات من هذه السلعة الممنوعة تبلغ قيمتها مئات الآلاف من الجنيهات، حيث اعتقل المهربون على ظهر السفينة وهم يقومون بتحميل البضاعة من قارب مجاور لها وقبض على الأشخاص الذين كانوا بالقارب، وقدموا للمحاكمة وتلقوا عقوبات بالسجن لسنوات طويلة.

لم يكن هناك تعاون من قبل عامة المواطنين معنا في محاولاتنا لإيقاف تجارة الأفيون، فالبحرينيون يعتبرون جهودنا تدخلاً غير ضروري في تجارة تجلب أموالاً كثيرة للبحرين.. وهم يرون

ان الافيون لا يستخدمه الاهالي ولذلك لا يوجد مبرر للقلق بشأنه وإنما يتضرر الذي يتعاطونه في الدول الاخرى لأنه ليس موضع اهتمام بالنسبة للبحرينيين.

الفصل العاشر

قد يكون من حسن الحظ ان زيارات كبار الضيوف للبحرين لم تكن متكررة قبل عشرين سنة كما هي عليه اليوم عندما يعود أعضاء البرلمان البريطاني والصحفيين بعد قضاء يومين في البحرين وهـم يزعمون بأنهم خبراء في شؤون الخليج العربي، فحتى عام 1937 كان معظم الشخصيات القادمة عبارة عن مسؤولين بارزين لحكومة الهند البريطانية أو ضباطاً كباراً في البحرين الملكية أو سلاح الطيـران البريطاني حيث يتبادل الشيخ حمد المحادثات معهم ويدعوهم عادة إلى العشاء.

والمباحثات التي تدور في هذه المناسبات رسمية "دائما تكون متشابهة، تتطرق إلى الطقس فـي أوروبا وزيارة الضيف إلى البحرين واحيانا إلى الخيول والصقور".

في احدى المرات جاء لزيارة البحرين مطران الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فأخذته لمقابلة الشيخ حمد.. كان هذا الرجل الايطالي مهيباً له لحية بيضاء ويرتدي ملابساً جميلة، وارتاح الشـيخ لزيارتـه بسبب تحدثه بعض العربية.. واكتشف الرجلان ان عمرهما متساو، ولما سأل الشيخ المطران عن عدد أطفاله رد قائلاً بأنه لا يسمح لمطرانات (اساقفة) الكنيسة الكاثوليكية بالزواج!

وعندما كان الشيخ في زيارة للندن جاء لمقابلته بفندق هايد بارك اللورد كادمان رئـيس شـركة النفط الإيرانية البريطانية وتحدثا معا لمدة ساعة كاملة حول أسباب عدم تقدم شركته للحصـول علـى امتيازات التنقيب في البحرين حيث كان موضوعاً من الصعب جداً توضيحه.

وقد ضاق الشيخ ذرعا بحديث هذا الرجل المتواصل والممل الذي وجب علي ترجمته الفورية له.

بعد انتهاء المقابلة طلب مني اللورد كادمان ان أحدد موعداً ثانياً لاستكمال تفسير وتبرير تصرف شركته، لكن الشيخ لم يجد وقتاً لذلك خلال زيارته.

مع نهاية عام 1937 زار الأمير سعود بن عبد العزيز ملك المملكة العربيـة السـعودية حاليـاً (1959) البلاد.

وتصادف وقت زيارته مع الاحتفالات بعيد الجلوس للشيخ حمد، لذلك قمنا بـبعض التعـديلات والتغييرات الممكنة للزينات والديكورات لكي تخدم المناسبتين معا. ودعي الأمير إلى حفل غداء كبيـر بصحبة مرافقيه.

وفي أوائل السنة التالية سافر الشيخ ليؤدي مناسك الحج بمكة المكرمة وعين مجلساً للوصاية على العرش اثناء غيابه يتكون من شقيقيه الشيخ محمد بن عيسى والشيخ عبد الله بن عيسى بالإضافة إلـى شخصي.

وقد كان السفر عن طريق البحر، واذكر ان السفينة توقفت لعدة أيام في البحــرين لأن الخــادم المسؤول عن إعداد القهوة والشاي نسي أمتعته ومعداته عندما كانت السفينة راسية في ميناء بومبـاي، ولم يبدأ السفر إلاّ عندما عادت هذه المعدات.

بعد عودة الشيخ من مكة، زارت البلاد الأميرة البريطانية أليس ومسؤول كبيـر فـي البرلمـان البريطاني، وقضيا بضعة أيام في البحرين في طريق عودتهما من المملكة العربية السعودية.

لقد كانت الزيارة غير رسمية ومراسم الزيارة اقتصرت على حفلات غداء وعشاء مصغرة، وأقام الضيفان بمبنى المعتمدية البريطانية حيث استقبلهما المعتمد السياسي آنـذاك "هـود ويتمـان" برفقـة زوجته... وقد تخلى هذان المسؤولان عن صبغتهما الرسمية وأمضيا معظم وقتهما في التقاط الصـور والتسوق في العاصمة.

وتعتبر الأميرة أليس أول عضو في العائلة الملكية البريطانية يزور البحرين وشعر الشيخ بخيبة أمل بسبب كون الزيارة خاصة ولا يستطيع إقامة حفل إستقبال شعبي كبير لتكريم الضيفين الملكيـين، وكان سموه مبتهجاً ومسروراً جدا لان الاميرة هي أول امرأة تستعرض وتفتش حرس الشرف المحيط بقصره، فمثل هذا الامر لم يحدث أبداً بالبحرين في السابق!!

الملك عبد العزيز بن سعود زار البحرين في ربيع 1939 والتقيت به لأول مرة وأعجبت كثيـراً بشخصيته، فقد كان رجلاً في غاية اللطافة وأعرب عن سروره الشخصي تجاهي.. وعندما عـاد إلـى المملكة أرسل لي هدية عبارة عن فرس وولدت هذه الفرس مهراً جميلاً لونه بني محمر وكنت ارتقـي صهوته كل يوم لسنوات عديدة.

وقبل ان يصبح عاهلاً للمملكة، عاش الملك عبد العزيز بعض الوقت في البحرين، عندما كان في المنفى وحل ضيفاً على سمو الشيخ عيسى بن علي حاكم البحرين حينذاك ولم ينس أبداً الحفاوة الكبيرة التي لقيها في ذلك الوقت.

قبل وقت طويل من بدء الزيارة امضيت أغلب اوقاتي مع الشيخ حمد في مناقشة الترتيبات لها... وقد تم استضافة الزوار بقصر الشيخ سلمان الجديد في الرفاع الذي احاطت به الخيـام لكـي يشـغلها المشاركون في الرقصات والفقرات الشعبية.

واقترحت على الشيخ ان يكون هناك برنامج مطبوع لزيارة الملك ابن سعود حيث ان هذا هـو النظام المتبع في زيارات الملوك في اوروبا.. فوافق الشيخ على ذلك بعد ان بينت له ان زيارته إلـى لندن كانت مبرمجة مسبقاً ولها جدول مطبوع.. ونجح اقتراحي وتم تنفيذ برنامج الزيارة بصورة حسنة جداً.

وصل الملك إلى البحرين عن طريق مدينة الخبر الواقعة على الساحل الشرقي للمملكة مسـتقلاً اللنش الجديد للشيخ حمد الذي اهدته إياه شركة النفط (بابكو) وصحبه اسطول ضـخم مـن القـوارب الحاملة للعلم السعودي الأخضر بداخلها اقارب الملك والمسؤولين وحوالي مئتي مرافق من اتباعه.

وجاء نجله الامير سعود برفقة مجموعة كبيرة قبل ان يصل الملك، أما الأمير فيصـــل، شـــقيق الامير سعود، فقد جاء عن طريق الجو قادماً من القاهرة.

والتقى العاهلان على طرف الرصيف (الفرضة) وتعانقا بحرارة تحت مظلة حمراء كبيرة الحجم احضرتها هدية للشيخ من انجلترا عند عودتي من اجازتي السابقة. سار موكب الاستقبال المكون مـــن نحو خمسين سيارة تتقدمهم شرطة الخيالة التي ترفع الحراب الحاملة للاعلام المكونـــة مـــن اللـــونين الاحمر والابيض، وأمام الموكب سارت الدراجات النارية الحمراء التابعة للشرطة ببطء بين الجماهير المحتشدة على جوانب الشوارع احتفاء بهذه المناسبة التاريخية، وقد أعرب كثير مـــن الـــواقفين عـــن فرحتهم فألقوا بعباءاتهم (بشوتهم) إلى الشارع تكريماً للملك عبد العزيز.

وفي قصر المنامة تجمع أعضاء العائلة الخليفية الحاكمة لاستقباله بسبب صعوبة اجـــراء تلـــك المراسم بالميناء نظراً لكثرة المرتادين.

وارتدى الكشميرية التي تعتليها العقال الذهبية، اضافة إلى السيوف والخناجر المذهبة المرصـــعة بالاحجار الكريمة..

انطلقت البنادق ترحيباً بالضيف الكبير على فترات متقطعة حينما دخل الشيخ بصحبة الملك إلى القصر.

وأود أن أذكر بهذا الصدد أن هذه البنادق كانت هدية من الملكة فيكتوريا إلى الشيخ عيسى والـــد الشيخ حمد.

اما العاهل السعودي فقد ارتدى ملابس بسيطة تتكون من ثوب أبيض وبشت بني اللون وغتـــرة بيضاء مخططة باللون الأحمر مثبت فوقها عقال ذهبي. وقد أحاط بالملك حرســـه الســـمر بمعـــاطفهم القصيرة الملونة المزينة بخيوط ذهبية ووضعوا حول خصورهم الاحزمة العريضة المزودة بالخنـــاجر الفضية وخرطوشات البنادق، بينما التفت حول أكتافهم احزمة لحفظ كرات الرصاص بداخلها...

كل فرد من حرس الملك تسلح بالرشاش تحت ذراعه وكنت متأكداً من ان هذه الرشاشات معبئة تماماً.

وسار جدول الزيارة بصورة حسنة واشتمل على بعض الفقرات الرائعة.

وقد أقام تاجر سعودي بارز جداً ومقيم بالبحرين مأدبة عشاء فخمة بقصره الواقع على قمة تـــل بمدينة الرفاع، وبلغ عدد المدعوين "600 شخص" جلسوا جميعاً لتناول الوليمة الضخمة المكونة من لحم الغنم (الغوزي) والارز والاطباق الاخرى.. وكان ضوء القمر ساطعاً كما لو كانت الدنيا نهاراً، وفرشت الساحة الواسعة للقصر بالسجاد الايراني النفيس.

لقد كانت تلك المأدبة اكبر وليمة عشاء شاهدتها طوال حياتي. ومما لفت نظري فيها ان الملـــك عبد العزيز كان يتكلم طوال فترة الاكل وهو على عكس ما يتبعه معظم البحرينيين.

في اليوم الثاني للزيارة وأثناء وجودنا بالسيارة دار نقاش طويل بين الملك من جهة وبين الشيخ حمد وشخصي من جهة اخرى، حول أمور السياسة في الخليج وأوروبا، أعرب خلالـه الملـك عـن اشمئزازه لطريقة هتلر في التخلص من اليهود وقتلهم مع ان جلالته يكرههم بشدة.

وقال الملك: لقد كان من الافضل تجريدهم من ممتلكاتهم ثم تركهم أحياء.

وبالمناسبة فقد التقى الملك قبل مجيئه للبحرين بالسفير الالماني في بغداد الذي أكد له ان ألمانيـا وإيطاليا قوتان لا تقهران!! وهي جملة شكك جلالته في صحتها.

كما تطرق الحديث إلى بعض المسائل العامة غير المتعلقة بالسياسة، ومن آراء العاهل السعودي الممتعة ان الحليب الطازج المحلوب مباشرة من البقرة هو دواء مثالي يستخدم كمسهّل ومطهر للبطن، كما نصح بعدم تناول السمك في الليل والاكتفاء بأكلها نهاراً.

بعض البحرينيين أخبروني سابقاً بأن تناول البطيخ جنباً إلى جنب مع السمك في نفـس الوجبـة يسبب الخطر للانسان!! لكنني كنت افعل هذا الشئ بصورة متكررة دون ان يحدث لي أيـة اعـراض مرضية!!

اهل البحرين ممثلون بالفطرة!!

نخدر السمك... نصطاده .. ونأكله!!

أثناء زيارة الملك عبد العزيز للبحرين، حضر عرضاً مسرحياً قمت أنا بالاعداد له وترتيبه. هذا العرض كان عبارة عن نوع جديد من أنواع التسلية في البحرين.

ونظراً لروعته اعجب الجمهور الكبير الذي شاهده اعجاباً شـديداً بـه وبحسـن أداء الممثليـن المشتركين فيه الذين كانوا من رجال الشرطة، وحرس المدن، بالاضافة إلى عدة مئـات مـن تلاميـذ المدارس، وأقيم العرض على الساحة المفتوحة أمام القلعة بالمنامة.. وقد رفعنا مستوى المدرج إلى علو ثلاثة أقدام استعداداً لهذه المناسبة.

المشهد الأول اشتمل على مسيرة وزحف للجنود حمل خلالهما الرجال والاولاد المصابيح اليدوية والفوانيس المربعة المختلفة الالوان على اعمدة خشبية طويلة.

اما المشهد الثاني، فكان أكثر طموحاً استخدمت فيه الاضاءة الغامرة الاصطناعية أول مرة فـي تاريخ البحرين لإنارة مساحة واسعة على نحو متناسق. وشاهدنا قرية بحرينية كاملة بدكاكينها ومسجدها وأشجار النخيل الكثيفة... بالاضافة إلى بئر تملا النساء الماء من داخله، وجزء من ساحل يحتوي على قوارب حجمها مقارب جداً للقوارب الحقيقية وهي تصطف بمحاذاته.. ينزل مـن القـوارب قراصـنة ويهاجمون القرية.

شاهدنا الخيول والجمال تستخدم باتقان وبراعة في هذه المسرحية، عدا جملاً واحداً اندفع نحـو جمهور الحاضرين لكن الله ستر ولم يصب احد منهم بأذى!!

في المشهد النهائي رأينا كيف تم إحراق القرية بعد نهبها واختطاف النســاء ــ اللــواتي أجــاد أدوارهن طلبة المدارس ــ على ظهور الخيول خلف الفرسان وهن يصرخن طلبــا للاغاثــة بــأعلى أصواتهن.

أود أن أذكر هنا ان معظم البحرينيين لديهم قدرة واستعداد فطري للتمثيل، وبعض المســرحيات التي قام بتمثيلها طلبة المدارس كانت رائعة!!

ديكور المسرحية المعقد للغاية والملائم جداً لاحداثها كان من تصميمي، اما اللوحات المساعدة فقد رسمتها بالاشتراك مع الصديق ماكس ثورنبورج الامريكي الجنسية ومدير شركة النفط (بابكو) آنــذاك، وقام بمساعدتنا شاب "روسي أبيض" من هواة الرسم.

لقد جاء هذا الشاب من العاصمة الإيرانية طهران ونزل بالمملكة العربية السعودية دون ان يكون لديه أي مبلغ مالي أو أوراق ثبوتية فتم احتجازه في السجن على الفور حيث قضى هناك بضعة أشــهر قاسية.

وبطريقة ما نجح في الهروب من السجن وفر من المملكة ولجأ إلى الساحل البحريني فالتقطتــه الشرطة.

وعاش هذا الشاب لبعض الوقت في القلعة وعومل كضيف لا كسجين... ثم قمت بتشــغيله فــي وظيفة سائق لكنه كان شارد الذهن طوال الوقت الامر الذي جعله خطراً على الشوارع!!

أخيراً اتصلت ببعض أبناء بلده في لبنان الذين تعرفوا عليه ونجحت في إرساله إلــى بيــروت.. ومنذ ذلك الحين لم اسمع أبداً أية أخبار أخرى عن هذا الشخص رغم استفساراتي المتكررة عنه!!

أما ماكس ثورنبورج فقد كان صديقاً حميماً للشيخ حمد الذي وهبه جزيرة صغيرة قــرب قريــة البديع الواقعة إلى الغرب من مدينة المنامة.

هذه الجزيرة لم تكن سوى قطعة رملية تغطيها كميات كبيرة من الاصداف والمحارات الصغيرة تسمى "الصبّان" ولذلك اطلق على هذه الجزيرة إسم "أم الصبّان" نسبة إلى هذا النوع من الاصداف.

حفر ثورنبورج بئرا ارتوازية وقام بزراعة الجزء الشمالي منها، وبعد انتهاء الحــرب العالميــة الثانية، دأب هو وزوجته على قضاء عدة أشهر سنوياً بهذه الجزيرة واتخذاها كمنتج أو مصيب سياحي لهما.. حيث يعيشان في البيت الجميل الذي شيّداه ويقومان باستضافة وامتاع العديــد مــن الامــريكيين والبريطانيين القاطنين بالبحرين، كما يستقبلان زوار البلاد الراغبين في التعرف عليها مثل الدبلوماسيين والمسافرين الاجانب والكتاب أو مراسلي الصحف!!

نسيت أن أذكر ان البيت الذي يعيش فيه ثورنبورج وزوجته أبيض اللون، منخفض الارتفاع تكاد اغصان الاشجار تخفيه عن الانظار، ويقع وسط غابة من اشجار النخيل وجوز الهند، وتحيط بــالممر الموصل له الازهار المتفتحة الحمراء والبيضاء الزكية الرائحة.

بعض نوافذ البيت تطل على البحر في اتجاه جزيرة "جّدة" الصخرية التي تعكس أشعة الشــمس بحدة تجاه السماء أثناء الغروب.

السباحة في البحر المطوق للجزيرة والبركة الضخمة الواقعة على الشاطئ متعة كبيــرة حيــث يظلل البركة الاشجار، وبالقرب من البيت وحول الجزيرة يمارس الضيوف رياضـــة صـــيد الاســـماك المشوقة.

في عام 1958 قرر ثورنبورج وزوجته انهما لا يستطيعان الاستمرار في امضاء بضعة اشـــهر كل عام بالبحرين، لذلك اعادا الجزيرة مرة أخرى إلى الشيخ سلمان الحاكم الحالي للبلاد. وسوف يتذكر الكثير من الناس الاوقات السعيدة وكرم الضيافة التي استمتعوا بها على ظهر جزيرة أم الصبان.

على مسافة لا تزيد عن الميلين غربي أم النعسان تقع جزيرة صغيرة ثانية اسمها "جدة" وهي لا تشبه أية بقعة أخرى في البحرين بسبب إمتلائها بالجروف (جمع جرف) المرتفعة الشـــديدة الانحـــدار والصخور الرمادية المصفرة الهائلة العدد التي تجعل المرء يعتقد بأنها تكونت نتيجة تعرض الجزيـــرة لهزة أرضية في يوما ما!!

من هذه الجزيرة تؤخذ الاحجار المستعملة في بناء القبور، وفي فترة لاحقة استخدمت أحجارهـــا لبناء قلعة البحرين.. وعلى وجه أحد الجروف الناعمة وجدت نقوشات باللغة العربية يعود تاريخها إلى عام 1561 م !

وعندما قمت باستكشاف الجزيرة لاول مرة، لم يكن الماء الحلو متوفراً بها ولم يوجد بها إلاّ نخلة واحدة على الرمال الواقعة تحت مستوى الصخور، لكنني أحببت ذلك المكان لأن جوه الطــف واقــل رطوبة من المنامة وطرأت على بالي فكرة مفادها انّه لو تمكنا من الحصول على الماء العذب في هذه الجزيرة فسوف تكون مكاناً مناسباً يخصص للمساجين والمعتقلين الذين يقضون فتــرات طويلـــة مـــن العقوبة... الذين كان عددهم قليلاً جداً في تلك الايام.

وقمنا بحفر بئر ارتوازية وفوجئنا بالتدفق الغزير للماء إلى ارتفاع يزيد عن 12 قدما ونوعيتـــه أجود بكثير من ماء العاصمة. وأنشأت حجرات ومبان بسيطة لسكن المساجين وحرس الشرطة، وقد تم بناؤها من الاحجار الموجودة هناك، ومعظم الاخشاب التي استخدمت كانت من الاخشاب الطافية علـــى الشاطئ.

فيما بعد تم إنشاء سجن كبير في الجزيرة العربية الجانب المستوى من الجـــرف والـــذي كـــان (مخزناً) للصخور في القرون السابقة.

بعد سنوات من إنشاء (جزيرة الشيطان) امرني الشيخ بتأجيل اجازتي الصيفية حتّـــى الشـــتاء، ووافقت على ذلك لكنني طلبت منه السماح لي ببناء منزل صغير في جدة كي أتمكن من اللجوء إليه أيام العطل الاسبوعية والهرب من المكالمات الهاتفية وطلبات المساعدة إلاّ في الحالات الطارئة!!

وقام السجناء ببناء المنزل تحت إشراف بناء بحريني وكان موقعه مرتفعاً على قمة صخرة كبيرة فوق الرصيف الصغير مع وجود ممر منحدر يؤدي إليه.

وللمنزل جدران حجرية سميكة ويبدو منظره على بعد كأنه قلعة سكوتلاندية مصغرة.. لقد كـــان مبنى بسيطاً يتألف من غرفة للجلوس تعلوها غرفة النوم ويصل بين الغرفتين سلم خرجي، اضافة إلى

غرفة طعام صغيرة وحجرة أخرى على السطح وتطل النافذة الكبيرة لغرفة الجلوس على البحر أسفل الصخرة.. الجانب الآخر للمنزل يشرف على منظر الحديقة ويمتد إلى مياه البحر الزرقاء التي تفصل الجزيرة عن أرض البلد.

في المساء تضاء السماء في الجهة الغربية من الجزيرة بواسطة الوهج الناتج عن احتراق الغاز في حقول النفط السعودية القريبة لسواحل البحرين.

وتحلق طيور البحر حول قمة البيت وفي أيام الربيع تشدو طيور القبرة البرية بالغناء وقت الصباح.

وجدة هي مكان حافل بالكثير من الطوير التي تبني اعشاشها وتفرخ هناك. وفي الشتاء تهب الرياح على الجدران وكنا نشعر بالسرور عندما نتدفأ حول النار المشتعلة من موقد الخشب المفتوح الذي يرسل لهيباً أصفر جميل المنظر.

تعودت على العمل في الحديقة مع السجناء، رغم ان بعضهم صدر عليه الحكم من قبل المحكمة التي اشارك أنا في هيئتها ولا تبدو عليهم علامات الحقد أو التذمر تجاهي، كما لم يشعروا بالاستغراب لكوني مستشار حكومة البحرين وقائد الشرطة لإشتغالي في حديقة مليئة بالمعتقلين!!

ومع مرور السنوات صنعنا بستانا بديعا يحتوي على النخيل التي تتخللها الزهور، الشجيرات الموردة، والأشجار المرجانية، الرمان ونباتات الخبيزة والفلين واللنتافة ذات الازهار الصفراء والبرتقال العطرة.

وبنيت بركة سباحة واسعة في البستان يظللها سبعة أنواع مختلفة من الاشجار وزهور الياسمين العبقة الرائحة النامية حولها.

وبعد ان أمضي نصف وقت الصباح بالبحر، امكث وقتاً طويلاً في السباحة بالبركة. وعلى جانب الرصيف البحري تكثر الأسماك التي يصطادها السجناء بالشباك أو بالسنارات، وحينما يكون الصيد وفيراً يضعون السمك تحت أشعة الشمس لتجفيفه وعمل "المالح" أو "الاحلة" كما يسمى في البحرين.

في احدى السنوات جلبت حربة لصيد السمك من كشمير بالهند ونجحت في اصطياد الاسماك الضخمة إلى ان تكسر نصلها عند اصطدامها بصخرة مرجانية صلبة.

ودأب المساجين على المجئ والانصراف من المطبخ وهم يحضرون الخضراوات من الحديقة أو الأخشاب المستعملة في اشعال النيران أو أكوام الزهور المربوطة في باقات عبيرة الشذى لوضعها في المنزل.

وفي يوم ما، بينما كنت استحم في بركة الحديقة، جاء الي سجين كبير السن من الذين يعملون فيها وأدخل إلى الجزيرة بسبب تورطه في عملية تهريب للاسلحة، وتحدث الي بصوت حاد جداً لأنني تركت ساعتي وخاتمي على صخرة قرب خزان المياه.

وقال لي ناصحاً: ينبغي إلاّ توضح معداتك (أغراضك) الشخصية الثمينة في أي مكان هنا، لأن بعض الناس على هذه الجزيرة ليسوا أمناء!!

مرتان أو ثلاث في كل صيف خلال أيام الحر الملتهبة أذهب في رحلات لصيد الأسماك مصطحباً بعض رجال الشرطة والسجناء معي حيث يتنافسون على الفوز بمرافقتي للابتعاد عن روتين السجن اليومي الذي يشتمل على قطع الاحجار، ونسج الأقمشة وأعمال الفلاحة بالحديقة. وعادة ما نتوجه إلى جزيرة "البينة" وهي قطعة أرض رملية منخفضة تتوسط "جدة" والساحل السعودي، وأحياناً نبحر إلى جزيرة واسعة أخرى بالقرب من سواحل البحرين حيث يمتلك الشيخ منزلاً فيها مبنياً على دعامات فوق سطح البحر. هذه الجزيرة كانت مليئة بالغزلان والارانب البرية والظبيان السوداء، وتوجد فيها أشجار التين اللذيذ.

أول مرة خرجت فيها لمثل هذه الرحلات البحرية، تصورت انها ستكون رياضة مملة جداً، لكنني وجدت أنها على النقيض جداً من ذلك. وقبل ان اغادر "جدة" يقوم الرجال باعداد "طُعْم السمك" وهي المادة المستخدمة في اصطياده والتي تتكون من سراطين البحر والأسماك الصغيرة المخلوطة مع الطحين والبذور الجافة لزهرة الليلك الإيرانية المسحوقة جميعها لتكّون عجينة لزجة لها رائحة مميزة.

وعندما نصل جزيرة "البينة" نلقي مرساة "اللنش" ونقفز إلى البحر ونسبح حتّى الشاطئ الرملي الابيض حيث اقف في عرض الماء المالح الذي يغطي نصف جسمي وأراقب عملية الصيد.

ويبدأ الرجال الحاملين معهم اواني "طعم السمك" بخوض المياه ونثر كميات كبيرة منها على مساحة واسعة من السطح، ثم ينضمون الينا على الشاطئ.

وبعد الانتظار لمدة عشرين دقيقة تقريباً نرى طيف السمك الفضي وهو يقترب من مكان "الفخ" وبعد فترة طويلة قليلاً نشاهد بوضوح اسماكاً كثيرة تندفع في دوائر أو تغدو وتجئ وتنزلق بسرعة في سطح الماء.

وما هي إلاّ لحظات أخرى حتّى يحيط بالجزيرة من جميع جوانبها الاسماك المتحركة بطريقة تولد على ذعرها. ثم يدخل الرجال إلى البحر فيخوضون ويسبحون فيه ويغوصون إلى اسفله وهم يصطادون الاسماك إذا استطاعوا ذلك بأيديهم العارية.

ورغم كون السمك مخدراً إلاّ ان الامساك به لم يكن أمراً سهلاً، وحينما أحاول اصطياده تضرب السمكة يداي بزعانفها الحادة وتتخلص منا بسبب كونها ملساء مما يجعل القبض عليها صعباً.

بعض الرجال يقومون بصيد السمك من خلال زورق بخاري مربوط إلى "اللنش" حيث يجلسون في موقع مرتفع عن سطح الماء ويرشدون الصيادين داخل البحر عن مكان تواجد الأسماك الكبيرة.

بعد حوالي نصف ساعة يسترجع السمك حالته وحواسه الطبيعية ويشفى من المخدر المأخوذ من بذور زهرة الليلك الإيرانية المعروفة في البحرين باسم "سم السمك"!!

بعد الانتهاء من عملية الصيد تكون ارضية الزورق البخاري مليئة بالاسماك من جميع الاحجام والانواع، بالاضافة إلى أعداد أخرى قابعة على ظهر "اللنش" أثر إلقائها إلى هناك بواسطة الصيادين.

ثم نتسلق إلى "اللنش" للاستراحة وشرب القهوة التي تسبق وجبة من السمك الطازج الذي يجري طهيه والتلذذ بأكله وهو أحسن بكثير من الاطعمة البحرية الغالية الثمن التي تقدمها المطاعم والتي لا تستطيع منافسة مذاق اسماك جزيرة البينة!!

لقد درجت على إخبار ضيوفي الذين يتناولون العشاء معي بأن معظم الأسماك التي يشترونها من السوق "مخدرة" وحالما يسمعون ذلك حتّى تنتابهم الدهشة ويتركون السكاكين والأشواك المستخدمة في الأكل تعبيراً عن قلقهم، إلى ان أُأكد وأُطمئنهم على إنني تعودت على أكل السمك "المخدر" لعدة سنوات ومع ذلك لم أصب قط بأي أذى!!

الفصل الحادي عشر

شهود على وثيقة مغلقة!!

أحد المحافظين البريطانيين يطبق مشروعا اشتراكيا!!

خلال سنوات الحرب العالمية الثانية، وبالتحديد في عامي 1939 و1940، لم تتأثر البحرين كثيرا بآثارها وذلك رغم الارتفاع الحادي في مستوى المعيشة وشحة بعض السلع المستوردة.

وفي أثناء الحرب العالمية الاولى التي بدأت عام 1914 شهدت البحرين ازدهاراً في تجارة اللؤلؤ حيث أقبل الاوربيون على شرائه لانهم اعتبروه استثمارا جيدا ويمكن حمله بسهولة، لذلك تمنى طواويش اللؤلؤ ان يتكرر هذا الأمر اثناء الحرب العالمية الثانية، لكن هذه الصناعة لم تنتعش مرة أخرى... ولحسن الحظ، حينما اصبحت الحرب وشيكة الوقوع نجحت في استيراد كميات كبيرة من الارز من مدينة رابخون الهندية تكفي لسد احتياجات البحرين لعدة أشهر، وقبل نفاذ هذه الكمية طرحت نظام توزيع ومراقبة اسعار المواد الغذائية الضرورية كالرز، الطحين، السكر، والشاي.

ونجح هذا النظام نجاحاً عظيماً لدرجة جعلت التهريب مشروعاً مربحاً للغاية.. حيث أخذ بعض التجار في تهريب السلع الضرورية إلى دول الخليج المجاورة (والتي لا يوجد بها نظام مشابه لمراقبة كميات وأسعار المواد الغذائية) مما أدى إلى ارتفاعها الشديد هناك !

وفي البحرين، كما في الدول الخليجية الأخرى، جمع بعض التجار ثروات جيدة من السوق السوداء على الرغم من العقوبات الصارمة التي تلحق بمن يتعامل من خلالها.

وحتى اليوم، لا تتعجب وأنت تسمع مواطناً بحرينياً يقول لك وهو يشير بيده إلى بعض البيوت الفخمة في المنامة أو في القرى؛ هذا المنزل بناه صاحبه من أرباح السوق السوداء!!

نظام التوزيع بالحصص كما قلت نجح نجاحاً مدهشاً، لأنه انطوى على درجة كبيرة من التنظيم.

الأمر الذي دفعني إلى تأسيس دائرة حكومية لمراقبة المواد الغذائية تحت رئاسة دي جرينير مدير الجمارك، والتي استمرت في العمل لعدة سنوات عقب انتهاء الحرب.

ولقد لاقى النظام تأييداً من غالبية الناس، عدا بعض التجار الذين تحسروا لعدم جنيهم للمبالغ الطائلة في الوقت الذي تمكن تجار امارات الخليج الاخرى تحقيق ذلك بسبب عدم تطبيق اجراءات للحد من هذا الاستغلال.

ففي ظل هذا النظام تبين للمواطنين العاديين بالبحرين انهم يحصلون على نفس المعاملة التي يلقاها الآخرون دون النظر إلى طبقتهم الاجتماعية، لونهم، أو ثروتهم، ولم يتوانوا قط في الابلاغ عن حالات رفع السعر من قبل التاجر أو اكتشافهم لتخزينه للمواد الغذائية لكي يبيعها في وقت آخر بسعر أعلى، وقد ساعدني هذا على ادخال خطة جذرية نالت الدعم الشعبي.

بعض التجار الكبير كانوا متعاونين مع الحكومة، لكن معظمهم اعتبروا الربح المعقول جدا الذي تسمح لهم به قليلاً، بعد فترة من الزمن اضطرت الحكومة، بدلاً من إستثمار فائض الايرادات في صندوق احتياطي الدولة، إلى الشراء المباشر للسلع الضرورية التي تحتاجها البلاد وبيعها في محلات (دكاكين) خاصة لحملة البطاقات.

وتعوّد اصدقائي ان يضحكوا حينما يقابلونني ويبدون استغرابهم من ان الشخص المتعصب جدا لحزب المحافظين البريطاني والمقاوم للتغيير والاصلاح (وهو أنا) يطبق مشروعاً اشتراكياً بحتاً!!

مع بداية 1941 أُجري أول احصاء سكاني في البحرين، وتم تنفيذه بنجاح، وساعدنا ذلك على تطبيق نظام ضبط المواد الغذائية بكفاءة أكبر... إلاّ اننا واجهتنا صعوبات عديدة اثناء التعداد.. فالكثير من الناس اعتقدوا ان ذلك كان مقدمة لفرض الضرائب عليهم، وظن آخرون بأن جميع الرجال والشباب اللائقين صحياً وجسمانياً سوف يرسلون للعمل كجنود في أوروبا!! كما انتشرت إشاعة مفادها انّه لن يسمح للنساء بولادة أي طفل إلاّ داخل مستشفى الحكومة!! ولم ينظر أحد إلى فائدة هذه الخطوة الهامة مستقبلاً.

وبعد ان تجولت في القرى وشرحت لكل فرد ان هدف الاحصاء السكاني ببساطة هو معرفة عدد سكان البحرين من أجل التخطيط لتوفير الغذاء لهمن سحب الأهالي معارضتهم وتمت عملية التعداد طوال مساء يوم 21 يناير 1941.

وفي تلك الليلة بدت مدن وقرى البحرين اشبه ما يكون بالمدن الميّتة (أي دون حركة) باستثناء مجموعات صغيرة من الرجال تجوب المنازل بكل شارع حاملة بين أيديها الدفاتر والاوراق والفوانيس!!

وقد أمضيت الليلة فوق صهوة حصاني متنقلاً من شارع لآخر ومن قرية لاخرى لمتابعة تطورات العملية، ولم نقابل أية مشكلة أو ما يمنع سير العمل.

وشاعت بين المواطنين كلمة "بطاقة" التموين أو البطاقة التي بموجبها يعطي كل فرد ما يستحقه من أرز، سكر، شاي، أو طحين الدقيق.

وبعد إنتهاء الحرب دهشت زوجتي مارجوري كثيراً لاطلاق هذا الاسم (أي البطاقة) على طالبات المدرسة السمراوات اللون، وفيما عدا ذلك فهذه البطاقات ليست هي الشئ الذي يرغب الناس في تخليده بذاكرتهم.

لبضع سنوات، لم تكن حالة الشيخ حمد الصحية تسير على ما يرام، الشئ الذي بث القلق بين نفوس من يعرفونه عن قرب..

وحينما زار الشيخ بريطانيا عام 1936، اقنعته بعرض نفسه على طبيب مختص فشخّص المرض الذي يعاني منه وهو (السكّري) الكثير الانتشار في البحرين بسبب احتواء الوجبة اليومية للبحرينيين على كميات كبيرة من الارز والتمر والتي تساعد على تفاقم هذا المرض.

ونصح الطبيب الشيخ بأخذ حقنات من الانسولين يومياً فوافق على ذلك.

واوكلت هذه المهمة إلى واحد من خدمة الشباب بعد تدريبه على كيفية حقن الأبر.

في طريق العودة إلى البحرين وركوبنا للقطار المتوجه إلى اسطنبول، اعترت الخادم حالة عصبية وادعى انّه لا يستطيع غرز الحقنة في ذراع الشيخ... وتداركت أنا الموقف وقمت بهذا العمل رغم انني لم أمارسه أبداً طوال حياتي.. والحمد لله انّه عندما غادر الشيخ اسطنبول عاد الخادم إلى طبيعته ولم يتهيب منذ ذلك اليوم من العمل كممرض!!

في فبراير 1940 قرر الشيخ حمد بعد فترة طويلة من التفكير والمشاورة معي، ان يعيّن خليفته بكتابة وثيقة سرية لا يتم فتحها إلاّ بعد وفاته.

وقد لجأ الشيخ إلى هذه الطريقة، بدلاً من الافصاح العلني عن ولي العهد.. حتّى لا يخلق الشقاق والنزاعات داخل العائلة الحاكمة.

فولي العهد في إمارات ودول الخليج الاخرى ليس بالضرورة هو النجل الأكبر للحاكم، بل الرجل الافضل والأنسب لادارة شؤون الدولة في نظر مجلس العائلة الذي يقرر هوية ذلك الشخص المؤهل لهذا المنصب.

وبالرغم من ذلك، طرأت تغيرات على تقاليد العديد من الحكام والملوك، حيث يقومون بتعيين خليفتهم اثناء سنوات حكمهم قبل وفاتهم، فعيّن الملك عبد العزيز آل سعود نجله الأكبر، الأمير سعود، ولياً للعهد في عام (1959) وعين الشيخ سلمان الأمير الحالي للبحرين (1960) ابنه الأكبر الشيخ عيسى ولياً للعهد.

.. وبالنسبة لإمارة قطر قام حاكمها الشيخ عبد الله بتسمية نجله الثاني الشيخ حمد كخليفة له، وذلك قبل ان يتنازل عن العرش، ولكن بسبب وفاة الشيخ حمد، تسلّم الشيخ علي، الابن الأكبر زمام الحكم في البلاد.

اربعة اشخاص فقط كانوا على علم ومعرفة بقرار الشيخ حمد وهم: أنا وهوج ويتمان، المعتمد السياسي البريطاني، سكرتيري الهندي كيه. بي نارايان، وعبد الله بن جبر سكرتير الشيخ وأمين اسراره.

وكتب نارايان الوثيقة تاركاً مساحة اسفلها لتوقيع الشيخ والشهود عليها لكي يتم طيها وحفظها بعد ذلك!!

وبالمناسبة، هذا السكرتير عمل معي لفترة تبلغ ثلاثين سنة تقريبا ونال ثقة الشيخ بل وقد كان على دراية بأمور كثيرة من مواضيع الدولة وخلفياتها.. وفي يوم جمعة، بينما كان مكتبي مغلقاً، ولم يكن هناك مواطنون بانتظاري أو حول مبنى المكتب، ارسلت في طلب كل من الشيخ راشد بن محمد آل خليفة، عم الشيخ حمد (والد زوجته) وهو أحد أعمدة العائلة الحاكمة، وإلى قاضي الطائفة السنية الشيخ عبد اللطيف، وإلى قاضي الطائفة الشيعية الشيخ عبد الحسين الحلّي الذي تربطني به علاقة صداقة شخصية، لكي يأتوا إلى منزلي لأمر "هام جداً".

وقد جاء القاضيان معاً بالصدفة، وبدون ترتيب!

والشيخ عبد الحسين عراقي الجنسية يرجع اصله إلى مدينة الحلّة وهو رجل كبير في السن، ذكي، يحب الفاكهة والهزل، ويرتدي دائماً عمامة بيضاء حجمها كبير، وعباءة (بشت) اسود اللون، وله لحيّة سوداء مصبوغة ومزينة.

أما الشيخ عبد اللطيف فهو رجل قصير القامة صغير الحجم يرتدي ثوباً أبيض ونظارة وهو سريع الاهتياج يرفع صوته عاليا عند إثارته!!

وصل الشيخ حمد قبل الموعد المحدد، وجلس في غرفة الجلوس حيث قرأ عليه نارايان الوثيقة التي درس تفاصيلها بعناية. وأخيراً جاء الشيخ راشد وهو يتوكأ على عكازه، تجاعيد السن كانت بادية بوضوح على وجهه ولحيته تشع باللون الاحمر.. ورغم ضعف بصره إلاّ انّه رفض ارتداء النظارات!!

ثم توجهنا جميعنا إلى "غرفة الشرفة" وهي تسمى غرفة مجازاً لانني بنيت شرفة واسعة جداً من جهة الشمال يمكن الجلوس فيها والنظر إلى الحديقة والبحر من خلفها!

شعر الرجال الثلاثة بتلهف وفضول شديدين حينما أُبلغوا بأن المطلوب منهم فقط هو الشهادة على توقيع الشيخ فوق وثيقة.

وبعد ان وقّع الشيخ حمد على الوثيقة، حُوّلت إلى الشيخ عبد اللطيف الذي أخذ يتمعّن لفترة طويلة على الجزء المطوي منها كأنه يأمل ويتمنى أن تكتشف نظارته ما هو مكتوب بداخلها قبل ان يوقع عليه، ثم وقع الشيخ عبد الحسين بعده.

أما الشيخ عبد الله بن جبر فأخذ يراقب كل رجل وينحني فوقه للتأكد من عدم قلبه للوثيقة أثناء التوقيع لقراءة محتواها!!

وحالما تم الانتهاء من عملية التوقيع والشهادات على التوقيع استدار الشيخ عبد اللطيف إلى الشيخ حمد وهو يقول: الآن بعد الانتهاء من هذا الأمر، هل لك ان تخبرنا مضمونه؟

فاعترضه عبد الله بن جبر قائلاً: أيها القاضي، أخبرنا عن موضع خطبة الجمعة التي ألقيتها على جموع المصلين اليوم!! فانفجر الشيخ حمد ضاحكاً من اثر حديث عبد الله إلى القاضي، واعتبر ذلك انقاذاً له من الإجابة على سؤاله، بينما كان تعليق الشيخ عبد الحسين الحلي المرح دائماً:

بالتأكيد انّه موضوع هام جداً يخص الدولة، ولا يحق لنا الاستفسار عنه.

ثم أُحضرت القهوة بعد ذلك، وغادر الشيخ المنزل مشيراً عليّ بكتمان محتوى الوثيقة التي يوصي فيها بتعيين نجله الاكبر الشيخ سلمان كخليفة له.. وقمت بحفظ هذه الوثيقة في البنك.

ولم اسمع أبداً أي حديث عن الوثيقة التي وقعت في منزلي ذلك الصباح قبل اليوم الذي توفي فيه الشيخ، فالشهود الثلاثة التزموا جميعاً الصمت حولها!!

الشيخ سلمان... رشحته العائلة وأيدته الوثيقة

بالرغم من ظروف الحرب القاسية، إلاّ ان البحرين استمرت في النمو والتقدم بشكل بطئ.. وذلك نظراً لصعوبة الحصول على مواد البناء من الخارج.

فقد أفتتح قسم النساء بمستشفى السلمانية تحت رعاية حرم الشيخ حمد في عام 1940، كما تواصل العمل لإنشاء الجسر المتحرك الذي يربط بين المنامة والمحرق، لكن لم يتم الانتهاء منه إلاّ في بداية 1942 بسبب الاستيلاء على شحنتين من الحديد تعرضنا لعمل عدائي بعد ارسالهما من بريطانيا إلى البحرين عن طريق البحر!! كما قمت بتوظيف مدير انجليزي للتعليم الذي مهد لقيام المدارس الثانوية بالبلاد، وعينت شخصاً إنجليزياً آخراً مديراً للمدرسة الصناعية.. ولقد كانت هذه المدرسة ولا تزال مصدراً للمشاكل .. حيث ينظر الطلاب البحرينيون إلى الاعمال اليدوية على انها تحط من قدرهم ولا تناسبهم!!

واستقدمت طبيبة اسكوتلندية وعدداً من الممرضات المدربات للعمل بمستشفى النساء، أما الدكتور سنو المدير الحالي للمستشفى (1959) فقد جاء إلى البحرين في فترة لاحقة قبل افتتاح الجزء الخاص بالرجال.

في البداية واجهتنا صعوبة في اقناع السناء البحرينيات بالعلاج داخل المستشفى والبقاء لعدة أيام بين جدرانه رغم اقبالهن بالآلاف على العيادات والمستوصفات الخارجية!!

ويمكننا ان نلحظ اليوم التغير الكبير الذي حدث لعقلياتهن عندما نعلم ان مستشفى الولادة الجديدة يستقبل شهرياً 120 طفلاً جديداً تضعهن الأمهات داخل أجنحته.

وقد افتتح الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة حاكم البحرين الحالي هذا المبنى الرائع في عام 1958.

مع ذلك.. ففي هذا المبنى الحديث ــ أيضاً ــ كانت تقع بعض الحوادث ... أذكر منها اننا في احدى المرات، اثناء نقل سيدة قروية إلى غرفة المخاض، تعطل المصعد الموجود به.. وكانت تصحبها ممرضة هندية!! ولقد استمر تعطل المصعد لمدة ساعة تقريباً تم خلالها ولادة الطفل بعناية على يد الممرضة!!

العجيب ان الأم التي لم تدخل مستشفى الولادة من قبل، لم يظهر عليها أي أثر للدهشة لأنها اعتقدت أنها وضعت مولودها في المكان المخصص للولادة!!

في السنوات الأولى للحرب العالمية الثانية، لم يهتم البحرينيون كثيراً بمجرياتها ووقائعها الرهيبة في أوروبا، والقليل منهم أ درك القضايا الهائلة المحيطة بهان وذلك رغم وصول الصحف والـــدعايات الاعلامية إلى البحرين.

فإذاعة برلين كان لها بعض التأثير السياسي حيث يصغي المواطنون كل يوم إلى صوت المذيع المعروف يونس بحري باسلوبه الذي نال إعجابهم، إلاّ انهم يستمعون ــ أيضاً ــ إلى الإذاعة البريطانية B.B.C المملة جدا لغرض الحصول على المعلومات الدقيقة.

ولم تكن الحكومة تسمح بفتح أجهزة "الراديو" في المقاهي والأماكن الامة على محطات الـــدول الاعداء، لكن لعلمها انها لا تستطيع ارغام الناس على ذلك، لم تحاول منعهم من الاستماع إليها داخـــل بيوتهم... ونتيجة لذلك كان القريون يصدقون أية إشاعة إعلامية إليها داخل بيوتهم... ونتيجة لذلك كان القريون يصدقون أية إشاعة إعلامية سياسية مباشرة بسبب عدم وجود الكهرباء عندهم... أمـــا اليـــوم فالطاقة الكهربائية متوفرة في كل قرية تقريبا.

عندما اشتعلت الحرب أعلن الشيخ حمد وقوف البحرين إلى جانب الحلفاء، وتبرع بمبالغ ســـخية لصالح المجهود الحربي كما شارك في الصندوق الذي أنشئ في الخليج من أجل شراء طائرات حربية نافثة اللهب، ووفر التسهيلات وقدم المساعدة بكل طريقة ممكنة.. وكانت الفترة حرجـــة جـــدا بالنســـبة للأوربيين القاطنين في البلاد، والكثير من الشبان أرادوا العودة إلى دولهم والانخراط في الجيش، لكنهم أبلغوا بالحاجة لبقائهم في البحرين لاستمرار صناعة النفط.

كانت هناك أيضاً درجة من الاحتكاك بين الامريكيين والبريطانيين، لكن هذا الأمـــر لـــم يقلـــق الحكومة بصورة مباشرة... وحينما سقطت فرنسا في يونيو 1940 بعثت برقية إلى مارجوري للمجـــئ مع ابننا حمد إلى البحرين، فغادرا بريطانيا عن طريق البحر مستقلين السفينة ســـتراثنافر واســـتغرقت الرحلة للوصول إلى جزيرة سيلان وأكثر من شهر تعرضت خلالها لقصف القنابل وملاحقة الغواصات لها.

لقد كانت تجربة مروعة لهما!!

ولما وصلت السفينة إلى كراتشي نُقل ولدي الذي بدت عليه آثار مرض الحصبة خـــلال رحلـــة القطار الطويلة من جنوب الهند إلى مستشفى محلي لمعالجة الحمى يقع بسوق كراتشي وهو مكان غير صحي، وحاولت جاهداً بصفتي قائداً للشرطة في البحرين إدخال ابني إلى المستشفى العســـكري فـــي كراتشي وفعلاً نجحت في هذه المهمة وسافرت إلى هناك لملاقات أسرتي.

غادر هوج ويتمان المعتمد السياسي البريطاني البحرين إلى دلهي في أغسطس من نفس العـــام وأصبح وزيراً للخارجية لحكومة الهند البريطانية.. وقد أسفت جداً مع كثيرين على رحيله، فهذا الرجل، إضافة إلى السيد أي . بي . ويكفيلد (الذي اشتغل بالبحرين فيما بعد ثم انتقل إلى دلهي) كانا صـــديقين حميمين جداً، ولقد عملا الشئ الكثير للابقاء على إسم البحرين في خارطة العالم وساعدا الحكومة فـــي الحصول على امدادات الطعام من الهند.

في شهر اكتوبر وقعت غارة جوية ليلية على البحرين شنتها طائرة إيطالية قادمة من جزر الدوديكان.. وبعد إلقائها بعض القنابل على البلاد وقنبلة أو قنبلتين أخريين على المملكة العربية السعودية، طارت عبر الصحراء والبحر الاحمر إلى مستعمرة شرق أفريقيا الإيطالية.

والعملية كرحلة جوية كانت إنجازاً ممتازاً، أما كغارة حربية فإنها فشلت تماماً حيث ارادت الطائرة قصف مصفاة النفط (معمل التكرير) الذي يتوهج بالأنوار مثل شجرة الكريسماس، لكن القنابل سقطت في الصحراء على مكان بعيد نسبياً عنها.

معظم سكان المنامة لم يعلموا شيئاً عن الحادث حتّى صباح اليوم التالي، وعندما عرفوا الخبر صاروا ساخطين أكثر من كونهم مذعورين.

وهذه الغارة كانت بمثابة الاشارة الضوئية لجميع النساء والاطفال الامريكيين لمغادرة البحرين، وقد فعلوا ذلك دون تأخير!!

دعايات الأعداء روجت إشاعة تقول ان الغارة قامت بها طائرة بريطانية على شركة النفط الامريكية في البحرين بهدف جر الولايات المتحدة إلى الحرب، وربما اختلقت الدولة المعادية هذه الرواية لكي تغطي فشلها في الهجوم!

بعد انتهاء الحرب أصدر الضابط الإيطالي القائد للغارة الجوية كتاباً أوضح فيه ان المهمة الموكل بها هي عملية يائسة لأن الزعيم موسوليني لا يريد ان يتراجع أبداً!!

إثر الغارة قامت الحكومة بفرض نظام اطفاء الأنوار والتعتيم الليلي ووجدنا صعوبة في تطبيقه لأنه من غير المستحب ارغام الناس الجالسين في غرف بيوتهم ليلاً على اغلاق النوافذ ومن كمية الهواء القليلة من النفاد إلى الداخل بواسطة الستائر التي تحجب الضوء والهواء عنهم.

مع استمرار الحرب اصبحت العلاقات بين دار الاعتماد البريطاني والحكومة تشوبها المشاكل.

اثنان من السياسيين البريطانيين العاملين في البحرين كان اختيارهما غير موفق من قبل حكومتهما .. ربما لعدم توفر النوعية الجدية خلال سنوات الحرب!!

ذات مرة وقعت حادثة كان بطلها المقيم السياسي البريطاني في البحرين الذي اعتاد كتابة الملاحظات في دفتر صغير اثناء حديثه مع البحرينيين ــ الذين يتضايقون لذلك كثيراً ويعتقدون أنه يكتب أشياء تنتقص من قدرهم أو تسئ اليهم، كما ان هذا الرجل نما عنده شعور بأن كل شخص في البحرين هو معادٍ لبريطانيا!! وهذا غير صحيح.

وقد تحملتُ بصبر وزر هذه المشكلة ــ كغيرها ــ وقمت بحلها بهدوء!

الحادثة الاخرى التي أتذكرها تتعلق بشارة الكنيسة الكاثوليكية التي أهداها البابا للشيخ حمد، فقد عُرف الشيخ بعقله المتنور والمنفتح في قضايا الدين وكان يشجع على ان يمارس كل فرد عقيدته الخاصة في البحرين بشرط عدم التدخل في دين الدولة (الإسلام) ..

وأعطى سموه ترخيصاً ببناء كنيسة كاثوليكية رومانية في البحرين ومنح الجالية المسيحية قطعة أرض بالمنامة لهذا الغرض.

وعندما أبديت رغبتي في إنشاء كنيسة انجليكية أعطانا الشيخ سلمان أرضا قرب القلعة (مبنى الشرطة) وأقمنا عليها كنسة القديس سانت كريستوفر ومقرا لإقامة القسيس.

وتقديراً من البابا لمكرمة الشيخ حمد منحه وسام الفارس وهي درجة كهنوتية وفق الطقوس الكاثوليكية لتسليم الوسام إلى الشيخ لكن السلطات البريطانية رفضت ذلك، فعاد المطران إلى بلاده مستغرباً لما حدث ومستنكراً عدم السماح له بتقليد الشيخ هذه الشارة أو الوسام البابوي الهام.

وحاولت جاهداً ان استوعب سبب تصرف بريطانيا بهذا الاسلوب القبيح لكن دون جدوى.

على العموم، بعد مرور فترة لا بأس بها على هذه الحادثة سحبت السلطات البريطانية اعتراضها وتم تسليم الشيخ تلك الشارة.. وشيئاً فشيئاً أخذت الأمور تعود إلى مجاريها بعد بعض التحركات والتعيينات الجديدة في دار الاعتماد البريطاني.

الذكرى العاشرة لتنصيب الشيخ حمد احتفلنا بها في 16 فبراير 1942، بعد ان تأجلت لبضعة أيام بسبب الأمطار الغزيرة التي اجتاحت البحرين وملأت ساحة الاستعراض بالقلعة والمساحة المفتوحة أمام القصر!

وعندما تسقط الامطار فانها تسبب الفيضانات لأن غالبة شوارع المنامة لا يزيد ارتفاعها عن القدمين فوق مستوى سطح البحر، كما ان المجاري التي تستخدمها في البلاد الآن لتصريف مياه الأمطار لم تكن موجودة في ذلك الحين.

وكان هناك عرض عسكري لشرطة الدولة في قصر الشيخ احتفالاً بهذه المناسبة.

لكنها كانت مناسبة حزينة، الكل شعر فيها بالقلق والضيق ازاء اخبار الحرب... وبأن الشيخ حمد ــ كما دونت في مفكرتي ــ متعباً مريضاً كما تلبدت السماء بالسحب السوداء الثقيلة والهواء الرمادي العاصف الذي خيم على المدينة مما جعل مشهد العرض العسكري كئيباً لا يميزه سوى قبعات الشرطة القرمزية اللون!!

بعد يومين لاحقين، تم ايقاظي في الصباح الباكر من قبل شخص ارسل لإبلاغي بأن الشيخ قد تعرض لنوبة قلبية بمقره الشتوي الذي يسكن فيه للصيد والقنص بمنطقة الرميثة الواقعة على التلال في الطرف الجنوبي من البحرين، فإرتديت ملابسي على الفور وقدت سيارتي مسرعاً إلى ذلك المكان... وعندئذ شاهدت منظراً حزيناً، فقد اعتدت عندما أذهب لزيارة الشيخ ان أرى حركة وجلبة وضوضاء، والخدم يدخلون ويخرجون من المنزل باستمرار، والسيارات تأتي وتروح إلى المبنى، كذلك الجمال والحمير ترعى وتلهو في الوادي الواقع بين التلال.

لكن في ذلك اليوم، ورغم وجود معظم أفراد العائلة والخدم والاتباع، إلاّ ان الصمت والسكون كانا يخيمان على المشهد ولا يقطعهما إلاّ نحيب بعض الرجال في فترات متقطعة.

رأيت الشيخ مرتين كان خلالهما فاقد الوعي مستلقيا في غرفة داخلية بمنزله يعاين حالته كل من الدكتور سنو والدكتور هاديسون من مستشفى الإرسالية الأمريكية، إضافة إلى الدكتور هولمز الطبيب

المسؤول في مستشفى الملكة فيكتوريا التذكاري لسنوات طويلة والذي صادف تواجده في البحرين مع هذا الحادث.

أخذ الأطباء الثلاث يتناوبون على فحص الشيخ ومراقبته، ولكن كان هناك القليل الذي يستطيعون فعله!!

في المساء توجهت إلى منزلي وذهبت زوجتي مارجوري إلى المحرق للوقوف بجانب حرم الشيخ التي لم تبلّغ إلاّ بمعلومات قليلة جداً عن حالة زوجها.

ولم تتحسن حالة سمو الأمير في اليوم التالي، وجاء الشيخ عبد الله شقيق الشيخ حمد الي عصراً وأقترح علي ان أطلب من الاطباء إستخدام العلقات الطفيلية، فذهبت مع زوجتي إلى أحد العيون الطبيعية بعد الغروب وحصلنا على بعضها بصعوبة شديدة وأرسلناها إلى منزل الشيخ.

توفي الشيخ حمد عصر اليوم الثالث. كنت أنا وسكرتيري الهندي نارايان في طريقنا بالسيارة إلى الرميثة حينما قابلنا موكباً طويلاً للسيارات القادمة من الشارع المنحدر المخترق للصخور نتقدمه سيارة بداخلها الشيخ سلمان نجل الشيخ حمد، الشيخ محمد بن عيسى والشيخ عبد الله بن عيسى شقيقاه.

أصبت في تلك اللحظة بارتباك ممتزج بالقلق الشديد لأن الوثيقة السرية التي كتبها الشيخ لم تكن عندي، فقد أودعتها البنك... وهو المكان الأمين الحافظ لها.. وقلت لنفسي من المفروض أن أقوم بسحبها من البنك عندما علمت بسوء الحالة المرضية للشيخ، ولكن لأن ذلك اليوم صادف يوما لجمعة فإن البنوك لا تفتح والمدير لا يتواجد، كما أنني حاولت العثور عليه فلم أجده.

توقفت السيارات وخرج الشيوخ الثلاثة منها، وجاءوا الي لينفردوا بي في ركن بعيد من الشارع.

وأبلغوني انّه فور وفاة الشيخ حمد اجتمعت العائلة الحاكمة واختارت بالاجماع الشيخ سلمان خليفة له وأميراً جديداً للبحرين.

وقد سرني هذا الخبر لعدة أسباب أهمها أن الاختيار هو نفس رغبة الشيخ التي كتبها في وصيته.

أدرت سيارتي وانضممت إلى موكب السيارات العائدة حيث توجهنا نحو مقبرة الرفاع الواقعة في السهل المنخفض للمدينة.

وتمت مراسم الدفن التي شعرت خلالها بالحزن الشديد لأول مرة في حياتي حيث كنت معجباً جداً بهذا الرجل وقد فقدت صديقاً عزيزاً لازمته لأكثر من خمسة عشر عاماً متواصلة.

واحتشدت المئات من النساء المتشحات بالسواد فوق الجبل المحيط بالوادي وهن يجهشن بالبكاء والعويل بينما إنتحب الكثير من الرجال المشاركين بعبارات الاسف واللوعة لفقدان الامير.

ووقف الرجال للصلاة على الفقيد الراحل، أما أنا فقد أسرعت بسيارتي إلى البيت وبذلت جهداً كبيراً حتّى حصلت على الوثيقة التي لم تعد لها أهمية خاصة الآن.

ثم رجع إلى مقر الشيخ سلمان بالرفاع، وكان سعيداً لمعرفته برغبة والده التي اتفقت مع رغبات باقي أفراد عائلة آل خليفة.

ونظراً لوجود بعض الأشخاص في مجلسه، أخذني الشيخ إلى غرفة أُخرى حيث دار بيننا حديث طويل.. ووصف لي بالتفصيل كيف جاء الشيخ عبد الله إليه، وأخبره بأنه سيسانده ويؤيد توليــه زمــام الحكم في البلاد، ثم أعلنت العائلة بالإجماع انها تبايعه أميراً جديداً للبحرين.

بعد ذلك طلب مني الشيخ سلمان أن أبقى في البلد وأعمل معه مستشاراً كما عملت مع والدة في السنوات السابقة... وقد وافقت على ذلك.

الفصل الثاني عشر

بلجريف ... بين الولاء للشيخ والانتماء لبريطانيا

عندما استلم الشيخ سلمان زمام الحكم في البحرين كان قد مضى على وجودي بهذا البلد خمــس عشرة سنة شعرت خلالها بالسعادة الكبيرة بسبب المعاملة اللطيفة والكرم والتفهم.. الذين غمرني بهمــا الشيخ حمد وبسبب تقدير الشعب البحريني بصورة عامة لما كنت أقوم به من أعمال.

وبالطبع كانت هناك صعوبات، ففي بعض الاحيان لا تلقى افكاري القبول،وعادة ما تكون هنــاك معارضة للمشاريع والمقترحات الجديدة التي احيانا اضطر إلى تأجيلها أو إلغائها.

وعندما اريد ان أطرح خطة أو فكرة جديدة، فإن أفضل وسيلة للحصول على الضوء الأخضــر لتنفيذها، بعد موافقة الشيخ طبعاً، هي شرحها وتوضيحها لاثنين أو ثلاثة من كبار رجال البلد، لا يشترط فيهم ان يكونوا نفس الاشخاص دائماً، وبعد إقناعهم بجدواها وتحمسهم ومساندتهم لها أشرع في تطبيقها.

وخلال عملي إتهمني الكثير من الناس بأنني "بارد" وهي صفة اعترف بحقيقتها ودرجــت علــى سلوكها حيث لم افقد أبداً أعصابي أو هدوئي أو أظهر دهشتي الشديدة في مواجهة الأحداث وهو اختبار حرج لقياس قدرتي على التحمل عند التعامل مع أشخاص يثيرون الغضب والانفعال بدرجة كبيرة.

وكنت أحس بهذا الشئ فمثلاً عندما أتحدث مع أحدهم فيقوم بوصف رجل بريطاني معين قــائلاً: إنني لا أستطيع أن أتكلم معه، انا حار جداً ولا يستمع الي" أو ان يقول: "ذلك الرجل رأسه كبير جداً!!" والمعنى مفهوم هنا.

إحدى المشاكل الشخصية التي عانيت منها كانت التوفيق بين ولائي للشيخ وانتمائي أو تبعيتــي لبريطانيا، وهو أمر ليس سهلاً خصوصاً حينما يختلف مع الانجليز.

وفي معظم الأحيان يتفق رأيي مع رأي الشيخ عندما يحدث الخلاف بينهم.

والسلطات البريطانية التي تتجاهل كوني موظفاً (مستشاراً) عند الشيخ تتوقــع منــي دائمــاً ان أُساندها، ولا تقبل بسهولة أي نقد مني لسياستها أو لفت نظرها إلى خطأ تلك السياسة، فرغم ان ســلطة المقيم السياسي البريطاني في الخليج، والمعتمد السياسي في البحرين، تعتبر أعلى مــن ســلطتي، وان بعض المعتمدين السياسيين في السنوات اللاحقة كانوا من الشباب القليلي الخبــرة، إلاّ اننــي نجحــت بصورة عامة في مهمتي بتهدئة الشيخ عندما ترتكب السلطات البريطانية أموراً غير لبقة أو غير مقبولة وأقوم باقناعها باتباع طريقة أكثر اعتدالاً عندما تجد نفسها ملزمة بابداء عدم الموافقة الرسمية.

فجميع الأمور التي نناقشها لابد ان نصل في النهاية إلى إتفاق عليها، وكنت أشعر ان بعض المعتمدين السياسيين ينظرون إلي كشخص "مزعج" بالنسبة لهم إلاّ ان بعضهم الآخر كان التعامل معه صعباً للغاية!!

ونظراً لكون البحرين إمارة صغيرة فان المسائل الشخصية بين الانجليز ورجال البلد البارزين تلعب دوراً كبيراً، لذلك تتأثر السياسة أحياناً بالرغبات والأهواء الشخصية!!

تطورات وتغيرات كثيرة طرأت على البحرين خلال الخمسة عشر عاماً الاولى التي قضيتها فيها.

ففي عام 1926 وهي اول سنة جئت فيها لم يكن هناك سوى ظلال أو طيف للادارة، فالجمارك والشرطة كانتا الدائرتين الحكومتين الوحيدتين في هذا البلد، ولم تكن هناك سوى مدرستان نظاميتان وبلدية واحدة.

أما المستشفيات الحكومية فلم توجد بعد. لم يكن للدولة ميزانية سنوية بل حسابات مبهمة، ومحكمة يمكن ان نطلق عليها تجاوزاً هذا الاسم بسبب عدم وجود القوانين والتشريعات والانظمة التي تسير عليها، كما ان حالة الامن العام في البلاد كانت متدهورة حيث يخرج الناس ليلاً وهم مسلحون، لم تكن الكهرباء قد دخلت البحرين بعد ولم توجد وسائل لا مداد البيوت بالمياه، الطرق والشوارع تقريبا لم تكن معروفة في ذلك الوقت.

البريد كان يصل من الخارج مرة واحدة كل اسبوعين وعدد الاوروبيين المقيمين لم يزد عن 12 شخصاً وكانت الدكاكين تبيع القليل من البضائع الاوروبية لكن مستوى المعيشة في تلك الايام كان منخفضاً جداً، لم تكن هناك بطالة والشعب البحريني ظهر كأنه سعيد راض بالرغم من ان التغير الذي طرأ على ظروف وحياة اهل القرى منذ القرن الماضي كان طفيفاً جداً.

التغيرات الاجتماعية لأبناء المدن كانت ملموسة اكثر منها في القرى خلال الخمسة عشر عاماً السابقة الذكر.

في عام 1926 بدأت تظهر في البلاد طبقة جديدة هي الطبقة المتوسطة المكونة من التجار وأصحاب الدكاكين وصغار ملاك الاراضي.

ومع أُفول تجارة اللؤلؤ فقد "أمراء" هذه التجارة إلاّ وهم "الطواويش" نفوذهم وحل محلهم التجار وأصحاب الدكاكين بالسوق. الكثير منهم كانوا رجالاً عصاميين بنوا ثرواتهم اعتماداً على أنفسهم.

وكمثال لهؤلاء الرجال، سأحكي لكم قصة رجل سوف اشير إليه بإسم محمد.

بدأ محمد حياته العملية كعامل بالمطبخ في منزلي.

كان معظم أوقاته يجلس على المائدة في غرفة غسل الصحون والاواني وينكب على دراسة كتاب ممزق لتعليم الانجليزية مقرر على طلاب المدارس الابتدائية لكي يتعلم هذه اللغة.

بعد فترة قمت بترقيته إلى وظيفة "فراش" من الدرجة الثانية، وعقب مرور فترة من الزمن أصبح محمد كبير الخدم في بيتنا حيث شغل هذا المركز لعدة سنوات.

وفي أحد الأيام جاء إلى زوجتي مارجوري وقال لها: "أرجو ان تسمحوا لي بترك الخدمة" فسألته على الفور: لماذا؟ انك تؤدي عملاً جيداً هنا".

فأخبرها عن رغبته في العمل بالسوق ليفتح دكاناً خاصاً له، ولم تجد زوجتي مفراً من الموافقة ــ على مضض ــ على استقالته.

بعد فترة قصيرة استأجر محمد ركناً صغيراً جداً في شارع جانبي بالسوق وأخذ يعــرض فيــه بعض السلع الصغيرة الحجم والمناسبة الثمن.

وكنا إذا احتجنا شيئاً من السلع الموجودة لديه ورأينا انها ملائمة لنا فاننا نشتريها منه، وكان على إتصال دائم بنا لاخبارنا عن سير الأُمور في دكانه.

بعد مدة قصيرة من العمل والنجاح انتقل محمد إلى دكان اوسع وقام بتشغيل عامــل ليســاعده، وبعدها بسنة أو سنتين استأجر محلاً في الشارع الرئيسي بالسوق يحتوي على معرض ضخم للبضــائع ونوافذ زجاجية ومعدنية ومخزن كبير.

واشترى بعض الاراضي وشيد منزلاً فخماً وأرسل ابنه الاكبر إلى مدرســة بمدينــة برايتــون بالمملكة المتحدة، ومتجه الان يعتبر واحداً من المتاجر العصرية جداً في المنامة.

وقبل مغادرتي للبحرين بسنة واحدة، كنت أقضي إجازة الصيف في هولندا، وعندما رجعت جاء محمد ــ كالعادة ــ للسلام علي وقال: لقد رأيتك في هولندا.

فسألته مندهشاً: وكيف حدث ذلك؟، فأوضح لي بانه كان يقيم مع بعــض أصــدقائه الهولنــديين ويتدرب على لعبة الجولف عندما شاهدني أقود سيارتي في الشارع.

الناس الوحيدون في منزلي الذين لم يعجبهم نجاح محمد وصعوده العملي هم زملاؤه الخدم!! فقد كنت أشعر دائماً بانهم لا يتصورون ــ أو ربما لا يقبلون ــ حقيقة تحول الشخص الذي كــان خادمــاً بالمطبخ يوماً ما إلى تاجر كبير يأتي لزيارتنا ويجلس معي في مجلسي الخاص الذي تعود في الســابق على تنظيفه وإزالة الغبار عن اللوحات الموجودة به!!!

رجل آخر كبير في السن من مدينة المحرق، استهل حياته بالعمل كحمال "لتناكر" المياه، أصــبح اليوم تاجراً مزدهراً يملك هو واولاده مبالغ طائلة، وظل طوال حياته يحــتفظ بالربــاط الــذي يحمــل بواسطته تنكات الماء ويعلقه في مكان بارز في بيته لكي يذكر أبنائه ببداياته العملية المتواضعة.

ثم مات مخلفاً ثروة مالية معتبرة، ودفن تحت سطح غرفته، وتحولت تركته فيما بعد إلى قضــية قانونية استمرت في المحاكم سنوات عديدة.

وبعد وفاته، أزال أولاده الرباط وتخلصوا منه.

بعض الناس يقولون انّه بسبب قيام الأبناء بهذا التصرف بعد رحيل والدهم توقفت تجارتهم عــن الإزدهار وأخذت تضعف شيئاً فشيئاً!!

قبل عام 1926 كان للقبائل العربية القاطنة في البحرين كالنعيم والبنعلي والجلاهمــة وقبلهمــا الدواسر دور هام في شؤون البلاد وساندت هذه القبائل عائلة آل خليفة ودعمتها بشدة.

لكن بعد تدهور تجارة اللؤلؤ قلت أهمية هذه القبائل وأصبح شبانها لا يعتمدون في حياتهم على انتمائهم القبلي.

واليوم القليل من أبناء الجيل الجديد يعير إهتماماً إلى أصله ونسبه القبلي، ولم يعد الانتماء إلى تلك القبائل يعطيها امتيازات إجتماعية خاصة.

استلم الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة أمور الحكم في البلاد وهي تنعم بحكومة مستقرة ودوائر حكومية يعمل فيها موظفون وعمال بحرينيون مع بعض الخبراء والأطباء والممرضات والمهندسين البريطانيين.

كانت إيرادات الدولة كافية لتوفير الخدمات الاجتماعية كالمدارس والمستشفيات، وبدأت متاعب زمن الحرب والمشاكل المتعلقة بنقص امدادات المواد الغذائية في الانفراج.

ولعب الشيخ نفسه دوراً نشطاً في بناء ادارة قوية بالبلاد، فقد عمل في السابق قاضياً بالمحكمة ورئيساً لمجلس بلدية المنامة ورئيساً لدائرة أموال القاصرين.

لقد أنشأت هذه الدائرة عام 1938 ويعتبر قيامها وتطورها نموذجاً ومثالاً معبراً عن كيفية ظهور الدوائر الحكومية الاخرى التي سبقتها إلى الوجود.

كان الهدف من إنشائها حماية مصالح وحقوق الارامل واليتامى والقصر (الغير بالغين) الذين غالباً ما تضيع إملاكهم أو يختلسها الاوصياء عليهم، المعينيون من قبل قضاة المحكمة.

فالدائرة تعد بمثابة الحل الأمثل لهذه المشكلة الممكن تحقيقه في دولة عربية والذي يشبه مكتب الوصي أو الأمين الحكومي في الدول المتقدمة.

وقد لاحت الفرصة لي لتنفيذ هذا المشروع اثر قضية في الدول المتقدمة.

وقد لاحت الفرصة لي التنفيذ هذا المشروع اثر قضية اثارت ضجة كبيرة في أوساط المحكمة ووسط عامة الشعب.

فعقب وفاة أحد الرجال الاغنياء وتركه أملاكاً كثيرة لورثته الذين لم يصلوا إلى سن الرشد وقت مماته عين القاضي أحد الاشخاص فقيما ووصياً على تلك الاملاك.

وعندما صار الورثة بالغين واجتازوا مرحلة "الوصاية" وسببت هذه القضية درجة كبيرة من السخط والنقمة لدى عامة الناس فلم أتردد في تأييد استيائهم لوقوعها، وبدأ المواطنون في إبلاغي عن حالات كثيرة مشابهة حدثت بالسنوات السابقة ذهبت فيها حقوق وأموال أطفال كثيرين ممن أصبحوا تحت رعاية ومسؤولية "الأوصياء" ادراج الرياح!!

عندما علم قضاة المحكمة بأن الحكومة سوف تتقصى موضوع الوصاية واملاك القاصرين بالكامل عارضوا ذلك بشدة واعتبروه تدخلاً غير ضروري في أمر يعتبرونه من اختصاصهم فقط، وخرجت صيحات عالية مماثلة من قبل التجار "السمان" المنافقين الذين كسبوا كثيراً نتيجة رعايتهم لتلك الأملاك والأموال.

فدعيت إلى اجتماع يحضره رجال البلد البارزون ــ من الشيعة والسنة ــ باستثناء من أعــرف انهم يعملون "كأوصياء" واخبرتهم بأن الحكومة تدرس تأسيس دائرة للتعامل في أموال القاصرين.

وبعد شهور من المناقشات ومحاولات الاقناع التي قوبلت بالمعارضة القوية من قبــل القضـــاة، تمكنت من كسب ثقة معظم رجالات البلد الكبار، واستعنا بقوانين وأنظمة مؤسسة مشابهة فــي بغــداد وعين الشيخ لجنة تضم أشخاصاً من الطائفتين مع بعض الموظفين الكتبة وخصص مكتب لهــا بمبنـــى المحكمة وحملت هذه اللجنة إسم "دائرة أموال القاصرين".

وقد سبب لي هذا الاسم مواقف طريفة عند الحديث مع البريطانيين عن هــذه الــدائرة، فكلمـــة القاصرين تقابل باللغة الانجليزية كلمة Minors التي لها معنى آخر هو عمال المناجم، فكان الإنجليز يسألونني دائماً عن أنواع المناجم الموجودة في البحرين!!

في بداية الامر لم تفرض الحكومة أن تكون الادارة الاجباريـــة لجميـــع الامـــوال والاراضـــي والممتلكات بيد دائرة أموال القاصرين، الاا إذا طلب أحد اليتامى أو الارامل، أو القصر ذلك.

في السنة الأولى لعمل الدائرة بلغ ع دد معاملاتها 43 معاملة صغيرة قيمتها نحو 4000 جنيــه استرلينين، لكن في عام 1956 بلغت الأملاك والاستثمارات التي تقوم بها حوالي نصف مليون جنيه.

وأصبحت الدائرة التي بدأت نشاطها وهي صغيرة جداً، فرعاً هامـــاً للحكومـــة وواحـــدة مـــن المؤسسات القليلة التي تشرف عليها لجنة أهلية تعمل في إنسجام.

ونشاط الدائرة تمثل في استثمار الاموال في الاراضي أو منع القروض المرتهنة بالعقارات الثابتة أو الذهب.

ونظراً لكون "الفائدة" المحتسبة أقل كثيراً من أسعار السوق التي لم تقل أبداً عن 20 بالمائة، لـــم تكن هناك صعوبة في الحصول على مقترضين عديدين.

والاملاك الخاصة بالقاصرين ترعاها الدائرة جيداً، وحينما يصل أصحابها ســـن الرشـــد بعـــد سحبهم لكميات لا بأس بها من الاموال في الفترة السابقة لذلك، يستلمون ميراثهم كاملاً والذي يســـاوي أكثر بكثير عما كان عليه عند وفاة عائلهم.

لاقت هذه الدائرة شعبية كبيرة لدرجة ان العديد من المواطنين الذين لم يكونوا "يتامى أو أرامل أو قاصرين طلبوا من الدائرة الاشراف على أموالهم!! وطبعاً لم يكن هذا هو هدف المشروع، لـــذلك تـــم رفض طلباتهم بأدب.

الخيول .. تبحث عن علبة التبغ الفضية!!

كان للحرب تأثير سلبي مستمر على أخلاق وسلوك المواطنين ولم يشعر البحرينيون بأن الحرب تعنيهم.. كما لم يكن لديهم الحماس الوطني القوي!!! فلقد وفرت الحرب للكثيرين فرصاً ذهبية لتكـــوين الثروات المالية بالطرق المشروعة وغير المشروعة أو بخليط منهما، وارتفعت الايجـــارات واســـعار

الاراضي، وجمع البعض أموالاً طائلة من تهريب الذهب إلى الهند ومن صفقات السيارات المصدرة إلى الدول الاخرى، وأصبحت السرقات وعمليات النهب تجري على نطاق واسع وصارت أمراً خطيراً.

ويبدو ان السارقين كانوا يؤمنون قبل تقديمهم للمحاكمة بأن السرقة من المخازن العسكرية ومن المؤسسات الحكومية أو من شركة النفط (بابكو) لا تعتبر جريمة!!

فقد أفرزت الحرب نوعاً جديداً من الشباب في العاصمة، نوعاً شـرقيا يشـبه (ناشـر التـبن) البريطاني فبدلاً من ان يرتدي الشاب بنطلوناً داكن اللون ومعطفاً ضيقاً وياقة طويلة مثل نظيره اللندني، يلبس بنطلوناً فاتح اللون وقميصاً أمريكياً مخططاً أو ذا أشكال غريبة وأحياناً قبعة بيضاء وعدداً مـن الاسنان الذهبية البارزة.. هذا الشاب يقوم بكسب المال عن طريق بيع المشروبات الروحية في السـوق السوداء وله نشاط في حي الدعارة حيث تكثر الصور الخليعة على الشارع الفرعي.

الكثير منهم بدأوا حياتهم العملية بالتردد على متاجر سوق المنامة وحمل الطـرود للاوروبيـين الذين للأسف شجع بعضهم كالانجليز والامريكيين هؤلاء على اتباع طريق السوء.

فلقد وجدهم الامريكيون أذكياء وبارعين وأحياناً يقومون بتشغيلهم كخدم في بيوتهم مما يؤدي إلى اندفاعهم نحو الرذيلة.

خلال سنوات الحرب نظمت الجالية البريطانية في البحرين انشطة متعددة تهـدف إلـى جمـع المساعدات الخيرية لصالح ضحايا الحرب، وفي عام 1944 جرى سباق للخيل على السهل الواقع خلف مدينة المحرق واشتمل على يانصيب خصص جزء من إيراداته لصندوق الحرب، كان ذلك الحدث هو الأول من نوعه الذي يجري في البحرين، وقد لا قى السباق شعبية كبيرة لدرجـة أن سـباقات الخيـل المقامة في فصلي الربيع والخريف أصبحت من أهم المناسبات الهامة التي تعقد كل عام.

وبعد انتهاء الحرب كانت السباقات تنظم لمساعدة صندوق مرضى السل الرئوي (T.B) والـذي مكن المرضى الفقراء من البحرينيين من السفر إلى الهند والعلاج بالمصحات المعدة لإستقبال أصحاب الامراض المزمنة هناك وذلك قبل افتتاح الحكومة لمستشفى الامراض الصدرية في المنامة.

وعلى الرغم من أنني لا أفهم شيئاً في سباق الخيول إلاّ إنني أصبحت سكرتير اللجنة البحرينيـة للسباق التي يقع على عاتقها مهمة تنظيمه مرتين أو ثلاث سنوياً وتسجيل الاشخاص العاملين كمحكمين أو كمضيفين أو كمشرفين على بدئه وأعضاء في لجنة (سباق العدل) أو مستخدمين لبيـع المرطبـات والسجائر والأطعمة الخفيفة.

كان الشيخ سلمان مغرماً بالخيول ولديه اسطبل يحوي جياداً عربية أصيلة وعنـدما زار الشـيخ الليدي وبنتورث في سنة تتويج الملكة، أخبرته بأن والدتها الليدي آن بلنت إشترت عدة خيول عربية من البحرين قبل حوالي ثمانين سنة وتتحدر منها بعض سلالات الجياد الموجـودة فـي مزرعـة كرابـت للخيول.

بالمناسبة يضم قسم الخيالة في شرطة البحرين ثلاثين جواداً تقريباً، ولدى شركة نفط البحـرين (بابكو) نادٍ وإسطبل في مدينة عوالي.

وهناك عدد من أصحاب الخيول الخاصة، لذلك كان من الممكن التنويع في الجياد المشتركة في السباقات رغم ان بعضا منها يتكرر اسمه في معظمها.

مضمار السباق هو المكان الذي كان مقرراً سابقاً جعله كمطار للبحرين ويقع خارج مدينة المنامة على مسافة ميل واحد منها ويحتوي على مدرج للجمهور، ومحل لبيع المرطبات والمأكولات الخفيفة، واسطبل يجمع الخيول ومقصورة ملكية.

موقع المقصورة ممتاز ويشرف عبر ميدان السباق على احدى ضواحي المنامة حيث تقبع البيوت البيضاء وسط أشجار النخيل على إمتداد ساحل البحر المنحني.

واحدة من الصعاب التي واجهتنا هي (سباق العدل) الذي تجري منافساته من خلال المسافات وليس عن طريق الوزن حيث يمتطي الجوكي التابع للمشترك صهوة حصانه بدون سرج، وتعتمد لجنة سباق العدل التي من بين أعضائها زوجتي مارجوري على الاداء السابق لكل خيل عدا الجديدة منها التي تبدأ من نقطة الانطلاق.

مشكلة أخرى واجهناها تتمثل في عادة البحرينيين في عدم إطلاق أسماء خاصة على خيولهم والاكتفاء بمناداتها منسوبة إلى السلالة أو النوع المنحدرة منه، لذلك من الطبيعي ان يوجد في السباق الواحد اثنان أو أكثر من الخيول التي تدعى مثلاً (صقلوبي) أو (كحيلان) ولا يميز بينها سوى اللون أو الرقم المعطى لها، لكن عند المناداة بأسماء الخيول المنحدرة من نفس الأصل والتابعة لنفس المالك اصررت ان يعطيها مالكها أسماء مختلفة.

وفي يوم السباق وقبل ساعات من بدايته يزدحم الشارع الممتد من المنامة إلى موقعه بالسيارات والشاحنات المليئة بالرجال والباصات، والدراجات الهوائية والمشاة والسيارات التي تحوي النساء المرتديات للعباءات السوداء والنقاب وهن ينظرن من خلال غطاء الوجه إلى الجماهير الغفيرة.

في بعض الأحيان يصل الشيخ قبل بدء السباق ويسير موكبه ببطء في الشارع ترافقه دراجات نارية تابعة للشرطة لأن رجال الشرطة من (الخيالة) الذين يتقدمونه عادة ما يكونون مشتركين في السباق، وعند وصوله أكون أنا مع المسؤولين الآخرين في استقباله عند البوابة، ويرتفع علم البحرين الاحمر والابيض فوق المقصورة الملكية وتعزف الشرطة النشيد الوطني الذي قام بتلحينه رئيس الفرقة الموسيقية في البحرية البريطانية العاملة بأحدى سفن أسطول شرق الانديز، وتشبه موسيقى النشيد مقطوعة "الحياة على موجة من أمواج المحيط" الشهيرة.

يتزاحم هواة التصوير من الاوروبيين والبحرينيين لإلتقاط الصور الفوتغرافية والسينمائية للشيخ سلمان المعروف بمعاملته اللطيفة لهم.

وبعد إستراحة قصيرة تبدأ الخيول المشتركة في الجولة الأولى من السباق في الظهور في الحقل العشبي الصغير، حيث يتم سرجها واستعراضها.

وبجانب كوني سكرتيراً للجنة المنظمة، فأنا أحد المشرفين في هذا الحقل حيث أقضي بعضاً من الوقت هناك، ثم اسرع إلى المكان الجالس به الشيخ وأراقب السباق ثم أنزل إلى خطوط المضمار لكي

أتأكد من إستعداد الخيول وفرسانها للجولة التالية، ونحرص عادة على بدء كل جولة في وقتها المحددة تماماً ودائماً كنا ننجح في خطتنا، وفي يوم السباق كنت أمشي لمسافات طويلة جداً تقدر بالاميال!!

ومع إمتداد الحواجز، وعلى طول المضمار بأقصى ما تستطيع العين رؤيته تشاهد خطاً (طابوراً) متواصلاً من الجمهور البحريني البالغ كثافته 5 رجال تتخلله سيارات النســاء المتــدثرات بالعبـــاءات السوداء اللواتي يرسلن خدمهم إلى محل بيع المرطبات أو لحفظ حيواناتهن الأليفة.

ويتجول بين الجمهور الصبية الحاملون لأوانـــيهم لبيـــع الســـجائر والحلويـــات، والمرطبـــات، والآيسكريم، والبيبسي كولا التي يقدر عدد الزجاجات المباعة منها بـــ 40.000 زجاجة يوميـــاً خـــلال فصل الصيف وهم ينادون بأعلى أصواتهم لترويجها.

وترتفع أبواق السيارات حينما يصل المتفرجون المتأخرون، وغالباً ما تحجب ضوضاء السيارات وصراخ الجمهور صوت الفرقة الموسيقية التي تهتم اهتماما أقل من العـــادة بالالحـــان المعزوفـــة لان رغبتها مركزة على الخيول التي تشجعها.

باختصار هناك سباق سنوي حقيقي وجو مهيأ لذلك في البحرين خلال أيام منافساته، وتجري ست جولات من السباق يشترك في كل واحدة منها ثمانية جياد، ومعظم الرجال المشتركين القائدين للخيـــول (الجوكيين) بحرينيون وفي أحيان قليلة يشترك بعض الاوروبيين، وفي اغلب المرات لا يخلو السباق من فارسة أو فارستين أوروبيتين، وكنت دائماً أشعر بالسرور عندما يصلن إلى نهاية السباق دون تعثر!!

لقد كان سباقاً نظيفاً نادراً ما تقع خلاله أية حوادث تستعدي تدخل المشرفين عليه، ولـــم توجـــه اثناءه إنذارات إلى الفرسان المشتركين أبداً باستثناء مرة واحدة فقط.

والمناسبة العظيمة في ذلك اليوم هي سباق البحرين أو "دربي البحرين" الذي يمتد لميل واحـــد، فبالاضافة إلى الجائزة المالية، تقدم علبة سجائر فضية اللون ومنقوشة بالكتابة إلى مالك الخيل الفائزة.

ويقوم الشيخ سلمان في نهاية السباق بتوزيع العلب بسخاء على الفائزين، وتحظى الخيول التـــي يشارك الشيخ بها في السباق بنصيب الأسد من الجوائز حيث انها من أفضل الجياد عدواً ونوعية.

الفصل الثالث عشر

حياتي تحت ظل الحاكم الجديد للبحرين استمرت بصورة تشبه سلفه الشيخ حمد. وفـــي يـــومي السبت والثلاثاء من كل اسبوع يأتي الشيخ سلمان إلى المكتب، وأذهب أنا لزيارتـــه مـــرة أو مـــرتين أسبوعياً.

لقد كانت أعمارنا متقاربة، ربما لا يفصل بيني وبينه سوى سنة واحدة على الأكثر، وهذا الشـــئ إتخذه بعض المناوئين لي ذريعة في السنوات التالية فاقترحوا على الشيخ بأن "مستشاره" ــ أي أنـــا ــ أصبح كبيراً في السن ولا يصلح للقيام بعمله!!

كان الشيخ سلمان أكثر نشاطاً من والده ولديه معرفة والمام أفضل بشؤون تنظيم الحكومة. وفي مظهره يشبه والده إلى حد كبير لكنه أقصر منه قليلا.

واحتفظت على جدران مكتبي بصورتين كبيرتين للشيخ حمد والشيخ سلمان، والزوار الـذين لا يعرفونهم جيداً لا يستطيعون التمييز بين الأول والثاني!!

نهاية الحرب العالمية الثانية لم تؤد إلى تغييرات واختلافات هامة بالنسبة للبحـرينيين. واسـتمر تقنين المواد الغذائية وتحديد أسعارها لعدة سنوات لاحقة، وتدريجياً تم تحرير بعض السلع مـن قائمـة المراقبة، وإحتفالاً بإنتهاء الحرب أقام الشيخ وليمة عشاء ضخمة على الطريقة البحرينيـة دعـا إلـى حضورها نحو 400 من الجنود والبحارة البريطانيين والأمريكيين والهنود والعراقيين، واستمتع معظـم المدعوين بحفلة العشاء رغم ان بعض أفراد الجيش البريطاني وجدوا انّه م العجيـب والمضـحك ان يتناول المدعوون وجبة الرز مع لحم الغنم بأصابع اليد بدلاً من استخدام الشوكة والسكينة... وفي حفلة رسمية أيضاً!! وعندما أوضحت لهم بأنها احدى التقاليد البحرينية المتبعة بـدأ علـيهم وكـأنهم غيـر مصدقين!!

في السنة الأخيرة للحرب العالمية الثانية نعمت البحرين بموسم جيد لصيد اللؤلؤ الذي ارتفعـت أسعاره في أسواق الهند بدرجة كبيرة وحلم الطوّاشون بانتعاش هذه التجارة مرة اخرى، وترك الكثيـر من الرجال الذين كانوا يعملون غواصين سابقاً، وظائفهم الجديدة التي لا تمت للغوص بصلة، وعـادوا لمهنتهم القديمة تحت اشراف نواخذة السفن.

لكن التفاؤل بازدهار هذه التجارة لم يكن في محله، فعام 1945 كان آخر موسم غـوص نـاجح مرت به البلاد، وفي السنوات التالية أخذت أعداد السفن المتجهة لمغاصات اللؤلؤ (الهيرات) تتنـاقص تدريجياً، وعزف العديد من الرجال عن الذهاب بحثاً عنه مفضلين الوظائف غير البحريـة المسـتقرة وذات الأجر الأحسن، كما لم تجذب هذه المهنة الشباب البحريني لكي يحلوا مكان آبائهم.

مع ازدياد ايرادات الدولة أصبح من الممكن دفع خطط التنمية المختلفة إلى الامام بعد توقفها طيلة فترة الحرب.

من هذه الخطط تزويد مدينة المنامة بأنابيب المياه وبناء مكاتب حكومية جديدة، وتحسين خدمات ومبنى المستشفى الذي استقبل خلال سنوات الحرب أكثر من 1300 جندي وضـابط تـابعين للجـيش والبحرية البريطانية كمرضى داخليين وضعوا في جناح خاص لهم.

برنامجي اليومي بعد الحرب اختلف قليلاً ففي فصل الصيف أنام فوق سطح المنزل حتّـى بعـد دخول المكيفات الهوائية إلى البحرين لأنني أكره الجلوس في غرفة جميع نوافـذها محكمـة الاغـلاق وجهاز المكيف يقرقر ويئز باستمرار في زاوية من زواياها رغم أني أعترف بأن المكيفـات الهوائيـة تجعل الغرف باردة ولو أنها برودة رطبة ذات نداوة.

وحساسيتي الخاصة هذه تغضب الموظفين الأوروبيين التابعين لي الذين يعتقـدون بأنـه نظـراً لكوني شخصاً لا أحب أجهزة المكيفات فأنني أقل تعاطفاً وتجاوباً مع طلباتهم الدائمة لتزويـد منـازلهم بأجهزة إضافية منها.

استيقظ كل صباح في الساعة السادسة، بعد أن يقوم من النوم كبير الخدم "موسى" الذي عمل معنا لمدة ثمان عشرة سنة متواصلة ليعد الشاي الصباحي لي.

وفي ساحة البيت يكون "بلال" الشرطي التابع لي الشديد السمرة بانتظاري مع الخيول.

وعقب إشعال سيكار هندي صغير (شروت) أدخن كمية كبيرة منه كل يوم أمتطي صهوة فرسي ذي اللون الكستنائي (البني المحمر) الذي أطلقت عليه إسم أوليندر ونبدأ سيرنا إلى قلعة الشرطة.

ويومياً نغير إتجاهنا، فأحيانا نسلك الشارع الرئيسي مروراً بكنيسة الارسالية الأمريكية ذات البرج المحتوي على ساعة كبيرة وعبر عدد من البيوت الأوروبية العادة المنظر والتي يقطن في كل واحد منها تقريباً شخص واحد فقط، أو نسلك طريق الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ومدرسة الرهبان ذات الطابع الايطالي المميز في العمارة، وهذا الشئ لا يبعث على الدهشة إذا عرفنا أن الذي بنى هذا الدير هو قسيس إيطالي أصبح مطراناً فيما بعد.

أحيانا أخرى نذهب إلى القلعة مروراً بمدرستين حكومتين ونشاهد التلاميذ الصغار يجولون حول مدرستهم حيث انهم يغادرون منازلهم حينما يخرج آباؤهم للعمل في وقت مبكر جداً قبل بدء اليوم الدراسي!!

وفي بعض المرات نأخذ الطريق المواجه للقلعة بجدرانها البيضاء المرتفعة ذات الشرفات وأبراجها الدائرية الأربعة الضخمة الموجودة في كل زاوية من زواياها وعبر ساحة استعراض الشرطة حيث يسير الجنود ويتدربون.

عندما كنت مجنداً بالجيش لم يكن يضجرني ويبعث الملك في نفسي شيء أكثر من تدريبات المشاة!! لذلك حاولت تنويع برنامج الشرطة البحرينية بأقصى قدر ممكن، لكنه من الصعب جعل هذه المهنة ممتعة أنها تسير على وتيرة واحدة.

ففي صباح كل أحد يقوم الشرطة بمسيرتهم الاسبوعية داخل العاصمة، وفي مرات عديدة طوال العام يتوجهون إلى القرى في استعراض وهم رافعين العلم حيث يخيمون كل يوم في مكان مختلف.

وحينما كان إبني جيمس (حمد) شاباً يافعاً، كنت أصطحبه كي نقضي ليلة بأحد مخيمات الشرطة.

وبهذه المناسبة أود أن أذكر أن هؤلاء الرجال على درجة كبيرة من الكفاءة في إستخدام الأسلحة الصغيرة، والكثير منهم بارعون جداً في التصويب والرماية، وعندما تأتي سفينة حربية إلى الميناء يجرون مباريات في الرماية مع رجال البحرية الملكية البريطانية ويفوزون عليهم دائماً!! وفي الوقت الذي نصل فيه إلى القلعة يكون الشارع مزدحماً بالسيارات والشاحنات (اللوريات) والباصات الكبيرة التابعة لبابكو المقلّة للعمال إلى مصنع التكرير أو إلى حقل النفط.

عند عودتي من القلعة، غالباً ما أسلك طريق الشارع الرئيسي إلى سوق المنامة حيث أشاهد أصحاب الدكاكين وهم يشرعون في فتح أبوابها لأنهم لا يستيقظون إلاّ في ساعة متأخرة من الصباح يومياً!!

ومروراً بالمدخل الواسع للسوق المحتوي على المكاتب الحكومية المسمى "باب البحرين" الـذي قمت شخصياً بهندسته وتصميمه في عام 1945، وعبر مبنى الجمارك وساحته التي يوجـد بمنتصـفها حديقة صغيرة، ثم إلى رصيف الميناء (فرضة المنامة).

و"الفرضة" مكان ساحر ملئ بالحيوية والضجيج وحيث يوجد دائماً شئ جديد يسـتحق التفـرج عليه، وغالباً ما تكون هناك مئات القوارب واللنشات راسية بالقرب من الرصيف ومربوطة بمحاذاته.

ويشاهد المرء عادة أجناسا مختلفة من البحارة القادمين من الموانئ الخليجية ومن بلدان بعيـدة. فهناك رجال قصيرو القامة ممتلئو الأجسام سمر اللون منحدرون من أقليم صور الواقع جنوب مسـقط الذين يرتدون الثياب الصفراء أو الحمراء اللون حيث يقومون بصباغتها في بلادهم، كما يوجد العمانيون القادمون من العاصمة مسقط بملامحهم الهزيلة وشعورهم الطويلة المشابهة للصقور، بالإضـافة إلـى الإيرانيين المرتدين القبعات والملابس الفضفاضة ذات الأكمام الطويلة مع الشال الصوفي الواسع الملتف حول خصورهم.

كذلك نجد الهنود القادمين من مدينة مالابار الساحلة داخل سفنهم البحرية الكبيرة التي عادة مـا تكون أكبر السفن المتواجدة بالميناء.

مؤخرة السفينة الهندية تكون دائماً منحوتة باتقان وبها صفوف من النوافـذ المزينـة بمصـاريع مطلية بألوان فاتحة.

وفي أغلب الأوقات يجلب البحارة الهنود معهم ببغاوات صغيرة خضراء يضعونها في أقفـاص لبيعها على البحرينيين.

لكن مع مرور الايام تهريب الببغاوات من أقفاصها وتتوالد في البحـرين. وتتحـرك القـوارب الطويلة المليئة بالرجال الذين ينشدون الاغاني والاهازيج أثناء تجديفهم بين لاسفن الشـراعية ومقدمـة الرصيف، ويسلي العمال أنفسهم بالغناء المرتفع الصوت حينما يحملون على أكتافهم الأكياس الثقيلة من وإلى السفن أثناء شحن أو تفريغ البضائع المختلفة والكثيرة الأنواع.

وأحياناً يتحتم عليّ أن أتنقل وسط قطعان الأغنام والأبقار النحيفة المجلوبة من إيران عن طريق السفن الشراعية والتي يقودها أولاد صغار يحثونها على السير بسرعة رغم الانهاك الواضح عليها من جراء السفر المرهق، لا يقطع سيرها سوى المساومات العلنية بين أصحابها وبين القصابين البحرينيين المتعاونين مع بعضهم البعض.

جميع اللحوم الموجودة في البحرين مستوردة بسبب عدم توفر المراعي الكافية لتغذية الماشية في البلاد. أحد التجار البحرينيين افتتح مشروع برادات "سوبر ماركت"، وكان غالبية الرجـال المشـرفين عليه أوروبيين، وفي بداية الأمر لم يقبل المواطنون على شراء اللحوم من هذه البرادات.

ونظراً لنجاح المشروع افتتحت محلات مشابهة عديدة في العاصمة والمدن الرئيسية.

وعلى رصيف الفرضة تتجمع كميات هائلة من الزجاجات الكبيرة الحجم ذات اللـون الأخضـر والمليئة "بماء الورد"، ورزم السجاد الفارسي النفيس النوعية، ومعدات المرافق الصـحية المعروضـة

بصورة وقحة، والآلات الثقيلة المستوردة من بريطانيا، والأقمشة الحريرية من الصين واليابان، ولا ننسى الأعداد الكبيرة من السيارات الامريكية الضخمة والبراقة.

البحرين هي محطة ترانزيت للمملكة العربية السعودية، وتجارتها تعتمد إلى درجة كبيرة على مرور البضائع بين الدولتين، لذلك من الضروري لازدهار البحرين ان تكون العلاقات بينها وبين المملكة طيبة باستمرار.

أيام الاربعاء أذهب لأتفقد السوق المفتوحة التي تعرض كل أُسبوع بالمنامة وتسمى "سوق الأربعاء" حيث يأتي القرويون ومعهم منتجاتهم لبيعها.

ويستطيع الفرد ان يشتري منها الأواني الفخارية المصنوعة في قرية "عالي"، والدجاج الحي، والأرانب، والحمام، والملابس المستعملة المختلفة الأنواع، والسلع المستخدمة سابقاً، والسلال والحصر المصنوعة من سعف النخيل، والبخور المعمول في مدينة الرفاع، وأقمشة النسيج المجاور لها، وأحياناً نجد الحمير والابقار رغم انها تباع في سوق مفتوح آخر يعقد كل يوم خميس ويعرف بهذا الاسم "سوق الخميس" قبالة المسجد الأثري ذي المنارتين المعروف بإسم "سوق الخميس" قبالة المسجد الأثري ذي المنارتين المعروف بإسم "مسجد الخميس" وهو أقدم بناء إسلامي في البحرين ويقع على الشارع الواصل بين المنامة وعوالي.

هذه الأسواق الاسبوعية تذكرني بسوق كلادونيا وسوق شارع بودتو بيلو في لندن... مع وجود اختلاف بسيط هو أن الباعة هنا بحرينيون وليسوا يهوداً!!

عدد كبير من الباعة هن من النساء وجميعهن يعرفنني جيداً، وعندما أتوقف في السوق فوق فرسي للحظات صغيرة ترحب بي العجائز المتجعدات الوجه ذات اللون الأسمر ويكثرن من "السلامات" والاستفسارات عن أم حمد ألا وهي زوجتي العزيزة مارجوري.

خرج الرجل من الأرض... وقع بلجريف في القبر!!

لسنوات طويلة كنت أهوى جمع الأواني والتحف الصينية الشرقية القديمة حيث إشتريها من محلات البضائع المستعملة في السوق بين حين وآخر ويمكنني الحصول عليها بأسعار معقولة بعد مساومات مطولة، واستمر هذا الوضع إلى ان بدأ الامريكيون في الاهتمام بنفس الشئ وأفسدوا السوق.

لقد وصلت هذه البضائع إلى الخليج قبل عشرات السنين عندما كانت السفن الشراعية الصينية تسير في رحلات بحرية طويلة من بلادها إلى البصرة.

ذات صباح، بينما كنت ماراً عبر السوق على ظهر فرسي، صاحت إمرأة عجوز بأعلى صوتها وهي تناديني لتبلغني بأن لديها قطعة بديعة من التحف الصينية الأصلية لعلمها برغبتي في شراء مثل ذلك النوع.

أوقفت الفرس، ونزلت عنه كي اعاين التحفة الموعودة، وبعد توغل المرأة بين أكــوام القمامــة المحيط بها عدد من الدجاجات المزعجة المعروضة للبيع واثناء طريقها استخرجت "الكنز" وأمسكته من المقبض ومدت يدها فوق رؤوس الآخرين لتعطيني إياه!

لقد كان عبارة عن آنية جميلة من أواني غرف النوم يعود تاريخها إلــى العصــر الفيكتــوري المتأخر (أواخر القرن التاسع عشر) ومزينة بذوق رفيع باللونين الأزرق والأبيض.

لذا فانني انصح الباحثين الذين يجمعون معلومات عن عصر الملكة الانجليزية فيكتوريا أن يأتوا إلى البحرين حيث يوجد عدد كبير من هذه الأوعية والتحف في أسواقها.

أسواق الخضار والفواكه قديماً كانت تعج بالحيوية والألوان الجذابة لكن أصحاب "الفرشات" أي محلات البيع المكشوفة التي لا يفصل بينها جدران، دائماً يتذمرون إذ يمطرني المستأجرون بالشــكاوي والطلبات كلما مررت هناك.

ففي فصل الصيف يشتكي الباعة من حرارتها الشديدة، وفي الشتاء مــن برودتهــا القاســية، أو يتظلمون من الانارة القليلة عن اللزوم، وأحياناً يعربون عن حاجتهم لاضاءة إضافية!!

وفي مرات عديدة يحاولون إقناعي بالوقوف إلى جانبهم في الحرب اللانهائية المشتعلة بينهم وبين المسؤولين في البلدية الذين تقع عليهم مهمة المحافظة على نظافة المكان.

هؤلاء المسؤولون من جهة أخرى تمتلئ أدارج مكاتبهم بشكاوي الناس من باعــة الخضــروات "الخضارين" وبالتأكيد لم تكن تلك الأسواق أبداً نظيفة في يوم ما.

خلال أشهر الصيف تعوّد رجال الشرطة ان يذهبوا مرة واحدة كل أُسبوع بواســطة الشــاحنات "اللوريات" إلى عين عذاري لغرض السباحة.

وهذه العين تعتبر واحدة من أكبر وأعمق ينابيع المياه الحلوة في البحرين وتقع على بعد ميــل أو ميلين من مدينة المنامة، وكنت أتوجه إليها باستمرار لكي ألتقي بهم.

وعذاري تعتبر معلماً سياحياً من معالم البحرين يقصدها جميع زوار البلاد، ويحرص المواطنون على أخذ ضيوفهم القادمين من الخارج إلى هناك للتفرج ومشاهدة جمالها.

في عام 1926 كانت هذه العين مكاناً مليئاً بالاوساخ والفوضى بسبب إهمال تنســيقها وإنتشــار جداول المياه "السيبان" الموحلة من حولها حيث يجلب الفلاحون حميرهم لغسلها.

وتفقد العين الكثير من الماء الذي يتسرب ويهرب عبر جوانبها. وفي ذلك العام امرت بإصــلاح بركة العين للحصول على امداد أفضل من المياه بهدف ري البساتين، فبنينا فيها درجات "عتبات" مــن الاسمنت ورصيفاً واسعاً على حافة مستوى الماء لوقوف السباحين عليه، كما أعدت بناء المسجد الآيل للسقوط المطل على العين.

كذلك أنشأت سرداقاً صغيراً مع سلم موصل إلى أعلاه لكي يتمكن هواة السباحة من القفز فــوق اللوح الخشبي الطويل المرتفع جداً عن العين وأيضاً أمرت بفتح مقهى له سطح مفتوح بالقرب منهــا، وحول البركة زرعنا أشجار الأزهار والشجيرات واقمت حديقة على جانب من جوانبها ملأتها بنباتــات

الدفلى العطرية والبوغينفيلة الحمراء والقرمزية الألوان، امـــا نبـــات البوغينفيلـــة العـــادي ذو اللـــون الارجواني فتصعب زراعته في البحرين.

وخلف الحديقة عبر مجرى المياه يوجد بستان ضخم رائع به غابة من النخيل وتشاهد فيه جذوع النخلات العالية الرمادية اللون تقف شامخة كالاعمدة فوق أعماق أكوام الاشجار الاخرى، وعندما تشرق الشمس يتلون ماء العين بالزرقة اللامعة ويصبح صافياً كالزجاج الشفاف، هذا الماء يندفع من الينبـــوع بقوة كبيرة لدرجة ان السباح لا يمكنه الوصول إليه.

وتوجد داخل عين عذاري أسماك كبيرة الحجم تشبه سمك الشبوط النهـــري تســـبح بـــبطء فـــي أرجائها.

ولا أحد يضايق هذه الأسماك أو يحاول إصطيادها لان البحرينيين لا يأكلون السمك الذي يعيش في الماء الحلو ويفضلون أكل أسماك البحر التي يختارون من أنواعها الكثيرة ما يشاءون.

قبل سنوات عديدة جاءت إلى الخليج بعثة علمية دنمركية بناء على طلب الحكومة الإيرانية لبحث إمكانية تعليب السمك، ووجدت أن هناك ما بين 300 إلى 400 نوع مختلف من الأسماك بمياه الخليج!!

وإلى الجهة الجنوبية من موقع العين تمتد مساحة واسعة من الأرض الطينية المنخفضة المليئـــة بالمستنقعات التي لا يغطيها ماء البحر القادم خلال رافد صغير إلاّ في حالات المد القوي جداً.

وفي فصل الصيف غالباً ما يكون الجو ملبداً بالضباب وقت الصباح وتشاهد المنظـــر الشـــاحب لاشجار النخيل الرصاصة المنبثقة من الغشاوة الرمادية التي يسببها الضباب والسماء الصفراء الباهتـــة التي تحاول الشمس النفاذ خلالها فيما يشبه الصورة اليابانية الضعيفة الطباعة!!

يستمتع أفراد الشرطة بقضاء صباح بهيج في عذاري فيجرون ســـباقات فـــي الســـباحة بيـــنهم ويحاولون ممارسة رياضة كرة الماء "البولو" رغم ان شكل العين المستدير لا يصلح لمثل هذه اللعبـــة، اما أولئك الشرطة الذين عملوا في السابق كغواصين فانهم يتنافسون لمعرفة من منهم يستطيع ان يبقـــى أطول مدة تحت سطح الماء.

وأعتقد ان رقمهم القياسي في الغطس كان دقيقتين وربع الدقيقة أي 135 ثانية متواصلة يقضونها دون استنشاق الهواء.

أحياناً يكون لدينا بعض الرجال حديثي التوظف في سلك الشرطة ممـــن لا يجيـــدون الســـباحة، فيجري تعليمهم أُصولها على يد زملائهم القدماء فيتقنون مهاراتها في وقت قصير جداً.

وعذاري لم تكن مكاناً آمناً للسباحة إلاّ لمن له القدرة على ذلك.

فهناك خرافة تقول ان هذه العين لها حق على الناس، وهذا الحق هو ان يكون لها ضحية واحدة كل عام، وفي الحقيقة فأن طوال سنوات إقامتي بالبحرين (31 سنة) كنت اسمع عن غرق شخص واحد في كل صيف تقريباً منذ عام 1926 وحتى 1957 .

قبل ان تصبح عذاري منتجعاً عاماً وأنيقاً كنت أذهب إليها شخصياً بعد تناول العشاء للاستحمام ولا أرى سوى قلة قليلة جداً من الناس، لكنها بعد ذلك صارت مزدحمة جداً بهواة السباحة الذين يقضون ساعات ممتعة في مائها.

وفي فترات العصر والليل تحيط بالعين عشرات السيارات التي تتوقف بمحاذاة ح افتها ويدير أصحابها أجهزة الراديو الموجودة بها على آخر درجة من ارتفاع الصوت، كما كانت جلسات الشباب المليئة بالمزاح والمشاكسة تستمر حتّى الفجر في أحيان كثيرة.

فيما بعد وجدت مكاناً جديداً يصلح للسباحة وهو حديقة تابعة للشيخ حمد تقع على بعد عشر دقائق من منزلي.

فلقد كان هناك خزان كبير للماء مع حديقة تحتوي على مقصورة، وهذا المحل طبعاً مُلك خاص وليس ملكاً عاماً، فلا يسمح لاحد غيري بالدخول واستخدام العين إلاّ إذا كان برفقتي، وقد دأبت على السباحة هنا في المساء خلال أشهر القيظ، حيث امكث وقتا لا بأس به في ماء البركة البارد، ثم أجلس على أحد أطرافها وآكل الرطب وأثرثر مع رجل بحريني عجوز يقوم على رعاية الحديقة!!

أعود صباح كل يوم لتناول طعام الفطور في حوالي الساعة الثامنة، لكن في أحد الايام لم أرجع للبيت حتّى نهايته.

كنت أقود فرسي على الطريق المحاذي لحافة المقبرة الواقعة جنوب المنامة عندما فوجئت برجل يخرج من الأرض بصورة مباغتة ويقف مباشرة امام الفرس "اوليندر" التي ارتاعت وجفلت وتزحلقت أرجلها ساقطة على الأرض ووقعت أنا تحتها.

ثم نهضت الفرس وجرت فزعة بعيدا عني، أما الرجل الذي سبب المشكلة فقد فر هارباً. لقد كان هذا الرجل يحفر حفرة من المحتمل ان تكون قبراً. أما أنا فقد جلست بسرعة وناديت "بلالاً" الشرطي التابع لي الذي كان يركب حصانه ورائي وأمرته بأن يتبع الفرس ويمسك بها قبل ان تصل إلى شارع المدينة الرئيسي المزدحم بالسيارات وتصاب بمكروه!

وفعلاً ذهب بلال ليلحق "بأوليندر" لكنها كانت أسرع منه وعلى ثقة من الوصول إلى البيت قبله.

ثم حاولت النهوض لكنني إكتشفت ان رجلي لا تساعدني على ذلك. وكان هناك شارع جانبي تسير عليه السيارات ويبعد حوالي 200 ياردة عن المقبرة فأخذت الّوح للسيارات العابرة على ذلك الشارع من بعيد وأنا جالس على الأرض على أمل ان يلمحني أحد السائقين ويأتي لنجدتي.

لكن لسوء الحظ كان جميع أصحاب السيارات يردون على التلويح بتلويح آخر اعتقاداً منهم بأني ابادلهم التحية!!

واعتقد أنهم ظنوا ان المستشار قد طور شكلاً جديداً من الاطوار الغريبة والشاذة يتضمن الجلوس في المقبرة والتلويح إلى السيارات المارة عبر الشارع!!

بعد مرور ساعات طويلة أو هكذا كان يبدو لي، توقف سائق شاحنة "لوري" وجاء للاستفسار عما إذا كنت أريد شيئاً، ولما عرف بحالتي قام مشكوراً جداً بمساعدتي ونقلي إلى الشاحنة وأوصلني إلـــى المستشفى حيث تبين ان رسغ قدمي مكسور.

هذه الإصابة جعلتني غير قادر على المشي لأسابيع عديدة ومعتكفاً في البيت طوال هذه المـــدة، وكل يوم كنت أصبح أكثر سخطاً وتبرماً، كما صرت أكثر هيجاناً من الناحيتين الجسدية والعصبية!!

ونَمَت عندي خلال تلك الأسابيع حرارة "بركلي" داخل الجبس المبني فوق رجلي وعلى الرغم من ذلك صدق المثل القائل مصائب قوم عند قوم فوائد، فلما سمع الشيخ بالتصرف النبيـــل للســـائق الـــذي أنقذني، قام باستدعائه وكافأه مكافأة مجزية!!

بعد ان أتناول إفطاري أغيرملابسي وأتوجه إلى مكتبي لابدأ يوماً حافلا بالعمل. وفي الايام التي لا يأتي فيها الشيخ إلى المكتب أمضي غالبية الوقت في مقابلة الناس الذين يأتون لرؤيتي.

والبحرينيون لهم عادة طيبة عند لقائي وهي الدخول في الموضوع مباشرة دون إضاعة الوقـــت في الكلام المطول على الرغم من ان ذلك الشئ يناقش ما اعتادوا عليه في حياتهم اليومية، لكن بعـــض الاوروبيين يميلون إلى الثرثرة والكلام الفارغ بدرجة زائدة عن المقبول اعتقاداً منهم بأنه ليس لدي أي عمل أقوم به سوى الجلوس معهم ومبادلتهم أطراف الحديث.

كنت أحاول تلبية طلب كل شخص له سبب وجيه يستدعيه المجئ إلى مكتبي رغبة فـــي لقـــائي، لكن ذلك لم يكن ممكناً في جميع الاحوال، وكانت المواضيع لاتي يطرحها الناس للمناقشة متنوعة جداً.

في أغلب الاحيان، كان يستوقفني بعض المواطنين في السوق ويسلمون علي ثم يشتكون من عدم السماح لهم برؤيتي عندما يأتون إلى المكتب دون موعد مسبق حين يتم إبلاغهم بأنني مشغول!!

الناس العاديون لا يتصلون هاتفياً بسكرتيري طلباً لتحديد موعد لهم لمقابلتي، بل يـــأتون فجـــأة ويجلسون أسفل نافذة الغرفة ويقضون ساعات في الكلام المستمر حول الموضوع الذين يريدون مناقشته معي، وعندما يلاحظون عدم وجود أحد معي في الغرفة ينتهزون الفرصة ويندفعون إلى المكتـــب مـــن الباب الخارجي المطل على الحديقة!!

لم احاول في حياتي قط ان أضع شرطياً على الباب لمنع الناس من الدخول، ونادراً ما أصعد إلى الطابق العلوي.

بعد تناول الغداء اشتغل في الحديقة، وعندما كانت مارجوري في البحـــرين كنـــا نقـــوم بجولـــة بالسيارة عصراً نهدف منها متابعة عمل يجري تنفيذه واحياناً نذهب لزيارة الاصدقاء في "عوالي" مدينة النفط الواقعة في منتصف الجزيرة على بعد 12 ميلاً تقريباً من المنامة.

وفي السنوات الأخيرة اعتادت زوجتي الذهاب إلى بريطانيا لمدة شهر أو شهرين كل صيف.

عوالي انبثقت في الصحراء بتلويحة من عصا ساحر!!

العشاء يمنعني من الهروب إلى المكتب

في اعتقادي ان "عوالي" هي نموذج للمدن الكثيرة التابعة لركات النفط في بلدان العالم الأخرى، لكنها دائماً تبدو في نظري كمكان مدهش مثل المدينة التي انبثقت فجأة في الصحراء بتلويحة عصا ساحر.

قبل ان يكتمل تشييد اول مبنى بها في بداية الثلاثينات كنت أُشاهد الغزلان بين صخورها ووديانها واصطدت العديد من الأرانب البرية في صحرائها بواسطة كلابي "السلوقية" حيث توجد الان شوارع جديدة على جوانبها بيوت وصالات سينما ومكتبات عامة ومدارس ومكاتب على النمط الاوروبي.

كلمة عوالي تعني الاماكن المرتفعة، ويقصد بها البيوت الموجودة في الجزء القديم من المدينة والتي تقع على أرض مرتفعة وهي مبنية من مواء بناء محلية كالحجارة والجبس ولها بعض الخصوصية التي تتميز بها، فجميعها محاطة بحدائق جميلة تم الاهتمام بها كثيراً وتكثر فيها الاشجار النصف دائرية والشجيرات الخضراء التي تتلألأ بالأنوار الملونة في المناسبات الانجليزية السنوية في فصل الربيع، شوارعها المتعرجة مظللة بالاشجار الطويلة، وشجر الطرفاء النحيل الاغصان ونبات المسكيت الشوكي، وأشجار الفاصوليا، التي أدخلتها للبحرين قبل سنوات من ذلك التاريخ، عندما احضرت معي كيسا مليئاً بالبذور من الهند.

اما الآن فتوجد أشجار كثيرة جداً من هذه الأنواع في البلاد وقد توسعت مدينة عوالي، فعدد سكانها الآن يزيد عن 1600 شخص أوروبي من الرجال والنساء والاطفال وامتدت المدينة أسفل الأرض المرتفعة لتغطي مساحة شاسعة تقطعها شوارع عريضة مستقيمة وعلى جوانبها البيوت الانجليزية الطابع الجاهزة الاجزاء Bungalows ذات الألوان الفاتحة والاحجام المتساوية والاشكال المتشابهة، ونظراً للتشابه الشديد لشوارع عوالي كنت اغلب الأحيان أضلّ الطريق اثناء ذهابي لزيارة منزل صديق فيها، فعلى الرغم من وجود إسم لكل شارع فأن هذه الأسماء لا تستخدم أبداً.

بيوت وحياة الأفراد القاطنين فيها مكشوفة تماماً أمام أعين المارة في تلك السنوات بسبب عدم إكتمال نمو الأشجار والحدائق. والجزء الجديد من المدينة يطلق عليه المنطقة المنخفضة من قبل سكان الحي القديم (المرتفع) ويحيط بعوالي سياج من الأسلاك الحديدية الصلبة مع وجود مداخل لها عن طريق ثلاث بوابات عليها حراس، وهذا الأمر ضروري لعدة أسباب مختلفة، لكن رغم عدم فرض قيود على دخول وخروج الناس الذين يسكنون بداخلها أو على زوارهم، إلاّ ان بعض القاطنين فيها يتصفون بالعبوس وحب الانغلاق.

بيوت المدينة مريحة وتوفر شركة النفط (بابكو) اثاثاً جيداً لكن هناك تشابهاً قوياً لاجزائها وديكوراتها الداخلية، وهو الشئ الذي يبعث الممل في النفس. فجميع المنازل لها نفس الاثاث وكثير منها

يحوي نفس الستائر الامريكية الطراز وقد تعودت على مشاهدة المناظر المتشابهة المعلقة على جـــدران جميع المنازل.

هذه المناظر هي طبعات ملونة للوحة اسمها "مبنى اسباني قديم في كليفورنيا" واكتشفت ان ذلـــك يعود إلى أن الشركة التي انتجت معدات صناعة النفط بدأت ترسل لي في عيد الكريسماس من كل عام روزنامة وكتّيب صغير يحتوي على كلمات وجدانية واقتباسات من اشعار شهيرة وصورة للوحة "مبنى إسباني قديم في كليفورنيا" الآنفة الذكر.

الصورة جذابة جداً لكن مع مرور الوقت كرهتها بسبب تكرار رؤيتها على معظم جدران المنازل ولذلك لم أضعها في بيتي.

جميع منازل ومكاتب عوالي مكيفة هوائياً، والبيوت الجديدة منها ذات اسقف منخفضة وغرفهـــا تعتبر صغيرة جداً عند مقارنتها ببيوت مدينة المنامة المبنية من الحجارة، لكن هـــذا الشـــئ ضــــروري توفره فيها لتسهيل عملية التكييف.

وعندما يجتمع ثلاثون شخصاً ويدخنون السجائر والسيجار بحفلة كوكتيل في منزل صغير مكيّف فان الجو يصبح خانقاً. وفي فصل الشتاء تم تدفئة البيوت بنفس العملية.

لا أكون مبالغاً إذا قلت ان بعض سكان عوالي لا يغادرون منازلهم أبداً طوال أشـــهر الصـــيف الملتهبة. فقلما تشاهد أحدهم في الخارج لانهم نادراً جداً ما تطأ قدمهم في بقعة غير مكاتبهم ومنـــازلهم الباردة التكييف وذلك بالرغم من ان (بابكو) توفر لهم تسهيلات مختلفة لممارسة أغلب أنواع الرياضـــة كالتنس، كرة القدم، السباحة، سباق القوارب، الجولف وحتى الرماية.

معظم الموظفين العاديين في عوالي لا يحتفظون بخدم في منازلهم، لكن مطابخهم حديثـــة جـــداً وتحتوي على أفران تعمل على الغاز، وأجهزة كهربائية وأدوات موفرة للجهد والوقت.

التسوق سهل في هذه المدينة فمخزن الشركة ملئ بكل المواد الضرورية وهـــو يشـــبه الســـوبر ماركت الذاتي الخدمة في بريطانيا، مع تقارب كبير في نوعية الزبائن.

والمخزن هو المكان اليومي الذي تلتقي فيه ربات البيوت كما أصبح يطلق علـــيهن الآن، ومنـــه تنطلق الشائعات والثرثرة إلى كل زاوية من زوايا عوالي وأحياناً تصل إلى مدينة المنامة.

غالبية موظفي بابكو الاوروبيين بريطانيون مع نسبة كبيرة من الاسكوتلنديين وأشـــخاص مـــن شمال انجلترا، لكن معظم المراكز الرئيسية فيها يشغلها أمريكيون.

عموماً فان بابكو في آخر الأمر هي شركة أمريكية بالرغم من أنها مسجلة في كندا!! ان طريقة الحياة ومجرياتها اليومية في عوالي مختلفة تماماً عنها في العاصمة حيث تلعب الشؤون المحليـــة دوراً هاماً في الحياة والعمل.

الكثير من الناس ممن يعيشون في عوالي ليست لديهم إلاّ فكرة سطحية وغير واضحة عن كيفية ادارة هذه الدولة، فإذا سألت معظمهم عن هذا الموضوع فانهم يجيبون باعتقادهم ان البحرين مســـتعمرة بريطانية أو محمية تابعة لها.

اتصالاتهم بالموظفين البحرينيين قليلة جداً عدا علاقات العمل التي تربطهم مع العمـــال الــذين يشتغلون معهم، والقليل جداً منهم يستطيع ان يتكلم العربية أو حتّى بعض مفرداتها.

حياتهم مرتبطة بالصفارة التي تنادي للعمل بالشركة يومياً، وساعات عملهم تختلف عن ســاعات اولئك الذين يعملون في المنامة، فهم يتناولون غذاءهم في الساعة الحادية عشــرة والنصــف صــباحاً وعشاءهم في السادسة مساء ثم يذهبون إلى السينما أو يستمعون إلـــى الراديـــو أو يشـــاهدون بـــرامج التلفزيون التي تبثها محطة ارامكو والقوة الجوية الامريكية من مدينـــة الظهـــران بالمملكـــة العربيـــة السعودية، والتي يمكن استقبالها بوضوح في البحرين يومياً، أو قد يمارسون لعبة السهم (الـــدارت) أو البلياردو بنادي بابكو وأحياناً يشتركون في الانشطة الداخلية العديدة كجمعية هواة المسرح التي تعرض عدداً من المسرحيات كل سنة. وفي الحقيقة تعتبر الحياة في عوالي مشابهة جداً للحياة في إحدى المدن البريطانية الجديدة.

تغرب الشمس في فصل الشتاء حوالي الساعة الخامسة مساء من كل يوم، وإذا صادف ان كنت مع زوجتي مارجوري خارج البيت فإننا نعود إليه قرابة ذلك الوقت لنتناول الشاي ونجلس بالقرب من نار المدفئة في غرفة الجلوس.

قد تبدو فكرة شرب الشاب وأكل الكعك الساخن أمام النار في الخليج أمراً غير مألوف بالنســبة للذين لم يزوروا المنطقة أبداً خلال هذا الفصل!

بعد ذلك اصعد إلى مكتبي الواقع في الطابق العلوي للعمل. اما في فصل الصيف فانني غالباً ما أتجول على ظهر فرسي عصراً بصحبة أحد اصدقائي ونقضي أوقاتاً ممتعة في القرى وعلى الســاحل حيث يمكننا السير فوق رمال البحر الرطبة بعد انحسار المد عنها لمسافة بعيدة نصل إلى قلعة البرتغال القديمة (قلعة البحرين حالياً) أو قد نسلك دروبا ضيقة لا تربطها إلاّ جسور قليلة بقنوات الـــري التـــي تكون في بعض الاحيان خطرة، وأحيانا نجتاز بساتين النخيل أو نعبر المساحة المفتوحة المقابلة لحديقة التجارب الحكومية في البديع حيث اعتدنا على أكل الكثير من البطيخ قبل عودتنا!!

اغلب الاحيان عندما أعود إلى البيت أجد أشخاصاً بانتظاري، قد يكون احدهم ضابط شرطة بيده تقرير حول بعض المشاكل التي وقعت في المدينة أو ربما يكون التقرير عن بحار أوروبي خرج مـــن سفينته وأثار الفوضى والشغب في السوق، أو قد أجد مبعوثاً من الشيخ مع رسالة هامة يرغب سموه في ان أراها قبل الرد عليها، اود دائماً أن أعود إلى مكتبي (المنزلي) بعد العشاء لأن الليـــل هـــو الوقـــت الوحيد الذي استطيع العمل فيه بدون إزعاج، لكن في فصل الشتاء يصبح هذا الأمر شبه مستحيل.

ففي كل ليلة اما ان نتعشى في الخارج أو يكون عندما ضيوف ندعوهم للعشاء داخل المنـــزل أو خارجه، الأمر الذي يجعل من الصعب علي أن "أهرب" إلى المكتب.

حفلات الشرب كانت تتكرر باستمرار خلال أشهر الشتاء. ورغم احساسي بأن معظـــم النـــاس يستمتعون بهذه الحفلات إلاّ أنني لم اشرب أبداً أكثر من كأس واحدة من الشيري (خمرة اسبانية الأصل)

في كل حفلة، وفي رأي ان هذه الحفلات هي شكل ممل من إشكال التسلية!! إنني لا أتنـــاول أبـــداً أي شراب غير الشيري أو النبيذ وهي حقيقة معروفة جيداً لدى معظم اصدقائي.

في إحدى المرات كنا في ضيافة عائلة أمريكية في عوالي ممن لم التق بها من قبل وجاء الخادم الذي يعرفني سابقا واحضر صينية بها كأس واحدة فقط من الشيري وقدمها لي دون أن يســـألني عمـــا أرغب في شربه.

لقد كان موقفاً محرجاً جداً بالنسبة لي. وفي مناسبة أخرى كنا في الولايات المتحدة نتعشى فـــي مطعم برفقة بعض الشخصيات التي نقابلها لاول مرة رغم انها تعرف كل شئ عنا! !

وقبل العشاء جاء النادل وسأل المضيف كل واحد عما يود شرابه، فقلت له: شيري، من فضلك".

اما الآخرون فقد طلبوا (ويسكي) اسكتلندي. وبعد دقائق سمعنا حديثاً هامساً بين مضيفنا والنادل وجُلبت زجاجة من الشيري إلى المائدة وصب في كأس مضيفنا قليلاً منها مما جعله مســـتغرباً تمامـــا وأثار هذا التصرف دهشتي.

ثم ملأ كأسي ووضعت الزجاجة بجانبي. وعندما لاحظ المضيف إنني أتناول هذا الشراب بـــبطء شديد صار يلح علي بأخذ المزيد، وان علي ان أشربها بالكامل، ولما حاولت الاعتراض قال لي: هـــذا هو نبيذ الشيري ولقد سمعت انك لا تتناول في البحرين شراباً سواه ونتوقع منـــك ان تكمـــل مـــا فـــي الزجاجة، فكل شخص يستطيع ان يشرب زجاجة كاملة من النبيذ. حاولت جهدي لكننـــي طـــوال تلـــك الامسية لم أتمكن إلاّ من احتساء نصف الزجاجة فقط!!

في الليالي ذات الطقس الدافئ نتعشى أنا وزوجتي في مساحة مكشوفة متفرعة من شرفة المنزل المطلة على الحديقة وهي مكان واسع يكفي للرقص فيه.

وخلال الليل يستطيع المرء ان يشاهد وميض القمر من خلال الأشجار فيما يشبه المسار الفضي الطويل على البحر الهادئ المحاذي للحديقة. وتتدلى أغصان شجرة كبيرة تنمو عليها أزهار الياســـمين فوق هذه المساحة وجذع الشجرة ارتفع عالياً إلى الشرفة عبر فتحة في السطح وهي واحدة من اولـــى الشجرات التي زرعتها في البحرين. فعندما بنيتُ الشرفة كنت حريصاً على تجنب قطعها.

وفي كل مساء عندما نجلس لتناول الطعام يشكّل اللون الفضي والكأس والمزهرية الكبيرة علـــى الطاولة المستديرة لوحة عصرية جداً. ابهج اشكال الاسترخاء بعد يوم مضنٍ وحافـــل بالاعمـــال هـــو استضافة اثنين أو ثلاثة من اصدقائنا للعشاء معهم في الشرفة حيث تصدق كلمات الشاعر الانجليـــزي الشهير لونجفلو:

"ان الهموم التي نعاني منها طوال اليوم
ستطوي خيامها كما يطوي العرب خيامهم
وتنزاح بهدوء بعيداً عنا".

الفصل الرابع عشر

في عام 1945 أخذت إجازتي السنوية في الخريف وسافرت إلى بلادي حيث بقيت حتّى شهر يناير من العام التالي، وكانت تلك هي المرة الثانية فقط خلال أكثر من ثلاثين سنة التي أشهد فيها شتاء بريطانيا، لكنني لم أشعر ببرودة الطقس كما يشعر بها السكان هناك.

وهذه الفكرة تؤيد النظرية القائلة للحياة في بلاد باردة. وعند عودتي رحب بي الاصدقاء البحرينيون الذين تعودوا على التعليقات اللاذعة وراحوا يتندرون على نقص وزني، أما الشيخ سلمان فقد قال: "لقد كانت لديك كرش كبيرة قبل أن تذهب إلى بريطانيا والآن أصبح جسمك معتدلاً".

بعد رؤيتي لبريطانيا عن قرب تبين لي ان البحرين لم تعان من ويلات الحرب إلاّ القليل مقارنة بهذه البلد. فالتقنين الجزئي لبعض السلع الضرورية ونقص أنواع معينة من البضائع المستوردة كان أمراً مزعجاً لنا، لكن متاجر السوق ازدحمت بالبضائع التي لا يمكن الحصول عليها في لندن وأصبح كل عمل تجاري مزدهراً، وحتى ذلك العام كانت البحرين هادئة رغم إدراكي بانبثاق شعور جديد من الوعي السياسي.

احدى علامات هذا الوعي هو الدور الهام الذي لعبته الاندية البحرينية في حياة الشباب المتعلم. فقد اعطى الشيخ سلمان الترخيص لافتتاح الأندية وقدّم لها المساعدات والهدايا المادية لتمكين الشباب من تشييد مبان لمقرّاتها لكنها للأسف أصبحت أماكن لتجمع الفئة المثقفة ومراكز سياسية لها مع انّه من المفترض فيها ألا تمارس أي نشاط سياسي حسب قوانين قيامها.

بالاضافة إلى الأندية البحرينية كانت توجد في المنامة عدة أندية هندية ونادي الألعاب (كيمخانة).

ومنذ تأسيس هذا النادي وإنشاء مرافقه التي شملت الحدائق وملاعب التنس الأرضي وبركة السباحة، تعرض لموجة من الهجوم والإستياء من قبل الشبان البحرينين لأن العضوية فيه والسماح بدخوله كان محصوراً بين البريطانيين فقط.

إن وجود "البار" الذي يقدم المشروبات الروحية للاعضاء بداخله كان السبب الرئيسي لعدم قبول البحرينين في عضويته. وفي مناطق كثيرة من الشرق أثارت عضوية الأندية مشاعر سياسية قوية، وفي البحرين التي هي ليست مستعمرة أو محمية بريطانية، فان وجود نادٍ بريطاني له امتيازات خاصة لابد أن يؤدي إلى إنتقاده وتوليد شعور معاد ضده.

لكن البحرينيين كان يسمح لهم بالاشتراك في نادي بابكو الواقع بمدينة عوالي كما يحق لهم الانضمام إلى نادي البحرين للسيارات الذي كنت أتولى منصب الرئيس فيه وبه أعضاء من جميع الجنسيات لكنه لا يحتوي على "بار" لذلك لم يثر حوله السؤال الحساس المتعلق بالخمر.

عامل آخر أثّر على أفكار الشبان ذلك هو العلاقة المتزايدة بين البحرين ومصر.

ففي عام 1945، وبسبب قلة عدد المدرسين المحليين المناسبين في البحرين، قررت الحكومة توظيف بعض المدراء والمدرسين المصريين رغم انني كنت أشك في الحكمة من هذا القرار.

كانت هناك حاجة ملحة لتعليم أفضل مع إزدياد اعداد الطلاب وفتح مدرسة ثانوية، لكن المدراء المحليين كانوا غير قادرين على إدارة التعليم الثانوي، فتم تزكية 12 مدرساً من ذوي الخبرة من قبل وزارة التعليم المصرية للعمل في البحرين.

وقد رحب المواطنون بهذه الخطوة حيث أن البحرينيين ينظرون إلى أي شئ قادم من الخارج على أنه أفضل نوعية وارقى من الشئ المحلي. وعلى الرغم من إعتراض بعض المدرسين البحرينيين على جلب المدرسين الاجانب الذين كانوا يتقاضون رواتب عالية في بادئ الامر إلاّ أنهم تأكدوا من ان المصريين أكثر تأهيلاً منهم.

الدفعة الأولى من المدرسين المصريين كانت من الرجال الناضجين سناً وقد بذلت جهداً كبيراً لتحسن مستوى التعليم في البلاد وكان سلوك أفرادها نموذجياً.

بعد انتهاء مدة إعارتهم استبدلوا بنوعية أُخرى لم تكن بالمستوى المقبول مما دعا الحكومة إلى إرجاع العديد من المدراء والمدرسين الشبان إلى مصر بسبب انغماسهم في النشاط السياسي.

ويوجد الآن (1959 م) في البحرين أكثر من ضعف عدد المدرسين المصريين الذين كانوا متواجدين عام 1945.

وفي جميع دول الشرق الأوسط هناك نقص في اعداد المدرسين باستثناء مصر وهي الدولة الوحيدة التي لها باع طويل ونظام راسخ في التربية والتعليم وترحب بابتعاث المدرسين للعمل بالدول العربية الأخرى حيث يصبح المدرسون مبشّرين متحمّسين ومخلصين للمبادئ والأفكار الخطيرة للناصرية.

في نفس العام ابتعثت حكومة البحرين عدداً من الطلاب للدراسة الجامعية في مصر، وكانت التجربة قصيرة وغير ناجحة. فالقليل منهم إهتم بدراسته وبعضهم ترك السكن الطلابي وعاد إلى البحرين والبعض الآخر اشترك في المظاهرات والاضرابات ما سبب المتاعب والمشاكل لاولياء أُمورهم.

في يناير 1947 إصطحبني الشيخ سلمان معه في زيارة للملك عبد العزيز بن سعود الذي كان يقيم في مخيم مدينة الظهران الواقعة على الساحل السعودي المقابل للبحرين حيث إحتشد جمهور كبير من الناس لتحية الملك. وأمضينا في ضيافة الملك ثلاثة أيّام وهي المدة التقليدية للزيارة العربية.

ولقد استمتعتُ للمرة الأولى باستضافة العاهل السعودي، وكرمه السخي لنا وتعرفتُ عن قرب على طريقته الملكية في العيش والحكم.

وبهذه المناسبة فإن الطريقة الملكية للحكم في الدول العربية تحولت في نظر الصحافة اليسارية في أوروبا إلى إصطلاح آخر يعني النظام الاقطاعي وهو إستخدام غير موفق ويهدف للدلالة على الحكام العرب والإساءة إليهم.

في إحدى امسيات الزيارة كنا مدعويين للعشاء على شرف الأمير سعود بن جلوي أمير منطقة الأحساء وذلك في مدينة الدمام الساحلية القريبة من الظهران. والأمير سعود هو ابن عم الملك عبد

العزيز، وكان والده أحد المؤازرين الأوفياء للملك طيلة حياته، وهو صغير الحجم قسمات وجهه شاحبة، له لحية سوداء وصوته منخفض دائماً ولا يتحدث إلاّ قليلاً وكان شخصية مهابة جداً في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية.

ونظراً لعدم تأكدي من أنني أحد المدعوين إلى العشاء ولعدم رغتبي في أن أكون ضيفاً "ثقيلاً" بقيت في بيت الضيافة ولم ارافق الشيخ سلمان في الذهاب إلى هناك. وبعد ان تحركت جميع سيارات الضيوف إلى الدمام جائني مبعوث من الملك وأخبرني عن رغبته برؤيتي في الحال.

فذهبت إلى المخيم الذي ينزل فيه ووجدته متأهباً للمغادرة وأبلغني بأنه افتقدني بين الجماعة المدعوة للوليمة واستفسر عن مكان وجودي.

فأوضحتُ له السبب الذي جعلني امتنع عن مرافقة الشيخ سلمان إلى مأدبة العشاء لكنه بادرني بالقول: "أنت ضيفي ولا تحتاج إلى دعوة لكي تحضر... تعال معي الآن لنذهب سويا إلى الدمام".

وتوجهت مع الملك عبد العزيز برفقة السيد عبد الله سليمان وزير المالية السعودي حينذاك وقادتنا السيارة عبر الشارع الساحلي تصحبنا السيارات العسكرية.

وعبد الله سليمان رجل ضئيل الجسم يرتدي باستمرار ملابس بسيطة جداً وغير مزخرفة وهو أحد أبناء إقليم نجد وكان له نشاط تجاري في البحرين في السابق.

لقد عمل في خدمة الملك لسنوات طويلة وبسبب امكانياته وقدراته الكبيرة واخلاصه في العمل استلم منصب وزير المالية وأصبح أكثر الرجال نفوذاً في المملكة بعد الملك نفسه. هذا الرجل قاد المملكة العربية السعودية خلال الفترات المالية الحرجة التي مرت بها في السنوات الاولى لحكم الملك وقبل ان تصبح الإيرادات السعودية بالملايين.

عند وصلنا إلى القصر الجديد للأمير سعود بن جلوي كان الجميع مندهشين لرؤيتي أنزل من سيارة الملك وأسير خلفه. مأدبة العشاء كانت كالعادة فخمة جداً إشتملت على عشرات "الغوزي" الكاملة بالإضافة إلى الأطباق الاخرى التي تكفي لغذاء عدد كبير من الناس أكثر بكثير من عدد المدعوين.

وتجمع أهالي مدينة الدمام بسلالهم وأكياسهم لأخذ الطعام المتبقي بعد انتهاء الضيوف والخدم والاتباع من عشائهم. هذه الوليمة الرائعة جداً التي أفسدتها الإنارة البشعة لمصابيح "الفلورسنت" التي أضاءت داخل القصر مسببة في ان يبدو كل فرد منا مكسوا باللون الأخضر الخفيف.

عند مغادرتنا للمملكة العربية السعودية قدّم لي العاهل السعودي هدية وهي عبارة عن طقم كامل لملابس عربية وسررتُ بمعرفتي بأن الملابس كانت مفصلة في الأصل لولي العهد الأمير سعود الذي يقارب طول قامته نفس طولي ولا يشاركنا في هذا المقاس سوى الملك نفسه.

وأهدى الملك الشيخ سلمان وأفراد العائلة الحاكمة سيارات فخمة كما أعطيت هدية واكراميات سخية إلى جميع الخدم والاتباع.

ولقد اصطحبت معي في السفر الشرطي التابع لي "بلال" وامرته ان يرتدي ملابس مدنية وحصل على إكرامية مقدارها 15 جنيهاً وهي تعتبر مبلغاً كبيراً جداً بالنسبة إليه في ذلك الوقت!!

طوال عام 1947 كان هناك توتر متزايد في الشرق الأوسط بسبب معارضة العـرب الشـديدة خاصة العراقيين والسوريين لإقتراح حل المسألة الفلسطينية بتقسيم البلاد واقامة دولة يهوديـة. وفـي الحقيقة أن الوضع السياسي في فلسطين لم يؤثر على البحرين بصورة ملموسـة، لكـن الكثيـر مـن البحرينيين المتعلمين القاطنين في المدن تفاعلوا بقوة مع هذه القضية.

وفي البحرين نتجت إجراءات المراقبة التي تفرضها الحكومة باستمرار علـى أسـعار السـلع الضرورية والتي عززتها قرارات المحكمة المشددة ضد أصحاب المتاجر المنتفعين والمخالفين للقانون عن انخفاض مستوى المعيشة في البلاد مقارنة بالدول الخليجية المجاورة كالمملكة العربيـة السـعودية والكويت وقطر حيث لا تبذُل محاولات للإبقاء على الأسعار منخفضة، لكن الرواتب والأجور في تلـك الدول أعلى بكثير عما هي عليه في البحرين.

العامل العادي لم يضع بعين الاعتبار حقيقة ان تكلفة المعيشة هنا أقل جداً مما هـي عليـه فـي البلدان الأخرى وشغل باله في التفكير فقط بأن العمال في الامارات والدول الخليجية المجاورة يحصلون على "روبيات" أكثر في اليوم مما يحصل هو عليه.

كان هذا هو السبب الأساسي للاضطرابات العمالية بين عمال بابكو ونتج عنها سفر عدد كبير من البحرينيين إلى الخارج بحثاً عن العمل.

وتشجّع بعض البحرينيين، من سكان المدن الذين لم تكن لهم علاقة مباشرة مع بابكوا فساندوا هذه الاضطرابات، وإنتهزوا الفرصة لمهاجمة الشركة وإنتقادها بعنف على أساس كونها مؤسسة أمريكيـة، وان الأمريكيين يؤيدون ويدعمون اليهود ضد العرب في فلسطين.

لكن العمال البحرينيين غير المتعلمين لم يبدوا إلاّ إهتماماً قليلاً جداً حول ما يجري في فلسـطين سواء في ذلك العام أو في السنوات اللاحقة.

نزهة في السوق الملوثة بالدماء!!

ذهب إلى إسرائيل وعاد ليسجن في البحرين!!

تركوا البحرين بحثا عن الحليب والعسل!!

كانت توجد في البحرين جالية يهودية يتراوح عدد أفرادها بـين ثلاثمائـة وأربعمائـة شـخص جميعهم يسكنون المنامة.

ومنذ مئات السنين إستوطن اليهود بعض مناطق الخليج قبل العصر الإسلامي. واليهـود الـذين يعيشون في البحرين هذه الأيام عبارة عن عائلات جاءت أغلبها من العراق رغم وجود بعض اليهـود الايرانيين والهنود بينهم.

وهم أناس هادئون مطيعون للنظام وخوافون. وفي الماضي لم تقـع إحتكاكـات بيـنهم وبـين المسلمين، والدليل على ذلك هو حقيقة وجود عضو يهودي في مجلس بلدية المنامة لسنوات طويلة.

وهم يمتلكون بعض المتاجر في السوق ويبيعون بضائعهم بالتجزئة، والعديد منهم إشتغل بمهنة الصرافة والبعض الآخر من الشبان عملوا كموظفين في المكاتب.

الكثير من النساء اليهوديات اشتغلن كبائعات متجولات حيث يأخذن السلع إلى بيوت البحرينيات اللواتي لا يستطعن زيارة المتاجر بأنفسهن بسبب ارتدائهن للعباءات وتغطية وجوههن.

في بداية مجيئنا للبحرين، وقبل أن تتعلم مارجوري التحدث باللغة العربية، دأبت على اصطحاب امرأة يهودية معها لتعمل كمترجمة عند زياراتها للنساء البحرينيات اللواتي لم يعترضن قط على ذلك التصرف، وعلى الرغم من أن إثنين أو ثلاثة من اليهود كانوا من التجار البارزين في البحرين إلاّ أن الجالية اليهودية لم تكن غنية بل أن بعض أفرادها خصوصاً اليهود الإيرانيين عاشوا حياة بائسة لم يستطعوا خلالها تأمين إلاّ ما يسدُّ رمقهم فقط. ولم يعمد اليهود المحليون إلى السكن في منطقة معينة من العاصمة بل أن بيوتهم كانت متوزعة في أحياء مختلفة ومتباعدة.

α α α

في الثاني من ديسمبر عام 1947، بعد وصول الأنباء عن قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين إلى البحرين، جرت مظاهرة في المنامة قام بها طلاب المدارس الشباب الذين خرجوا في مسيرة داخل المدينة وهم يهتفون بشعارات معادية لأمريكا، وألقوا بالحجارة على أحد البنوك التي كان يعمل بها بعض اليهود وشتموا طبيباً مشهوراً يعمل في الإرسالية الأمريكية بصوت عالٍ عندما قابلوه بالصدفة، ووصفوه بالشيوعي وهو إتهام لا يوجد له أي مبرر إطلاقاً.

وأنضم إلى المظاهرة عدد من البحارة الايرانيين العاملين في فرضة المنامة الذين لم تكن لديهم فكرة عن سبب قيامها أو الغرض منها، وأخذوا يضربون صدورهم وينشدون الشعائر الدينية التي يرددونها عادة خلال أيام عاشوراء ظناً منهم أن المظاهرة كانت مناسبة دينية للشيعة.

في اليوم التالي قامت مسيرة إحتجاج منظمة تصحبها الشرطة واتجت إلى مبنى بلدية المنامة حيث كان الشيخ سلمان واقفاً في الشرفة، وحيا المتظاهرون الشيخ ثم تفرقوا.

وفي صباح اليوم الثالث جرت جميع الأمور بصورة عادية وبدت المدينة هادئة، لكن في منتصف النهار تم استدعائي من مكتبي بسرعة لمعاينة حادثة وقعت في السوق.

قامت جمهرة من البحارة الايرانيين الرعاع وبعض العمانيين وحشد من لصوص السوق الذين كانوا مسؤولين بالطبع عما حدث في وقت لاحق لأنهم الوحيدون الذين يعرفون المساكن التي يشغلها اليهود، قاموا جميعا باقتحام بناية يستخدمها اليهود لتأدية طقوسهم الدينية. وحينما وصلت إلى موقع الحادث كان معظم الرجال قد فروا وأعتقل البعض الآخر منهم بينما حاولت مجموعة من النساء السيئات السمعة اللواتي يسكن بالقرب من البناية إنتزاع ما يستطعن أخذه والإستفادة منه رغم قلة الأشياء الصالحة.

في نفس الوقت تلقيت تقريراً عن مهاجمة بيوت يهودية أخرى في أجزاء مختلفة من العاصمة. فتم توزيع رجال الشرطة وأرسلت الدوريات إلى مختلف أحياء المنامة، وانطلقت أنا برفقة جم هايد وهو

أحد ضباط الشرطة البريطانيين، والشرطي السائق في سيارتي نحو منزل يقع في طرف السوق حيث سمعنا ضجيجاً وجلبة يوحيان بوجود مشكلة كبيرة.

كانت الغرف السكنية تقع في بناية فوق يتطلب الوصول إليها صعود سلالم كثيرة. فجرينا مسرعين عبر درجات السلم ووجدنا أن المكان ملئ بالايرانيين والعمانيين الذين كانوا يحطمون الابواب والنوافذ ويقذفون بمحتويات المنزل إلى الشارع.

بعضهم قام بترويع النساء وارهابهن بينما قبع الأطفال في احدى الزوايا يرتعشون ويصرخون طلباً للنجدة.

وأدى مشهد مجيئنا إلى تخويف اللصوص الناهبين ففر بعضهم هارباً، لكن جمهوراً من الرجال الموجودين في الشارع شقوا طريقهم إلى أعلى قادمين إلى المنزل.

ووقفنا ثلاثتنا عند قمة السلم وأخذنا نلتقط كل شخص يصل الينا ونقذفه بقوة عبر درجات السلم إلى أسفل، أما الرجال الموجودون في المنزل، فبعد أن وجدوا أنهم لن يستطيعوا الهروب اشتبكوا معنا في معركة حيث تصدينا لهم بقبضات أيدينا.

وفي فترة سقط العديد منهم على الأرض وقمنا بتقييدهم بحبل وجدناه في إحدى الغرف.

ثم ذهبنا إلى بيت آخر حيث انضم الينا عدد من أفراد الشرطة ساعدونا في إلقاء القبض على المجرمين المقيدين.

ودارت معركة عنيفة استخدمت فيها قدمي ويداي بصورة فعالة. وكنت سعيداً بأنني قد تعلمت الملاكمة عندما كنت طالباً بالمدرسة لكنني لم أحصل على الفرصة لإستخدامها إلاّ بعد سنوات طويلة!

α α α

في بعض أحياء المنامة وصل رجال الشرطة في الوقت المناسب لمنع نهب المنازل لكن ما يقارب الاثني عشر بيتاً أُتلفت بالكامل قبل أن تأتيها النجدة.

وعومل كبار السن من الرجال والنساء معاملة سيئة جداً، كذلك الحال بالنسبة للاطفال. وقد توفيت إمرأة عجوز فيما بعد من جراء الاصابات التي لحقت بها، لكن طوال فترة هذا الشغب كان هناك غياب مدهش للشباب اليهود الذين يفترض فيهم أن يفعلوا شيئاً لحماية عائلاتهم.

وعندما أستفسرت عن السبب في وقت لاحق أخبروني بأنهم كانوا جميعاً خارج بيوتهم في العمل، لكنني أظن ان ذلك العذر واهٍ وليس له أي مبرر.

بعد إنتهاء أعمال الشغب والمعارك أخذت أتمشى في السوق الملوثة بالوحل والدماء، ثيابي ممزقة ويسير خلفي بعض أفراد الشرطة الملطخة بزاتهم بالأوساخ والطين، معظمهم فقدوا قبعاتهم.

وقابلت أثناء الطريق ضابطين شابين من رجال البحرية الامريكية وهما يرتديان لباسهما الرسمي النظيف وكان معهم اثنان من البحارة، فناديتهم ناصحاً بعدم التوغل في السوق. ولما علموا إنني "المستشار" قالوا انهم قد جاءوا لمعرفة ما إذا كنا بحاجة إلى مساعدة أم لا.

فسألوني ان كنت أريد أن يرسلوا فرقة الانزال المرابطة على الشاطئ، لكنهم اصيبوا بخيبة أمل كبيرة عندما أبلغتهم بأن الاضطرابات وأعمال التخريب قد انتهت ولم نعد بحاجة إلى أية مساعدة. في ذلك الوقت كان يسكن معنا في البيت شاب أمريكي في طريق عودته إلى بلاده وعندما رأيته أعرب عن أسفه الشديد لعدم إشتراكه في المعركة.

الشخصيات البارزة في البحرين صعقت لوقوع تلك الحوادث، ومعظمها تصرفت تصرفا نبيلاً جداً قدر الامكان، وبعضهم قدم المأوى والحماية لجيرانهم اليهود. في تلك الليلة قمت أنا بمرافقة أحد الشيوخ لزيارة البيوت المنكوبة وكان المشهد محزناً ومثيراً للشفقة فلقد تم تجريد المنازل من جميع محتوياتها وتحطيم ما لايمكن إزالته أو نهبه.

في بعض البيوت تم إلقاء الثلاجات وخزائن حفظ الأموال والمستندات من الطوابق العليا إلى الشارع. وشاهدنا لعب الأطفال تتسحق تحت أقدام المغيرين. ثم ذهبت إلى المستشفى لرؤية الأشخاص المصابين، وكنت مسروراً لعدم وجود حالات خطيرة بينهم، باستثناء المرأة اليهودية التي ماتت وعرفت أن عدد الجرحى من أفراد الشرطة كان أكثر من الضحايا اليهود.

تلك الأحداث كانت مؤسفة جداً لكننا خرجنا منها بفائدة عظيمة حيث وضعت نهاية لاعتداءات البحرينيين على الجاليات اليهودية رغم بقاء القليل منها هنا.

ولم يتردد إثنان من التجار البحرينيين عند تنافسهما مع التجار اليهود في إتباع وسائل إبتزاز خبيثة وحجتهما في ذلك، أن نجاح خصومهم الزائد ربما يؤدي إلى الإضرار بهم ــ وتبين لاهالي البحرين انّه لم يكن للجاليات اليهودية في البحرين ذنب عندما قررت القوى العظمى إنشاء دولة إسرائيل.

أما أنا فتساءلت عما إذا كان الدور الذي لعبته سوف يلحق بي تهمة تأييد اليهود!! لكن ذلك الشئ لم يحدث فاكثر المعادين للصهيونية تشدداً لم تطرأ على بالهم مثل هذه الفكرة لدرجة أنهم استنكروا ما وقع من أحداث مؤلمة في البحرين. لقد كانت تلك المرة هي الأخيرة التي أشترك أنا فيها في معركة حقيقة بالأيدي وأكون كاذبا إذا زعمت بأنني لم استمتع بها!!

α α α

عندما صار بامكان اليهود الهجرة إلى إسرائيل اعلنت الحكومة البحرين بأن أي يهودي يرغب في السفر إلى هناك له مطلق الحرية في ذلك وبإستطاعته ان يأخذ معه جميع ممتلكاته الشخصية وأمواله، بشرط عدم العودة إلى البحرين إذا هاجر إلى إسرائيل.

وتدريجياً غادر معظم اليهود البلاد ولم يعد هناك الآن أكثر من أثنتي عشرة عائلة ساكنة في المنامة. وسافرة إلى إسرائيل تحدوهم الآمال الكبيرة والاغراءات بإعطائهم أراضٍ مليئة بالحليب والعسل لكن سرعان ما وصلت تقارير إلى اليهود الذين ظلوا في البحرين تفيد بان الحياة في إسرائيل ليست كما توقعوا، وندم شبان كثيرون منهم بشدة على ترك البلاد. ومن بين الذين هاجروا، شاب عمل في السابق في وظيفة كتابية.

فبعد ان مكث لفترة ما في إسرائيل نجح في الهرب منها رغم صعوبة ذلك الشئ واستطاع، عن طريق اتباع وسائل غير شرعية ومخادعة، الرجوع إلى البحرين.

وتم إعتقاله وقدم إلى المحاكمة، وكنا محتارين في كيفية التعامل مع هذه القضية الأولى من نوعها التي تفرض علينا لاتخاذ قرار بشأنها.

وحكمنا عليه بالحبس لمدة سنة واحدة يستطيع بعدها الاستمرار في العيش داخل البحرين، أو ان يعود إلى إسرائيل. فشكر الشاب المحكمة لقرارها وأحنى رأسه مبتسماً للقاضي وعندما مشى إلى الخارج نادى مجموعة من أصدقائه الذين كانوا بانتظار الحكم في القضية وهو يصيح فرحاً: سنة واحدة فقط بعدها سأكون قادراً على الحياة هنا!! وشعرنا وقتها باننا ربما أخطأنا في الحكم عليه على حساب اللين والتساهل. هذا الشاب كان الشخص الوحيد الذي رجع إلى البحرين من إسرائيل.

الفصل الخامس عشر

في البحرين: ايدن... يلعب الكراسي الموسيقية!!

يركعون على ركبهم بحثا عن الاسماء!!

خمسة وخمسون بحرينيا يرفضون دعوة أمريكية!!

في فبراير 1948 مر بالبحرين السير انطوني إيدن، رئيس الوزارة البريطاني السابق في طريقه لزيارة المملكة العربية السعودية وحل على ضيافة المقيم السياسي في البحرين السير روبرت هيه.

وكان برفقته ابنه نيكولاس والكولونيل بالمر الذي استضاف الشيخ حمد حينما زار مصنع هنتلي وبالمر في عام 1936. ورغم ان الشيخ سلمان لم يقابل السيد إيدن حينما زار بريطانيا إلاّ انّه يكنّ له إحتراماً كبيراً ويشاركه في ذلك سكان البحرين الذين يتذكرون ويثنون على موقفه ازاء قضية الحبشة في عام 1938. فهذا الرجل الذي يشغل مركزاً بمثل هذه الأهمية فضل عدم الاستمرار في منصبه التزاما بالمبادئ التي يؤمن بها وهو أمر غير مصدق ويبعث على الاعجاب لدى العرب.

العديد من الشخصيات المتميزة جاءت إلى البحرين قبل وبعد هذه الزيارة لكني لم أشهد أبداً شخصاً أولى الشيخ سلمان إهتمامه الكبير بتفاصيل زيارته كما أولاها لهذه المناسبة.

في صباح ذلك اليوم ذهبنا أنا ومارجوري إلى قصر الشيخ لتنسيق الزهور استعداد لمأدبة الغداء التي أقامها والاشراف على تنظيم وترتيب الأمور. لقد دأب الشيخ سلمان على التعليق علي بسبب حبي الشديد للأزهار والتفاح الذي لم يكن يعيره إهتماماً فعندما يشاهد الشيخ هذه الفاكهة على مائدة الغداء فإنه يأمر الخادم دائماً بوضع طبقاً منها أمامي!!

وكالعادة لم تكن المائدة منسقة، فهي محشورة جداً بالأطبقا الشهية الصغيرة كالفواكه البـاردة المعلبة والمهلبية البيضاء. ورغم احتجاجات الخدم، أصرت زوجتي على استبعاد كثر من عشرين طبقاً من الصحون الثانوية. من المستحيل اقناع الخدم البحرينيين بأن النوعية وليس الكمية هو المهم في

ترتيب المائدة. بعد ذلك استعرضت حرس الشرف الموجود أمام القصر وحذرت رئيس الفرقة الموسيقية الهندي (السيخ) بعدم السماح لأي شخص من أفراد الفرقة بالتسلل إلى غرفة الطعام والسطو على بعض المأكولات وهي عادة درجوا على ممارستها باستمرار مع أنهم لا يحتاجون مطلقاً إلى اللجـوء إليهـا بسبب إعطائهم وجبات سمينة بعد غذاء الضيوف!!

مأدبة الغداء الصغيرة التي ضمت نحو ثلاثين شخصاً من الشخصيات البريطانيـة والأمريكيـة البارزة التي اخترتها بعناية، كانت ناجحة جداً وكان الشيخ سلمان مسروراً لمعرفة ان السير انطـوني إيدن يستطيع التحدث باللغة العربية بمساعدة وتلقين بسيط من قبل مارجوري الجالسة بجانبـه. وهـو إنجاز غير عادي لم يألفه بين ضويف البلد الكبار الذين يزورون البحرين. وفي المساء أقـام المعتمـد السياسي في البحرين، السير روبرت هيه حفلة عشاء على شرف الضيف والتي دار أثنائها ما يشبه لعبة الكراسي الموسيقية، فكل شخص يأتي للجلوس بالقرب من الضيف الكبير إيدن ويتحدث معه لدقائق ثـم يترك المجال لشخص آخر للجلوس على ذلك المقعد لنفس الفترة الزمنية.

وهكذا إلى ان يأخذ الجميع دورهم في محادثة الضيف.

في البقاع الاخرى من العالم كالولايات الهندية المقاربة في الحجم للبحرين وفي نفس أهميتهـا، هناك شخص مسؤول في القصر مهمته ترتيب حفلات العشاء والغداء للحاكم. وعندما كان الشيخ حمـد على قيد الحياة أقنعته بتوظيف رجل هندي مسلم للتكفل بمثل هذه الأمور. كان هذا الرجل يعرف بعامل الشيخ وشغل وظيفة كبير الخدم لكن هذه التجربة لم تكن ناجحة وعندما غادر الرجل البحرين بعد عـدة أشهر وضع الشيخ مهمة ترتيب الحفلات وتنسيقها على عاتقي. وفي احدى المناسبات كانـت بطاقـات الدعوة من قبل القصر ترسل إلى الأزواج فقط دون زوجاتهم أو على العكس من ذلك مما يسبب بعض الحرج والتبرم للمدعوين.

أحد الأزواج الذي حذفت زوجته من قائمة المدعوين بالصدفة، كتب لي رسالة غاضبة يشعر فيها بالألم والحزن ويعاتبني لعدم دعوة زوجته إلى تلك المناسبة وتساءل عمّا إذا كانت حرمه شخصاً غيـر مرغوب فيه لدى سمو الأمير.

الزوجة المعنية هي امرأة متوسطة العمر ومحترمة جداً لكن الشيخ لم يكن يعلم بوجودهـا فـي البحرين، وقد أبدى تشوقاً وإهتماماً شديداً للموضوع عندما قرأت الرسالة عليه، لكنني أوضحت له بأنني الشخص الذي وقع عليه اللوم وليس هو.

بعد هذه الحادثة وافق الشيخ على تخويلي بالتعامل مع دعوات الجاليات الأوروبية وتسليمه قائمة الأشخاص "المؤهلين" للدعوة لاقرارها، أما الدعوات الموجهة للبحرينيين فترسل مباشرة مـن القصـر حيث ان موضوع دعوات زوجاتهم غير وارد إطلاقاً.

في السنوات التي سبقت تناول الطعام على النمط الأوروبي أي الجلوس على الكراسـي وأكـل الوجبات من على الموائد، كانت حفلات العشاء تقام في قصر الرفاع في غرفة الطعام الطويلة والضيقة التي لم تكن في ذلك الزمن مضاءة جيداً. وينشر على أرض الغرفة بساط يمتد بطول الغرفة بأكملهـا

وتوضع عليه الأطباق حيث يجلس الضيوف على الأرض المفروشة بالسجاد علـــى طرفـــي البســـاط (السفرة) ويتكئون على المساند الملاصقة للجدران خلفهم. أحد الرجال العاملين في القصر قـــرر دون علمي أن يكتب إسم كل مدعو فوق بطاقة ويخصص له مكاناً محدداً على طاولة الطعام أو على السفرة، ودائماً ما كنت أشعر بأن الدوران حول المائدة والبحث في هذه المناسبات عن إسمي على البطاقة عملية متعبة وعديمة الفائدة.

لكن في احدى المناسبات حدثت فوضى بسبب عدم وجود تنظيم للمائـــدة. وركـــع الكثيـــر مـــن الضيوف على أركبهم وهم يدققون النظر في البطاقات الصغيرة غير الواضحة الكتابة بحثاً عن أسمائهم وقد وجدت إن توزيع المدعوين على أماكنهم المخصصة سيستغرق نصف ساعة على الأقل لذلك طلبت منهم تجاهل تلك البطاقات والجلوس أينما شاءوا.

ومنذ ذلك الحين لم أشاهد أبداً بطاقات تحمل أسماء الضيوف في أي حفلة عشاء بحرينية.

كانت هناك منافسة كبيرة للحصول على دعوات حفلات القصر لكنه من المستحيل دعوة الجميع.

وفي أغلب الأحيان بعد ان نبعث بطاقات الدعوة إلى الضيوف يتصل بعض المـــواطنين هاتفيـــاً بسكرتيري الهندي ناريان قائلين: "لقد سمعت ان سمو الأمير سيقيم وليمة عشاء الأسبوع القـــادم ولـــم تصلني حتّى الآن الدعوة الموجهة الي مع ان المدعوين الآخرين قد استلموها، أرجو تـــدارك الخطـــأ ومعرفة سبب عدم وصول الدعوة!!". وفي مثل هذه الحالات يتحتم علـــى ناريـــان ان يوضـــح بلباقـــة للشخص المتصل ان إسمه ليس بين قائمة المدعوين.

أكثر ما أستمتع به هو تناول العشاء بهدوء مع الشيخ سلمان في قصر الرفاع عندما يدعوني مع زوجتي وأحياناً يشاركنا في الدعوة واحد أو اثنان من الاوروبيين الآخرين بـــدون وجـــود شخصـــيات رسمية، لذلك نتحدث على سجيتنا دون رسميات. أجواء هذه الحفلات تختلـــف إختلافـــاً شـــديداً عـــن المناسبات الرسمية.

بعد فترة قصيرة من زيارة المستر إيدن عاد إيني جيمس (حمد) إلى البحرين بعد ان أنهى خدمته العسكرية بالشرطة البريطانية في فلسطين حيث كان يعمل في دائرة التحقيقات الجنائية بالقـــدس. لقـــد استمتع بالعمل خلال فترة خدمته لكننا فرحنا جدا لرجوعه إلى البحرين سليما معافى.

وبعد مرور أسبوع أو أسبوعين عينه الشيخ سلمان في شرطة البحرين حيث عمـــل لمـــدة ســـنة تقريباً. وخلال هذه السنة، بسبب النقص في الموظفين أوكلت حكومة البحرين إليه القيام بوظيفة غيـــر مرغوب فيها وهي قياس سعة وحجم النفط وفحص البترول الموجود في الخزانات وعلى ظهر السفن، لكنه استفاد من هذا العمل فاكتسب معلومات لا بأس بها عن تجارة النفط وبعد ذلك ســـافر إلـــى لنـــدن والتحق بكلية الدراسات الافريقية الشرقية بجامعة لندن فحصل على الدرجة الجامعية. ثم عمل لـــبعض الوقت في دائرة العلاقات العامة في شركة نفط البحرين (بابكو) حتّى عينـــه الشـــيخ ســـلمان مـــديراً، للعلاقات العامة في حكومة البحرين.

في شهر مايو 1948 اعترفت الولايات المتحدة بقيام الدولة الاسرائيلية، وتوقعت أنـا حـدوث مشاكل في البحرين، فاتخذت جميع الاحتياطات الممكنة وجعلت الشرطة على أهبة الاستعداد للتصـدي لأية مظاهرات أو إضطرابات، لكن لم يحدث شئ مما توقعت. بعد أيام قليلة هبطت حاملة الطـائرات العسكرية الأمريكية رندوفا بالبحرين.

وتبادل ضباطها الزيارات المعتادة مع المسؤولين الحكوميين. في اليوم التالي بعث قبطان السفينة ستين دعوة إلى رجال البلاد البارزين من البحرينيين لحضور حفلة شاي على ظهر السفينة وذلك دون استشارتي.

لم يلب الدعوة سوى خمسة أشخاص، أما بقية المدعوين فقد أرسلوا خطاباً وقعوه جميعهم وجـاء فيه انّه نظراً لموقف الحكومة الأمريكية حول فلسطين فانهم لا يرغبون في تلبية تلك الدعوة. لقد كانت رسالة وقحة جداً أثارت الذعر في الوسط البحريني ولو كان القبطان قد استشارني مسبقاً لنصحته بعدم القيام بذلك لخبرتي بما سوف يحدث.

على الرغم من ذلك قمنا بتهدئة انفعالات رجال البحرية وكنت مسروراً لمعرفة ان جميع الضباط الذين تحدثت معهم كانوا لا بأس بها جاء رجال البحرية الأمريكية في زيارة أخرى إلى البحرين ووصل أدميرال أمريكي كبير إلى الخليج برفقة موظفين كثيـرين يصـحبون معهـم الكـاميرات السـينمائية والمصورين. واستقبلهم الشيخ سلمان بالقصر في غرفة الاستقبالات الكبرى، وأخـذوا أمـاكنهم علـى الكراسي والارائك في طرف الغرفة بينما جلس الأدميرال على يمين الشيخ وجلست أنا على يساره.

في تلك الليلة أقام الشيخ مأدبة عشاء بقصره على شرف الأدميرال. وقد وصلت أنـا وزوجتـي مبكرين كالعادة حيث ان الشيخ يرغب أن أكون هناك قبل حضور الضيوف، ووقف على كل جانب من جانبي البوابة اثنان من خدم القصر الضخمي الجثة ذوي البشرة السـوداء وهـم يتقلـدون الخنـاجر والسيوف.

وعند وصول الادميرال ومرافقيه انتزع الخدم قبعات الضباط العسكريين من أيديهم ووضـعوها على كرسي قريب من الباب، ولابد ان الضابط أصيبوا بالدهشة لهذا التصرف القسـري بسـبب أخـذ قبعاتهم عنوة منهم!!!

من السهل علينا ان نضحك على بعض أخطاء الامريكيين الزائـرين للشـرق الأوسـط لكـن البريطانيين المعروفين بصورة أفضل غالباً ما يتورطون في مسائل عديدة بسبب سوء الفهم. فعلى سبيل المثال أتذكر انني أخذت أحدهم ممن يعتقد أن بإستطاعته التحدث بالعربية لزيارة رجل بحريني. وبعـد مضي بعض الوقت في الحديث قال الضيف: "عندك الكثير من القمل" فرد الرجل البحرينـي سـاخطاً: "أنت مخطئ لا يوجد نها منها هنا". وفي هذه اللحظة تدخلت أنا وأوضحت للرجل البحريني بأن الضيف يقصد الجمال وليس القمل فنظرا لتشابه الكلمتين لم يستطع ان يفرق بينهما!!

أحد المعتمدين السياسيين العاملين بالخليج في السنوات الأولى لمجيئي في البحـرين دأب علـى تكرار القول بأنه لا يوجد أي بحريني يفهم اللغة الانجليزية.

وفي حفلة أقامها على شرفه أحد الرجال البحرينيين قال لزوجته: "حبيبتي، كوني حــذرة عنــد الأكل، انني متأكد ان الأطباق غير نظيفة" فالتفت نجل الرجل البحريني الذي يستضيفهم وهــو طالــب بالمدرسة وقال لوالده باللغة العربية: "ان الضيف يخبر زوجته بعدم أكل الطعام، هل يعتقد بأننا نرغــب في تسميمها؟" وعقب ذلك فتر الحديث بين الطرفين حتّى نهاية الحفلة.

حصار في عرض البحر!!

زياراتنا للسفن القادمة إلى البحرين أحياناً تكون محفوفة بالمخاطر ــ لقد تعود قائد أسطول شرق الهند المجيء إلى البلاد خلال شهر يناير من كل عام حيث يكون الجو شديد البرودة وعاصفاً، ودائمــا يشتمل برنامج زيارته على حفلة كوكتيل فخمة على ظهر السفينة.

في يناير 1950 أقام الأميرال جالز ودهاوس وزوجته حفلة في السفينة التي رست على مســافة تتراوح بين ميل أو ميلين عن رصيف شركة بابكو بجزيرة سترة الواقعة فــي الجــزء الشــرقي مــن البحرين.

في ذلك المساء إنطلقت أنا وزوجتي في السيارة نحو ذلك الرصيف، وعندما وصلنا كان البحــر هادئاً جداً بصورة لم نعهدها من قبل لدرجة أثارت استغرابي لكنها لم تصل إلى تحذيرنا وإنذارنا لمــا سوق يحدث لا حقاً حتّى أن ما رجوري كانت مطمئنة رغم إنها تكره الرحلات البحرية فــي الطقــس المضطرب. فركبنا في زورق (لنش) تابع للشرطة، مصنوع محلياً ومزود بمحركات معدة للرحلة لكنه غير جذّاب.

وشاهدنا منظراً بهيجاً على سطح السفينة حيث كانت الفرقة الموسيقية التابعة للبحرية البريطانية تعزف ألحاناً شجية وما يقارب الــ 200 ضيف يرتدون ثياب الحفلة ويتناولون المشروبات ويتجــاذبون أطراف الحديث مع ضباط البحرية. كان سطح السفينة مغلقاً بالأشرعة ومزيناً بالأعلام وسارت الأمور سيراً حسناً لبعض الوقت ثم، فجأة، وبدون سابق إنذار هبت ريح هوجاء أطارت الأشــرعة المحيطــة بسطح السفينة ومزّقت الأعلام إلى قطع بالية وقذفت بالأجهزة الموسيقية من أماكنها إلى البحر كالوحش الكاسر الذي ينفرد بفريسته.

تمزقت ملابسنا ووقف شعر النساء من شدة الخوف وأخذت أمواج البحر تتلاطم بعنــف علــى جوانب السفينة. بعض المدعوين الذين غادروا الحفلة مبكرين نجحوا في الوصول إلى الشــاطئ لكــن إشارات اللاسلكي المستقبلة من ميناء سترة حيث توجد القوارب التي تنتظر لكــي تــأتي بالمــدعوين المتأخرين وتأخذ الضيوف إلى الساحل مرة أخرى، أبلغت باستحالة عمل القــوارب فــي هــذا الجــو العاصف.

ولم يكن أمام جميع من حضروا الحفل إلاّ الإذعان وقضاء تلك الليلة فوق ظهر السفينة. ولحسن حظ ما رجوري خصصت لها حجرة (كبينة) من قبل الليدي ودهاوس لتمضية الليلة بــداخلها. وتخلــى الضباط عن أماكن سكنهم للنساء لكي يبتن فيها أما الرجال فقد تكفلوا بأنفسهم. بعض رجــال البحريــة

والمدعوين الشبان اعتقدوا أن الأمر تسلية عظيمة وذكرهم هذا الحادث بمسرحية "ساعة السفينة المتوسطة الحجم" لكنه بالنسبة للضيوف الأكبر سناً أُعتبر تجربة مريرة.

لقد تصادف وجود الدكتور سنو رئيس أطباء المستشفى الحكومي بين المدعوين في تلك الليلة ونظراً لارتباطه بحالة مرضية مستعجلة في مستشفى السلمانية لا تتحمل التأخر عليها قرر عدم الإنتظار بالسفينة حتّى اليوم التالي.

كذلك الحال بالنسبة لي إذ كنت ملتزماً بحضور إجتماع معهم في صباح ذلك اليوم مع ممثلين لشركة بابكو قادمين من الولايات المتحدة لمراجعة إمتيازات النفط. لذلك قررنا أنا وهو وإبني جيمس (حمد) تحدي البحر والمغامرة للعودة إلى الساحل. فنزلنا إلى اسفل عبر ممر جانبي لسطح السفينة وبصعوبة نجحنا في القفز إلى ظهر زورق البحرينيون لهم خبرة جيدة في البحر وأوصلونا بسلام عبر الظلمة المعتمة والمياه الهائجة إلى الرصيف لكن بعد هلع شديد تسلل إلى أنفسنا مما جعل أجسامنا ترتعش طوال الطريق.

استمرت العاصفة في الضرب بعنف طوال تلك الليلة وحتى منتصف اليوم التالي حيث تم إنقاذ الضيوف المحاصرين في عرض البحر والمتسخة ثيابهم بالغبار واللون الرمادي بواسطة قوارب ولنشات كبيرة تابعة لشركة النفط. بعد هذه الواقعة تحولت الزيارات السنوية لرئيس إسطول شرق الهند لكي تتوافق في أشهر لاحقة من السنة أقل سكونا من ناحية الجو.

α α α

لا أرغب بإعطاء الانطباع عن الحياة في البحرين بأنها شراب ومتعة دائمة أو إنها حفلات كوكتيل ومآدب عشاء فقط. فقد كان لدي الكثير من الأعمال الجادة والعديد من المشاكل التي أتعامل معها، وبعضها أقلقني بدرجة كبيرة.

عندما إستقدمني الشيخ حمد للعمل في البحرين في عام 1926 كان مسمى الوظيفة الموكلة لي هو المستشار المالي لكنني لم أعرف أبداً بهذا اللقب طيلة سنوات عملي هنا والبالغة 31 عاماً بل كان الجميع ينادونني بإسم المستشار فقط، وهذا اللقب يغطي مجموعة كبيرة ومتنوعة من المهام التي أقوم بها.

ذات مرة جاء شخص انجليزي إلى البحرين وأراد أن يقابلني. هذا الرجل يعمل قسيساً بالجيش وذو سلوك غير تقليدي وكان أحد زملاء شقيقي في فيلق القوات الجوية الملكية سابقاً وامضى عدة سنوات في مدينة بورستال كقسيس. وعندما وصل إلى مطار البحرين وأنهى إجراءات الدخول إستقل سيارة تاكسي وطلب من السائق إن يأخذه إلى منزل بلجريف.

فقال السائق "سوف آخذك إلى المستشار" فصرخ الرجل الإنجليزي: "لا، أنا لا أريد مستر شو، أنا أريد مستر بلجريف". فرد صاحب التاكسي مرة ثانية قائلاً: "حسناً أنت تريد منزل المستشار وسوف آخذك إلى هناك".

وفي هذه اللحظة غضب صديقي كما أخبرني لاحقاً وصاح في وجه السائق: "اوصلني إلى السيد بلجريف، وإذا لم تفعل ذلك سوف أقدم شكوى ضدك لدى الشرطة". رد سائق التاكسي المسكين مرة أخرى وهو يقول: "المستشار رئيس الشرطة، فلنذهب إليه".

ووصل الضيف الى منزلي وهو في حالة إندهاش شديد وحياني وهو يتساءل: "من هو هذا الزميل الإنجليزي المسمى مستر شو الذي إستمر السائق بالثرثرة والكلام عنه طوال الوقت؟ هل غيرت إسمك إلى شو كما فعل لورنس (العرب)؟.

α α α

التعامل مع الأمور المالية للدولة كان واحداً من واجباتي الرئيسية لكن بسبب قبضتي المحكمة على مصروفات الخزانة لم انل القبول والتأييد في العديد من المواقع. فقد كان الشيخ سلمان موافقاً على سياستي بإضافة جزء معين من إيرادات كل سنة إلى صندوق الإحتياط الذي يستثمر في بريطانيا بشراء أسهم حكومية وذلك لكي نتمكن من تكوين أموال تكون مساعدة للإيرادات عندما ينخفض دخل النفط.

هذه الفكرة لم تكن محبوبة ومنذ مغادرتي للبحرين ألاحظ ان خطة الدولة لتوفير الأموال قد تم التخلي عنها. البحرينيون ينظرون إلى البترول كمورد اقتصادي لا ينصب ويعتبرون البحرين دولة مرفهة بسبب عدم وجود الضرائب فيها وجميع الخدمات العاملة الطبية والتعليمية وغيرها يجب ان تتوفر مجاناً للاغنياء والفقراء على حدٍ سواء.

وقد قوبلت جهودي لتقليص المصاريف وتشجيع بعض الدوائر الحكومية لزيادة دخلها، قوبلت بعدم التعاون من قبل المواطنين. وتعتبر بلدية المنامة مثالاً على ذلك، فهي مؤسسة لا مبالية تدعمها الحكومية بمبالغ كبيرة ولا يبدو أبداً أن لديها أموالاً كافية لتنفيذ التزاماتها نحو عامة الناس. لقد تعودنا ان نسمح للبلديات بإدارة معارضها وأنشطتها الخاصة مع توجيهات دائمة من قبل الحكومة. الإيراد الرئيسي للبلدية هو من الدكاكين والمتاجر ورسوم البيوت.

أما المباني المؤجرة فيدفع المستأجرون واغلبهم من الأجانب رسوماً أعلى لكنها معقولة جدا لكن في حالة البيوت المملوكة التي تشمل جميع المنازل التابعة إلى التجار وأصحاب المحلات فإن الضريبة القصوى التي تفرض عليها تبلغ سبعة بالمئة شهرياً. حينما إقترحت إعادة النظر في حجم الرسوم المفروضة على المنازل الخاصة جوبهت بسخط ونقمة شديدة من مجلس البلدية حيث عارض اقتراحي جميع أعضاء المجلس بقوة عدا عضو أو عضوين فقد على ما أتذكر.

وفي مرات كثيرة أسعى لموافقة المجلس على إقتراحي لكن دون نجاح.

α α α

إستمر التعليم بالنسبة لي كالألم المستديم في الرقبة وغالبا ما أتساءل عما إذا كانت سلبياته أكثر من فوائده ومنفعته على المدى الطويل بالنسبة لشعب البحرين، لكن هذا الرأي أصبح غير مقبول جداً هذه الأيام. وكل عام يصبح عدد كبير من السكان متعلمين إلى المستوى الذي يمكنهم فيه القراءة و.. الكتابة معا، إلاّ أنني لا أعتقد أنهم أصبحوا أكثر سعادة الآن عن ذي قبل، وغلى الرغم من ان معظم

التعليم كان سطحياً فإن من يطلق عليهم متعلمين من الشباب يعتبرون العمل اليدوي أقل من مستواهم ويتوقعون الحصول على وظائف ذات ياقات بيضاء وهي غير موجودة. ولم يتمتع أي طالب خلال دراسته بخاصية تدل على ذكائه أو موهبته كالتضامن وروح الجماعة، التفوق في اللياقة البدنية، النظام والانضباط، أو حب الخدمة العامة وهي الصفات التي يتميز بها طلبة مدارس الغرب، لكن ربما لم تعد هذه الخصال ضرورية في نظر الدول المرفهة الغنية!!

لقد عوّلت على مدارس البحرين آمالاً كبيرة، أكبر من اللازم، وحاولت مقارنتها بالمدارس العمومية في إنجلترا، لكنني، يجب أن أعترف، وجدت النتائج مخيبة جداً. بالرغم من ذلك طالب المواطنون بالمزيد من المدارس ولذلك كانت تبنى وتفتتح كل سنة مدارس جديدة.

لعدة سنوات درجت الحكومة على إبتعاث بعض الطلبة سنوياً للدراسة المتقدمة إلى مدرسة ثانوية تابعة للجامعة الأمريكية في بيروت التي كانت أفضل مؤسسة تعليمية في الشرق الأوسط. في عام 1950 حصل أول بحرينيين على درجتهما الجامعية من الجامعة الامريكية. هذا النظام كان بصورة عامة ناجحاً رغم اتجاه الطلاب لإختيار التخصصات التي يعتقدون ان باستطاعتهم النجاح فيها بسهولة جدا والحصول على الشهادة الجامعية بدلاً من التخصصات التي يرغبون حقاً فيها. كانت هناك فرص كبيرة في البحرين للأطباء من أبناء البلد وحاولت أنا تشجيع بعض الشباب الذين إبتعثتهم الحكومة إلى تلك الجامعة على دراسة الطب ثم العمل بعد ذلك في هذه المهنة لخدمة مواطني بلادهم.

ولسنوات طويلة لم يكترث احدهم بهذه النصيحة بسبب طول مدة الدراسة والتدريب التي تمنعهم من الإقبال على هذا التخصص بالرغم من أنهم يدرسون على نفقة الدولة. لكن في الفترة الأخيرة قرر عدد من الطلاب الشباب التخصص في الطب وأحدهم الآن يدرس بإحدى الكليات في بريطانيا.

α α α

الفصل السادس عشر

عندما سقطت طائرتان في مياه البحرين!!

حوادث مزعجة وقعت لي أثناء طريق العودة!!

الإقامة في الخليج تتطلب الكثير من السفر عندما أريد العودة لبلادي أثناء الإجازة التي آخذها مرة كل سنتين خلال أشهر الصيف. كلانا، أنا ومارجوري نكره السفر عن طريق الجو ونجد أن الوسيلة الأكثر متعة للسفر هي بواسطة القطار. ولم نتخل عن السفر البري إلى أوروبا إلاّ في السنوات الأخيرة حيث كنا نستقل قطار طوروس الاكسبرس إلى اسطنبول ثم نركب قطار سمبلون السريع إلى مدينة كاليس وذلك لصالح رحلات شركة الخطوط الجوية البريطانية B.O.A.C المباشرة إلى لندن.

ونظراً لكثرة إتّباعنا لخط السير البري صرنا نعرف معظم المترددين على كابينة القطار التــي نجلس فيها الأمر الذي وجدناه مفيداً جداً. فكانت لدينا معرفة بصديق تركي يعمل بمكتب توماس كــوك في اسطنبول والذي كان يحمل ولدي جيمس ويمشي به على رصيف المحطة عندما كان طفلاً صغيراً.

ومضت السنوات وتقابل إبني مع صديقنا وكان طول جيمس وقتها ستة أقدام وخمــس بوصــات ووزنه 210 أرطال تقريباً لذلك أصبحت أيّام الحمل بالأيدي بعيدة جداً.

خط السفر البري أحياناً يكون مليئاً بالمغامرات والمفاجآت. ففي إحدى المرات التي سافرنا فيها عائدين إلى البحرين وقعت لنا ثلاث حوادث مزعجة أولها كانت على سهول الاناضول حيــث تصــادم القطار المقل لنا مع حافلة (باص) مزدحمة بالركاب في نقطة عبور مشتركة.

لقد كانت حادثة بشعة لم اكتشف أبداً عدد الأشخاص الذين قتلوا فيها وقد وقعت هذه الكارثة ليلاً والضوء الوحيد المتوفر ينفذ إلينا عبر نوافذ القطار ولم يكن هناك طبيب معنا وحتى لو كان موجــوداً فإنه لن يستطع إسعاف معظم الحالات. فقمت بالتعاون مع بعض الركاب بعمل مــا نســتطيعه خــلال الانتظار الطويل قبل وصول النجدة من مدينة نائية.

وأخرج رجال الشرطة سائق القطار وبعض المسؤولين فيه. ثم جاء سائق جديد وتحرك القطار مرة أخرى.

في اليوم التالي كنّا نستمتع بمنظر الطبيعة الخلابة فوق جبال توروس، وفجأة توقف القطار فــي مكان لم نعهده من قبل كمحطة وقوف. فقد استقر على خط السكة الحديدي دعامة خشبية كبيــرة تشــبه الجسر. طلب منا المسؤولون الخروج من القطار والمشي عبر ممر مؤقت غير آمن يمتد خلال ثغــرة بالدعامة فوق تجويف عميق وخطر، وتم تحميل امتعتنا بنفس الطريقة حيث إستقللنا قطاراً آخر لمتابعة الرحلة.

عندما وصلنا بغداد تركنا حقائبنا بالفندق الذي حجزنا للسكن فيه قبل السفر، وذهبنا مشــياً إلــى السوق لتسريح أرجلنا. واستغربنا خلو الشوارع من الناس والكثير من المتاجر كانت مغلقة، ولاحظــت أن العدد القليل من المارة ينظرون إلينا بفضول وتعجب، لذلك استنتجنا حدوث أمر هام بالبلد فعدنا فوراً إلى الفندق.

ورحب بنا مديره الذي يعرفنا جيداً على الباب وهو في غاية الدهشة. وسألنا قلقاً: "لماذا ذهبــتهم إلى الخارج؟ وأين كنتم خلال الساعات الماضية؟ ألم تعلموا بوقوع إنقلاب هنا هذا اليوم؟ لقد قتل خلاله جعفر باشا العسكري وزير الدفاع، والجيش الآن يتقدم للسيطرة على العاصمة".

وبالطبع لم نكن قد علمنا شيئاً من ذلك حتّى ساعة اخبارنا به. وأستمر مدير الفندق فــي طــرح أسئلته التعجبّية علينا، ألم تلاحظوا الطائرات الحربية وهي تحلق فوق بغداد؟ أم تشــاهدوا المنشــورات والبيانات التي تسقطها الطائرات؟.

في الحقيقة سمعنا أصوات طائرات حربية، لكننا اعتقدنا أنه شئ عادي كما أن أعيننا لم تقع على أية أوراق أسقطتها الطائرات. على العموم لقد قلّصنا مدة بقاءنا بالعاصمة وكنا محظوظين للحاق بالقطار الليلي الذي أخذنا إلى البصرة، حيث لم نواجه مفاجآت.

في هذه المدينة (البصرة) إلتقينا بأحد أصدقائنا وهو القبطان البحري المسؤول عن سفينة شراعية وحيدة الصاري الذي دأب على المجئ إلى البحرين والإقامة معنا. لقد كان يستعد للإبحار إلى البحرين خلال ساعتين وعرض علينا السفر معه في السفينة، فوافقنا دون تردد. وبعد أن سارت بنا السفينة ببطء عبر شط العرب بين غابات النخيل الخضراء المليئة بثمار الرطب الاصفر والأحمر والبني، جاء القبطان إلينا أثناء جلوسنا على ظهر المركب وقال: لقد حدث شئ غريب وغير مألوف، فالسفينة اقتربت من مدينة عبدان (الإيرانية)، وسوف يأتي قائد أسطول شرق الهند لمعاينة السفينة. وقال مخاطباً ما رجوري: يجب عليك أن تختفي عن الانظار. فاستجابت زوجتي لأوامر القبطان وقبعت في كابينتها، بينما ظللت أنا مكاني مع شعوري بأننا كنا مخطئين عندما قبلنا دعوته لأنني حسبما تذكرت أن هناك بعض القوانين التي تمنع ركوب النساء في سفن معينة.

ولما وصل قائد الأسطول الأميرال الكسندر رامسي إلى السفينة قضى بعض الوقت مع القبطان حيث قام بتقديمي إليه. وأول شئ نطق به الأميرال هو: أود أن أقابل زوجتك... فأسقط في يدي، لكنني ناديت مارجوري وحينما جاءت متترفزة نوعاً ما أخبرنا قبطان السفينة بأنه حصل على إذن باصطحابنا إلى البحرين قبل أن نصعد السفينة. أحسسنا حينها بالراحة عندما عرفنا أن الموضوع بأكمله لم يكن سوى مزحة ثقيلة!!.

لقد مررت بعدة مغامرات جوية خطرة أثناء الطيران فوق الخليج. في احدى المرات، وفي طريق عودتي من الإجازة، استقللت طائرة بحرية تابعة لسرب الطائرات العسكرية رقم 203 بالقوات الجوية الملكية البريطانية الذي يوجد مركزه بمدينة البصرة حيث كانت طائرتان متجهتان إلى البحرين.

وبالقرب من دولة الكويت حدث خلل بخزان وقود الطائرة وكان من الواضح ان البنزين قد بدأ يتسرب عبر الخزان.

قرر قائد الطائرة الهبوط في البحر فوراً. وتمت العملية بنجاح لكن في مياه ضحلة جدا ولحقت بنا الطائرة الثانية وهبطت إلى جوارنا.

أمرني الكابتن بأن أركب في الطائرة الثانية لكي أتابع السفر لكن دون أمتعتي معي بسبب امتلائها بالكامل. كان البحر لحسن الحظ دافئاً وهادئاً حيث ان عملية الانتقال تمت عن طريق السباحة والخوض في الماء. وصلت إلى البحرين وليس معي سوى حقيبة أسفنجية صغيرة أستخدمها لحفظ ساعتي وجواز السفر وما أحمله معي من نقود، وقد استلمت باقي أمتعتي بعد عدة أيام بواسطة طائرة أخرى تابعة للقوات.

الرحلة المخيفة جداً التي لم أشهد مثلها طوال حياتي كانت عندما وافقت على عــرض بركــوب طائرة عسكرية أمريكية من البحرين إلى كراتشي وكنت عازماً على السفر إلى كشمير لقضاء إجــازة قصيرة خلال سنوات الحرب "العالمية الثانية".

والطائرة التي استقللتها ضخمة ذات وزن ثقيل وصوت خفيف نسبياً، ويصحبها عــدة طــائرات صغيرة من النوع المعروف باسم موسكتيوز "البعوض"، استمرت في القيام بألعاب استعراضية جويــة حول الطائرة طوال سيرنا فوق منطقة الخليج حيث تأتي جميعها بالقرب من الطــائرة لدرجــة أننــي أستطيع أن أميز بوضوح الوقت على الساعة التي يحملها كل قائد طائرة في معصــمه. عبرنــا فــوق الساحل الإيراني ونحن نتحرك من جهة إلى أخرى وسط الجبال العالية والصخور المرتفعة. وازدادت الأمور تعقيداً حينما أبلغني الكابتن بأنه لم يسبق له المرور بالخليج من قبل ويأمل أن يكون سالكاً لخط السير الصحيح.

على الرغم من ذلك وصلنا إلى كراتشي بسلام وعرض الطيار بطريقة رقيقة جداً أن يوصــلني إلى دل هي، هكذا نطقها ويقصد بها دلهي، لكنني شكرته بحرارة وأخبرته بارتباطي ببعض الأعمال في كراتشي، وفي تلك الليلة ركبت قطاراً متجهاً إلى لاهور في طريقي إلى كشمير.

α α α

أغلب الأحيان تكون مياه الخليج ساكنة ومنظرها من الجو جميل جداً رغم أن اليابسة التي نطير فوقها صحراء جرداء وموحشة. ولا شئ يبعث على السأم أكثر من شبه جزيرة قطر أو جبال عمـان، فهذه المناظر تذكرني بالخرائط المتعرجة المعمولة من مادة اللدائن الطينية البنية اللون التي لا تبعـث على الارتياح أو تلطف من رتابة الجو.

لكن لون البحر المتألق يجعله أكثر البحار التي شاهدتها لمعانا وبريقا، ويمكن رؤية قاع البحـر تحت المياه الشفافة التي تعطي المرء الذي ينظر إليها انطباعاً بأن عمقها لا يتعدى بضعة أقدام حيـث يشاهد منخفضات دائرية في القاع تتخذ ظلالاً داكنة، وهناك بقع صغيرة ذات ألوان صفراء ذهبية حيث توجد الرمال ومجموعة رائعة من الالوان تتدرج من الازرق الباهت إلى الازرق المخضر عبر كل ظل أخضر. لكن الخليج ليس دائماً هادئاً وصافياً فأحياناً تهب رياح رملية من صحراء الجزيـرة العربيـة تحمل معها الاتربة البنية عبر البحر مسببة انعدام الرؤية تقريباً.

في 12 يونيو 1950 كنا نتناول طعام العشاء مع بضع الاصدقاء في المنامة ثـم أخـذنا نلعـب البريدج حتّى ساعة متأخرة من الليل، وهبت على البلاد ريح "البارح" فبقينا داخل المنـزل بـدلاً مـن الجلوس في الشرفة. وقد كتبت في مفكرتي بأن تلك الليلة كانت عاصفة جداً ومليئة بالغبار.

وقبل وقت قصير على مغادرتنا للمنزل سمعت صوت طائرة تحلق وتدور فوق المنطقـة التـي نحن بها لكن هذا الازيز مألوفاً في البحرين تلك الأيام.

في تلك الليلة أضجعت على غير عادتي داخل احدى غرفات منزلي رغم إننا في شـهر يونيـو وذلك بسبب كثرة الاتربة الرملية.

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، قبل أن أغادر البيت وأركب على فرسي للذهاب إلـى القلعة، تلقيت مكالمة هاتفية من مطار البحرين، الواقع بمدينة المحرق، تفيد بسقوط طائرة تابعة للخطوط الجوية الفرنسية في البحر القريب من جزيرة "سترة" ومن الواضح أن مصدر الخبر هو رجل شـاهده بعض طاقم سفينة راسية يسبحون في البحر، وإيصاله إلى شاطئ "سترة" فهرعتُ علـى الفـور إلـى سيارتي وانطلقتُ مسرعاً إلى القلعة.

وحينما وصلت إلى هناك أمرت بتجمع رجال الشرطة لكي أخبرهم عن الحادث. وأرسلتهم فـي قوارب الشرطة وعلى ظهور الجمال والخيول وبالسيارات لحراسة الساحل ثم اصطحبت معـي جـيم هايد، أحد الضباط البريطانيين العاملين معي وضابط بحريني شاب وأسرعنا إلى سترة التي تبعد حوالي 14 ميلاً عن المنامة.

كانت الزوارق البخارية التابعة لبابكو وقوارب السفن الموجودة في الميناء قد بدأت عملية مسـح مياه البحر بتلك المنطقة قبل وصولنا بساعات لكن الجو كان مظلماً ومضطرباً. خرجنا إلـى عـرض البحر في "لنش" بخاري وأخذنا نبحث لبعض الوقت لكننا لم نجد أحداً. بعد مرور فترة لا بأس بها تـم

انتشال خمسة أفراد من البحر وهؤلاء الاشخاص بالاضافة إلى الرجل السابق ذكره كانوا الوحيدين الذين تم إنقاذهم من مجموع 51 فرداً من ركاب الطائرة وطاقمها.

أمضيت طوال ذلك اليوم في سترة متنقلاً من أقصى الساحل إلى أدناه للاشراف على حراسة الشرطة ومحاولة انتشال بعض الأشخاص لكنهم للاسف كانوا قد فارقوا الحياة بسبب بقائهم فترة طويلة في الماء ولم تفلح الاسعافات الأولية في انقاذهم. نقل الستة الباقون على قيد الحياة إلى مستشفى عوالي التابع لشركة بابكو وذهبتُ أنا لزيارتهم للاطمئنان عليهم وعلى أمل أن أسمع شيئاً يتعلق بتحطم الطائرة لكنهم جميعاً كانوا في حالة لا تسمح لهم بإعطاء وصف صحيح ومتناسق للحادثة.

α α α

أوقعتْ الكارثة رعباً بين جميع البحرينيين. لقد قدم ملامح الطائرة من الهند الصينية حيث كان الجيش الفرنسي يقاتل ضد الشيوعيين وشاع اعتقاد في البحرين بأن عملية تخريب كانت وراء سقوط الطائرة.

في اليوم التالي وصل عدد من المسؤولين بالخطوط الفرنسية من باريس والقاهرة لتحري الموضوع، وكان يوماً رهيباً فقدت فيه رشدي وتعكّر مزاجي إلى أبعد حد. فقد طلب مني أن أساعد في عمل الترتيبات لدفع الجثث التي انتشلت من البحر في مقبرة المسيحيين الصغيرة التي ترعاها الارسالية الامريكية في البحرين.

وتطوع قسيسي الإرسالية بالاشتراك في مراسم الجنازات كذلك فعل قسيس الكنيسة الكاثوليكية لأنه لم يكن معروفاً أي الجثث تتبع الديانة المسيحية الكاثوليكية وأيها يتبع المسيحية البروتستانتية. أعلن عن موعد الدفن ثلاث مرات في ذلك اليوم وتوجه عدد من الناس إلى المقبرة، لكن في كل مرة يتم إلغاء المراسم لأن أمر نقل الجثث إلى فرنسا لا زال قيد المناقشة.

أخيراً تم تأجيل البت في الموضوع حتّى اليوم اللاحق حيث جرت عملية الدفن بالمنامة، وبعد بضعة أشهر نقلت التوابيت إلى فرنسا.

تغير الطقس ذلك المساء وأصبحت السماء صافية وصار الهواء نقياً من الغبار وانكسرت حدة العاصفة. وبعد يوم طويل ومرهق جداً أويت إلى فراشي بسطح المنزل، المكان الذي تعودت النوم فيه خلال الجو الحار. من عيوبي النوم العميق جداً وعادة ما يتطلب إيقاظي جهداً كبيراً خصوصاً عقب يوم حافل وشاق.

حوالي الساعة الثالثة صباحاً وقع شئ سبّب الازعاج. بدا لي أنني أسمع صوتا يتحدث عن تحطم الطائرة الفرنسية وعندما ذهبت إلى النوم كان فكري محشواً بتفاصيل الكارثة والمشاهد المؤلمة التي رأيتها، واعتقدت أنني أحلم.

رفعتُ رأسي فرأيت ضابطاً بريطانياً يقف بجواري وأنا لا زلت أشعر بالنعاس الشديد. سمعته يقول: "لقد سقطت طائرة فرنسية في البحر". فتمتمت قائلاً: "أجل.. أعرف كل شئ عن ذلك، لماذا جئت للحديث عنها الآن؟". ثم تبين لي أنه كان مستغرباً جداً وحانقاً، ورد فوراً: "إنها طائرة ثانية سقطت في

نفس المكان. قلت: "مستحيل... لا يمكن أن يتكرر الحادث مرة أخـــرى". حينهـــا أصـــبحت مســـتيقظاً بالكامل.

قال الضابط الشاب: "سيدي إنها حقيقة، هناك حادثة تحطّم ثانية في نفس الوقت ونس المكان الذي وقعت فيه الطائرة الأولى يوم أمس الأول".

تحققت في تلك الساعة أن ما يقوله الرجل لا بد أن يكون صحيحاً.

خلال لحظات تركت الفراش وأسرعت عبرا لسلم إلى الطابق الأرضي، غيرت ملابسي وأخبرت زوجتي مارجوري التي اعتقدت أنها نائمة بالداخل، لكنها كانت قد استيقظت قبل وعرفت أن هناك شيئاً طارئاً قد وقع لأن ضابط الشرطة اندفع بقوة إلى غرفتها بحثاً عن قبل ان يصعد إلى السطح. وبأقصى ما أستطيع من سرعة قدت سيارتي عبر الشوارع الخالية نحو القلعة وأبلغت رجال الشرطة للمرة الثانية بوقوع حادث مشابه، لكنه كان من الصعب إقناعهم بما أقول خاصة وأنهم متعبون ومستغرقون في نوم عميق بعد استنفارهم طيلة الليلة الماضية واليوم السابق.

أصدرت الاوامر مرة أخرى بإخراج الزوارق لغرض خفر السواحل ثم انطلقت برفقة جيم هايد وضابط آخر بسرعة جنونية إلى مرفأ سترة. لا زلت أشك في احتمال حدوث كارثة ثانية. قلت لنفسي: "لابد أن يكون هناك خطأ ما، ربما شاهدت الطائرة الاخرى الطائرة الأولى وهي تهـــوي إلـــى البحـــر فأبلغت عن سقوطها كخبر طازج".

كان هناك عدد قليل من الأشخاص على رصيف تحميل السفن وتفريغها "الورف" ولم تكن أنبـــاء الكارثة قد انتشرت بعد. لا زالت الدنيا مظلمة وهناك حركة في البحر وزوارق الميناء شـــرعت فـــي البحث حول البحر المحيط بجزيرة سترة. وركبنا ثلاثتنا في زورق بخاري صغير، تبين لنا فيما بعد ان محركه غير فعال. وبعد فترة زمنية وجيزة رأينا رجلاً يسبح فتوجهنا نحوه وحاولنا حمله إلى الـــزورق لكننا واجهنا صعوبة شديدة في ذلك لأنه كان في آخر رمق، لكن، بعد كفاح طويل، نجحنا في سحبه إلى أعلى. استمرينا في سيرنا في اتجاه مقارب لموقع تحطم السفينة الذي وصفوه لنا. ثم رأينا شخصاً آخر يعوم في الماء لكنه كان شاباً وبالتأكيد هو أقوى على السباحة من الرجل الأول، فانتشلناه إلى الـــزورق دون مشقة. ما أثار دهشتي كثيراً إننا حالما التقطنا الشاب ورفعناه إلى ظهر اللنش أول ما بادر به هـــو الإنزعاج والحزن بسبب تعطل ساعته التي غمرتها المياه. حالة الرجل الأول كان سيئة جداً لذلك قررنا نقله إلى الشاطئ وأثناء رجوعنا عثرنا على أجساد عديدة عائمة فوق سطح البحر.

عندما وصلنا إلى الرصيف كان عدد من الزوارق قد بدأ فعلاً في عملية مسح المنطقة بمســـاعدة طائرة تحلق أعلاها. أخذنا الرجلين إلى حجرة صغيرة بالرصيف حيث وجدنا شخصين آخرين كان قد تم انقاذهما سابقاً بانتظار سيارات الاسعاف لنقلهما إلى المستشفى. أحدهما كان مســـتلقياً علـــى أريكـــة فخمّنتُ أنه قائد الطائرة أو أحد أفراد طاقمها، كرر هذا الرجل عدة مرات القول بأن أجهـــزة الطـــائرة أظهرت قبل ثوان من سقوطها بطريق الخطأ أنها على ارتفاع كبير من سطح الأرض، وهذا الخلل في الأجهزة كان سبب تحطمها.

بعد وصولنا إلى الرصيف مباشرة، جلبت فتاة إلى الشاطئ في زورق تم انقاذها من وسط البحر، وهي شابة صغيرة جداً ونحيلة لا يبدو عليها المقدرة والطاقة على السباحة الطويلة. وما أن دخلت غرفة الاستراحة حتّى بادرت بطلب سيجارة، ثم أعطاها رجل سروالاً قصيراً قديماً "شورت" فارتدته، وخلال دقائق صارت تحمل أكواب الشاي إلى المسافرين الآخرين وتعمل كل ما في وسعها بهمة ونشاط والعمل على تهدئتهم وتوفير راحتهم. عرفت فيما بعد أنها مضيفة الطائرة ونادراً ما رأيتُ إمرأة في مثل شجاعتها وقوة تحملها وأدائها.

فعندما نقلناها إلى المستشفى الحكومي فيما بعد، رفضت أن يعالجها الممرضون قبل معاينة جميع الناجين الآخرين من ركاب الطائرة وذلك رغم الصدمة والكلل الشديد الذي سببه الحادث للجميع. علمت بعد سنوات أنها تزوجت من بريطاني يعمل في خدمة جيش المستعمرات بغرب أفريقيا. عدد الذين تم انقاذ حياتهم في كارثة سقوط الطائرة الثانية بلغ ثلاثة عشر شخصاً، وعدد الضحايا الذين فقدوا أرواحهم ثمانية وثلاثون ومجموع ضحايا الطائرتين المنكوبتين معاً بلغ ثلاثة وثمانين فرداً من الرجال والنساء والأطفال، بينما كتبت النجاة لطفل واحد فقط من بين أحد عشر طفلاً.

غالبية ركاب الطائرتين السالمين نقلوا إلى المستشفى الحكومي العام فيما عدا البعض من ذوي الاصابات الخطيرة الذين ظلوا بمستشفى مدينة عوالي ووفرت لهم الرعاية والاهتمام.

وقدم إلى البحرين مسؤول بارز بالطيران الفرنسي وإسمه م. موريس بيلونت لتقصي المعلومات حول سقوط الطائرتين، كما قام المعتمد السياسي البريطاني والمسؤولون في وزارة الطيران المدني البريطانية بالتحري والتحقيق في الحادثتين. ولعدة أيام، ازدحمت البلاد بالمراسلين والصحفيين ومسؤولي الطيران وممثلين لسفارة فرنسا في العراق.

راجت شائعات قوية عن عملية تخريبية إستهدفت الطائرتين، ونشرت الصحف الأوروبية، خاصة الفرنسية منها اجتهادات وتحليلات متعددة وراء الأسباب المحتملة الدافعة للتخريب إذ كان من المعروف أن الطائرتين كانتا قادمتين من الهند الصينية حيث يخوض الجنود الفرنسيون حرباً عنيفة ضد الفيتناميين.

وتبين بعد ذلك أن أحد المسافرين حمل معه تقريراً كاملاً حول عمليات سرية واسعة لتهريب الذهب وبيع المخدرات تورط فيها عدد من الشخصيات الهامة في الهند الصينية.

وذكرت الصحف أن هذه الشخصيات هددت باتخاذ شتى الاجراءات الكفيلة بمنع الكشف عن نشاطاتها. تحليل لصحيفة أخرى عزا سبب تحطم الطائرتين إلى وجود أحد المسؤولين الحكوميين الفرنسيين الكبار بين ركاب احداهما، وكان يحمل معه وثائق مهمة تتعلق بعقد اجتماع بين فيتنام، كمبوديا ولاوس في وقت لاحق بفرنسا.

وبالطبع لم يعقد الاجتماع. لم يعلن عن نتائج التحريات التي جرت في باريس حول الكارثة فيما بعد، لكنني أشك في معرفة السبب الحقيقي وراء سقوطهما حتّى الآن. الرواية المتداولة بين معظم البحرينيين تقول بأن الطائرة الأولى وقعت في البحر نتيجة لسوء الأحوال الجوية، ثم حلقت الطائرة

الثانية على ارتفاع منخفض فوق مكان سقوط الطائرة الأولى لكي تتبين موقعها لكنها كانت تحلق على ارتفاع منخفض اكثر من اللازم مما تسبب في تحطمها. أيضاً لم تسلم البحرين من الكوارث الجوية عندما هوت طائرة تابعة للخطوط الجوية البريطانية لما وراء البحار B.O.A.C من نوع "كوميت" في الاراضي الايطالية أثناء رحلتها إلى لندن وعلى متنها أحد عشر مسافراً من البحرين.

الفصل السابع عشر

انتابني الارتباك وأنا ألقي كلمتي في حفل تكريمي

نخلة من الذهب هدية من مواطن بحريني

أغرب زواج تم بين السماء والأرض

طيار بريطاني سابق وراء تأسيس طيران الخليج

في ربيع 1950 تأسست شركة طيران الخليج بالبحرين وهي مشروع يعود الفضل في قيامه إلى ضابط سابق بالقوة الجوية الملكية (R.A.F) إسمه فريدريك بوسورث الذي جلب طائرته إلى البحرين من العراق حيث فضل في إنشاء شركة مماثلة هناك. هذا الرجل كان مليئاً بالنشاط محباً للمغامرة وليس من السهل إحباط عزيمته بالإضافة إلى كونه طيارا ًخبيراً لكنه لم يكن يمتلك إلاّ القليل من رأس المال. إجتمعتُ معه وناقشنا مشروع تكوين شركة طيران لنقل المسافرين وشحن البضائع والأمتعة عن طريق الجو بين مناطق الخليج المختلفة التي لا تغطيها الخطوط الجوية البريطانية لما وراء البحار (B.O.A.C) وتوفير رحلات خاصة مؤجرة كلما زاد الاقبال عليها.

من طبيعتي الحذر خصوصاً في مثل هذه الحالة مراعياً في ذلك ميزانية الدولة لكنني على غير العادة أعجبت بمشروع بورسورث. تحدثت مع الشيخ سلمان حول هذا الموضوع واخذت موافقته لمساندة المشروع.

في بداية الأمر واجهتنا صعوبات عديدة، فالأموال المتوفرة غير كافية وليس من السهل الحصول على طيارين ومهندسين مناسبين للإلتحاق بشركة جديدة صغيرة بالخليج العربي الذي لا يعرف الأوربيون إلاّ معلومات ضئيلة عنه لذلك عمل بورسورث كمدير تنفيذي ورئيساً للطيارين، وقامت زوجته لفترة من الزمن بإعداد حسابات الشركة. ثم أعطت الحكومة قرضاً إلى الشركة واستثمر الشيخ وبعض أفراد العائلة الحاكمة أموالهم بها. وحذا عدد من التجار البحرينيين حذو الشيخ واشتروا أسهماً في طيران الخليج. وبمساعدة وتأييد الخطوط الجوية البريطانية التي لولاها لما قامت للشركة قائمة، بدأت طيران الخليج بالتطور والتوسع.

إن موقف البحرينيين تجاه تكوين الشركات المحلية دائماً يثير الفضول. لقد دأبوا باستمرار على إبلاغي ان هذه الشركة أو تلك تدار بطريقة سيئة ويجب أن أفعل شيئاً حيالها، فعلى سبيل المثال اشتكى

الأهالي من خدمات الباصات واللنشات التي تسير بين البحرين والمملكة العربية السعودية والتي يديرها عد من المواطنين بصورة خاصة ومستقلة دون تنظيم أو وجود مواعيد معينة للسفر.

عندما يأتي التجار إليّ ويتظلمون من هذه الأمور وغيرها غالباً ما أقوله لهم: "لماذا لا تتعـــاونوا معاً وتنشئوا شركة أهلية لإدارة هذه الخدمات بكفاءة"، فيردون قائلين: "ينبغي أن تقوم الحكومـــة بهـــذا الدور".

فأجيبهم: "الحكومة لديها كثيرة للاهتمام بها ولا يتسع المجال لهـــا للاشـــراف علـــى شـــركات المواصلات لكنكم اذا أسستم هذه الشركة فان الدولة ستساهم في رأسمالها"، ومع الأسف فإن هذا الرد لا يروق لهم. العديد من المواطنين إعترفوا لي في فترات لاحقة بأن المشكلة هي عدم وجود الثقة بين كل شخص وآخر ولذلك من المستحيل العمل بصورة جماعية. في نفس الوقت إذا أبدى الأجانب رغبـــتهم بإنشاء شركة في البحرين فإن الأهالي يشتكون من أن الباب أصبح مسدوداً أمـــامهم للقيـــام بمشـــروع مربح، وهذا الأمر يذكرني بالمثل الإنجليزي القائل: "لا يستعمل شيئاً ولا يدع غيره يســـتخدمه". لكـــن طيران الخليج خالفت هذا المثل، فالإدارة الفنية كانت بأيدي أشخاص أوروبيين ونسبة لا بأس بها مـــن رأس المال جاءت من البحرين وحوالي نصف المدراء كانوا بحرينيين كما أسندت لي الرئاسة الشرفية للشركة.

مع مرور الوقت أصبح من السهل الحصول على طيارين بريطانيين رغم إن بعضـــهم ليســـوا بالمستوى المطلوب. أحد الطيارين قام بدعاية إعلامية واسعة لطيران الخليج عندما كان يقود طائرة من طراز "انسون" من المملكة المتحدة إلى البحرين وتوقف خلال خط سيره في فرنسا وعقد قرانـــه علـــى امرأة شابة تعمل كمضيفة جوية لإحدى شركات الطيران في جنوب أفريقيا. فـــي أحـــد الأيـــام طـــار الخطيبان وحلقا فوق القنال الإنجليزي مصطحبين معهم ملاحاً جوياً تابعاً للشركة وفي أعلى الجو رتب لهما الكابتن عملية الزواج. ثم عادا إلى فرنسا وأعلنا عن زواجهما وصار هذا الخبر حديث الصحف في فرنسا وبريطانيا وتصدَّر الصفحات الأولى بعناوين كبيرة تصف قصة "الزواج في الهواء"، وكان هناك جدل حول اعتبار هذا الزواج شرعيا أم لا، وقد لخصت صحيفة ما الموقف بعنـــوان رئيســـي يقـــول "زواجهم لا يزال معلقاً في الهواء". بعد زيارة الزوجين لكورسيكا جاءا إلى البحرين على متن طـــائرة "الانسون" لكن الطيار وزوجته لم يستمرا طويلاً في خدمة طيران الخليج.

مع حلول صيف 1951 بدأت الشركة في التطور والنمو ووقعت اتفاقية للتعاون المشترك بـــين طيران الخليج وشركة الخطوط الجوية البريطانية لما وراء البحار وأصبحت آمال المستقبل تبعث على التفاؤل. ثم حدثت مأساة، فقد سافر بوسورث إلى بريطانيا في مهمة تتعلق بالشركة، وفي يوم 10 يونيو وهو اليوم السابق لمغادرتي البحرين لقضاء إجازتي السنوية وصلتني أ×بار تفيد بمقتله في حادث تحطم طائرة هناك.

أحدث موت بوسورث هزة مؤلمة ومحزنة بطيران الخليج وقبل أن أسافر قمت بتعيين مســـؤول حكومي هو هوج. بي ثومبسون للقيام باعماله وأعمالي بصورة مؤقتة وخلال وجودي في لندن أمضيت

وقتاً طويلاً في معالجة شؤون الشركة. في نهاية الأمر إشترت الـــ B.O.A.C حصـــة بورســوث وزوجته في طيران الخليج. وعلى الرغم من خسارة الشركة لهذا الرجل إلاّ أنها إستمرت في النجــاح والازدهار وقد تطورت الآن لتصبح شركة طيران مهمة رغم صغرها فهي تقدم خدمات نافعة وتــؤدي أغراضاً مفيدة بمنطقة الخليج.

هناك رواية كتبها الأديب نيفيل شوت إسمها "حول القوس" بعد أن أمضى عدة أيام في البحـــرين وإمارات الخليج قضى معظمها على ظهر مركب شراعي. الشخصية الرئيسية في الرواية كما وصفها المؤلف بمقدمة الكتاب تشبه إلى حد كبير فريدريك بورسورث.

α α α

الفصل الثامن عشر

كنت سعيدا بلقب "سير"

في فبراير 1951 إحتفلنا أنا ومارجوري باليوبيل الفضي لزواجنا (أي مرور 25 سنة على هذه المناسبة) بإقامة حفلة عشاء لخمسة وعشرين شخصاً من أصدقائنا الحميمـــين جـــداً، وكانـــت الوجبـــة الرئيسية غزالاً أهداه الشيخ سلمان إلينا. بعد بضعة أسابيع صادفت الذكرى الخامسة والعشرون لمجيئنا للبحرين وعلى غير علمنا نظم مسؤولون بحرينيون إحتفالاً لتكريمنا بحلول هذه الذكرى. ودعـــى كـــل مواطن يعمل في دوائر الدولة إلى الإشتراك والمساهمة بأي مبلغ مهما كان منصبه أو مركزه الحكومي وتمت دعوة كل شخص تجاوب معهم إلى حفلة شاي بالحديقة المائية في 31 مارس.

هذه الحديقة كانت في الماضي مستنقعاً غير صحي يقع في ضواحي المنامة وأمرت في السنوات الأخيرة بتحويلها إلى منتزه عمومي جميل.

تجمع المئات من المدعوين بالحديقة، وحضر الشيخ سلمان وعدد كبير من أفراد العائلة الحاكمة الحفل، كما حضره قضاة المحكمة بثيابهم البيضاء رغم أنهم لا يظهرون في الاحتفالات العامة إلاّ نادراً. وكان كبار المسؤولون الحكوميين في الدولة وضباط الشركة على رأس قائمة الضيوف، لكن ما أدخـــل السرور والإرتياح إلى نفسي هو كثرة المواطنين العـــاديين والمســـتخدمين فـــي المكاتـــب الحكوميـــة "الفرّاشين" الخدم، المزارعين، والعمال والموظفين الذين أتوا جميعاً مرتدين أحسن الملابس للمشـــاركة في هذه المناسبة.

في ذلك اليوم شعرتُ بالنرفزة والإرتباك إلى أبعد الحدود ولا أتذكر طيلة حياتي أنننـــي مـــررت بمثل هذه الحالة. كنت أعرف أنه لا مفر من إلقائي لكلمة شكر أمام الجمهور رغم إني أتجنب دائماً مثل هذا الأمر.

ففي فترة شبابي كنت أتلعثم كثيراً وأتحدث بصورة سيئة جداً، وفي المناسبات الشبيهة بهذه غالباً ما أتخوف من الوقوع في هذا المطب مرة أخرى.

بعد إلقاء بعض الكلمات أهداني الشيخ سيفاً عربياً داخل غمد مصنوع من الذهب. ثم تقدم رجـــل وهو يحمل بعناية فائقة جداً شيئاً مغطى بقماش حريري، اعتقدت لأول وهلة أنه قفص كبيــر للطيــور. وُضع "الشئ" على المائدة أمامنا (أنا وزوجتي)، ولم تكن لدينا أدنى فكرة حول ماهيته.

رفعت القماش ووجدت نخلة ذهبية رائعة يبلغ إرتفاعها حوالي قدماً واحداً، يتدلّى مــن أعلاهـــا عناقيد صغيرة من حبات اللؤلؤ تمثل الرطب وهي مثبتة فوق قاعدة فضية مستديرة الشكل. علمت فيما بعد أن صائغاً هندياً ماهراً قام بصناعتها بطريقة فنية متقنة تدعو إلى الإعجاب.

لقد كانت تحفة جميلة غير عادية. بعدها إرتجلت كلمة شكر مليئـــة بالأخطـــاء والتمتمـــة غيـــر المفهومة لدرجة أن أغلب الحاضرين أرجعوا سبب إرتباكي إلى تأثري وإلى الاحاسيس التي انتـــابتني والعواطف التي غمرتني من جراء التكريم، وهو سبب صحيح جزئياً.

في نفس اليوم تلقينا هدايا أخرى. فقد قدمت مدارس البنات سجادة إيرانية بديعة إلى مارجوري، وأهدتني جماعة "الحلقة" وهي مجموعة من الشباب البحرينيين الذين درسوا بالجامعة الأمريكيـــة فـــي بيروت صندوقاً لحفظ السجائر مزيناً بخارطة فضية للبحرين على الغطاء؛ يخيط بها سلسلة دائرية ترمز إلى الحلقة، شعار هذه الجماعة.

أما القضاة فقد قدّموا لي صورة كبيرة لمبنى المحكمة موضوعة في إطار مصنوع من الفضلة به نقوشات جميلة. في ختام الإحتفال أقمنا حفلة كوكتيل لما يقارب المئتي شخص فـــي رقعـــة خضـــراء بالحديقة.

عشية رأس السنة الميلادية لعام 1952 منحت ملكة بريطانيا الشيخ سلمان لقب

K.C.M.C (أي قائد الفرسان بالامبراطورية الهندية التابعة لبريطانيا العظمى) وكان قبل ذلك يحمل رتبة K.C.I.E أي فارس بنفس الكتيبة. لكن ما أثار دهشة الشيخ واستغراب الناس هو عدم نشر الخبر في الصحف الإنجليزية.

وعندما إستفسرت عن السبب، قيل لي بأن الأوسمة والرتب الشرفية الممنوحة للاجانب لا يعلـــن عنها في الصحف مخافة حدوث ردود فعل أو مضاعفات غير مرغوبة بالخارج. وقد وجحدت صعوبة في توضيح هذه المسألة للشيخ وشعرت أنه لأمر مخزٍ وغير عادل أن يظل موضوع تكـــريم صـــاحبة الجلالة الملكة لحاكم صديق طي الكتمان إلى حد ما.

في يونيو 1952 تم منحي وسام "فارس" حسب الرتب العسكرية للامبراطورية البريطانية، وفي شهر يوليو سمح لي الشيخ سلمان بالذهاب إلى بلادي لمدة عشرة أيام لحضور حفل "تقليد الأوسمة" في قصر بانكجهام. لم أكن أتوقع الحصول على اللقب، وعندما أخبرني المقيم السياســـي البريطـــاني فـــي البحرين السير روبرت هيه بالنبأ السار، شعرت بأنه مفاجأة من أسعد المفاجآت التي مررت بها طوال حياتي.

فأنا لست ممن يتحدثون بلامبالاة أو عدم اكتراث بالنياشين والالقاب الكبيرة، فلقد غمرتني سعادة لا توصف عندما حصلت على لقب "سير" بدلاً من كتابة إسمي "مستر بلجريف" خاليـــاً دون رتبـــة أو

درجة عالية تسبقه!! لقد مضت سنوات طويلة على حصول أحد أفراد عائلة بلجريف على هذا اللقـب، وآخر شخص حصل عليه قبلي كان جدّي الأكبر السير جورج بلجريف بمدينة ليسيتر شاير الذي وقعت له مشاكل مع محافظ هنتجدون وقدم إلى المحاكمة أمام قاعة النجوم في عام 1601 "قاعة النجوم هـي محكمة إنجليزية اشتهرت بمحاكماتها السرية الاعتباطية الظالمة وقد ألغيت عام 1641 ــ المترجم".

في ديسمبر من نفس العام، تلقت زوجتي مارجوري دعوة من شركة نفـط البحـرين (بـابكو) لحضور حفل تدشين ناقلة النفط الجديدة المسماة كالتكس بحرين في بريطانيا، ولما كان الشيخ على علم ببرودة الطقس هناك في ذلك الشهر فقد أرسل لها بعض الملابس الثقيلة قبل سفرها بيوم واحـد لكـي تستعين بها ضد شتاء بريطانيا القارس، وهي بادرة تدل على عطف سموه وإهتمامه الشديد بنا.

وكان حفل التدشين قد أقيم في جو ثلجي عاصف، وقدمت مارجوري هدية تذكارية إلـى طـاقم السفينة عبارة عن لوحة بالألوان المائية لساحل البحر بمدينة المنامة وهي احدى اللوحات التي رسمتها أنا سابقاً بالإضافة إلى "دلّة" قهوة عربية مصنوعة من الفضة.

استمرت الحياة في البحرين حافلة بالتنوع والأشياء الممتعة. كنت أدون معظم الأمور والمواعيد في مفكرتي، فورقة واحدة ليوم نموذجي من أيام العمل تحتوي على التالي:

الخروج مع رجال الشرطة قبل الافطار ــ لا يوجد متقدمون لشغل الوظائف بما فيه الكفايـة ــ صباح ملئ بالعمل المتواصل دون توقف في المكتب ــ موعد مع السيد "ج" من المعتمدية البريطانيـة حول الترتيبات للمعرض الذي سيقام الاسبوع القادم عندما ينال الشيخ سلمان رتبة قائد الفرسان ــ موعد مع أحمد (تاجر كبير) حول مشاكل التجارة في المملكة العربية السعودية ــ اجتماع مع مدير المعارف حول شؤون المدارس لمدة ساعة ــ موعد مع شيخ (أ) حول الأرض التي يريد أن يبيعها لأحد أتباعه ــ إجتماع مع سكرتير بلدية المحرق لمناقشة تطبيق نظام جديد للانتخابات ــ قسيس الكنيسة الرومانية الكاثوليكية يعلن عن وصول مطران الكنيسة إلى البحرين ــ هذا اليوم دعوت المطران إلى مأدبة غداء ــ جلسة مع مسؤول من القوة الجوية الملكية R.A.F حول السكن ــ الشيخ حافظ وهبة وصل اليـوم من لندن، دعوته إلى البقاء في البحرين ــ قمت بتقليم حديقة المنزل وتنسيقها بعـد الغـداء ــ نباتـات الدهلية ذوات الأزهار الكبيرة الجميلة تنمو على ما يرام ــ عشاء في القصر على شرف ضيوف أجانب ــ دعوت بعضهم الى البيت بعد ذلك.

الأشهر الأخيرة من عام 1951 وجزء من عام 1952 م شهدت مفاوضات مـع شـركة بـابكو لتوقيع إتفاق جديد حول تقاسم أرباح عائدات النفط بالمناصفة. هذه المفاوضات شغلت أغلـب وقتـي، وكانت طويلة، ومرهقة، لكننا سعدنا للنتيجة النهائية الناجحة التي توصلنا إليها.

لقد واجهت صعوبة في شرح تعقيدات وتشعبات قانون الضريبة على الدخل المطبق في الولايات المتحدة والذي دارت حوله المناقشات أثناء المفاوضات.

حضر الشيخ معظم الاجتماعات ولعب دوراً هاماً في التفاوض والمساومة والنقاش المكثف لعدة ساعات دون كلل. ايرادات البحرين في عام 1951 بلغت 2 مليون ونصف جنيه استرليني، اكثر بكثير عما كانت عليه قبل عشرين سنة عندما كانت ميزانية الدولة 100.000 جنيه فقط!!

في هذه السنة بدأ اسم البحرين يتكرر في الصحافة الامريكية والأوروبية والكتب المتعلقة بالشرق الأوسط. العديد من المراسلين الأجانب زاروا البلاد وكتبوا عنها مقـالات جيـدة مشـيدين بنهضـتها واقتصادها ـ القليل من المجلات والجرائد العربية دأبت على انتقاد نظام الحكم في البحرين، والصحف الوحيدة التي هاجمت الحكومة هي صحف يسارية الاتجاه.

مع ازدياد نمو الدخل اصبح من الممكن تطوير الخدمات الاجتماعية هنا. ففي عـام 1951 تـم تشييد وافتتاح سكن لطلبة المدارس الثانوية. وأشرف على تصميم المبنى الميجور ستانلي هلز الذي عمل لعدة سنوات كمدير لدائرة الاشغال العامة.

الهندسة المعمارية للسكن كانت تشبه طريقة المباني المحلية التقليدية لكن تزيين كل زاوية مـن زوايا الجهات الأربع برواق معمّد مسقوف على شكل قوس أعطى المبنى منظراً فنياً بديعاً، فالكثير من الأشخاص الانجليز الذين يزورونه يعترفون بأنه أجمل وأفضل من المساكن الطلابية للمدارس العمومية التي درسوا فيها.

وفي يوم الافتتاح مارجوري كلمة بهذه المناسبة من على المنصة لصفتها مديرة التعليم لمـدارس البنات، وهي أول امرأة تشترك في مناسبة عامة في تاريخ البحرين.

المهندس المعماري هلز أيضاً صمم في فترة لاحقة القصر الجديد للشيخ سـلمان الواقـع علـى الساحل قرب المنامة.

قصر القضيبية

لم يكن هذا القصر يستخدم كسكن، بل كمكان لاستقبال الضيوف، وقد قمـت بنفسـي بتخطـيط الديكور والاضاءة وطلب ثريات الانارة الزجاجية من مدينة البندقية لوضعها في مجلـس الاسـتقبال، والشمعدان الذهبي اللون لغرفة الطعام.

احدى النساء من طبقة النبلاء جاءت إلى البحرين مباشرة بعد اكمال بناء القصر وأعربت عـن أسفها لعدم مشاركتها في المساهمة في اعداد الديكورات الداخلية للقصر.

وقد تم حسن ضيافتها والحفاوة بها من قبل الحكومة والشيخ، لكنها بعد رجوعها إلـى بريطانيـا كتبت مقالاً وقحاً جداً أساءت فيه إلى عادة الكرم العربي وأخذت تسخر وتستهزئ بمأدبة العشاء التـي أقامها سمو الشيخ على شرفها!!!

تطور مرافق الدولة

التعليم والصحة لشعب البحرين موضوعان أولاهما الشيخ سلمان اهتماماً عظيماً وصرفت نسبة كبيرة من ايرادات الدولة على هذين المجالين. أنا شخصياً أعتبر "الصحة" أهم بالنسبة للبحرينيين مـن

تعليمهم. ولم يكن تطور الخدمات الصحية والطبية في البلاد وقفزتها قفزات سريعة دون صعوبات فكلما وظفت الحكومة أطباء وممرضين جدد، كلما تشعبت المسؤوليات، وكلما افتتحت عيادات ومستشـــفيات جديدة، لاحظت نزعة متزايدة بين الشباب الأثرياء نحو الوسواس والاجراءات الاحتياطية التي لا أساس لها للوقاية من الأمراض!!

لقد أبدوا عناية كبيرة زائدة عن اللزوم بصحتهم، واستمتعوا جداً بالحديث عن أعراض كل مرض وعلاجه والأدوية التي تستعمل للقضاء عليه.

فالتفاصيل الطبية كضغط الدم كانت موضوعاً دائم النقاش في جلساتهم العادية.

أتذكر في احدى المرات أن شابين بحرينيين كان يتكلمان حول هذا الموضوع وسألني أحدهما "كم يبلغ قياس ضغط الدم لديك اليوم؟" فأجبته قائلاً: انني لا أدري، لقد مضت سنوات على أخر مرة أجريت فيها فحصاً لدمي.

فاندهش الشابان لردي وأخبراني بأنهما يفحصان ضغطهما مرة واحدة كل اسبوعين!! وطبعاً لا يوجد سبب أو داع لهذا التصرف الوقائي.

المتاجر والصيدليات التي تبيع الأدوية المرخصة حققت ازدهاراً ملحوظـــاً، وكســـب الأطبـــاء الاخصائيون الخاصون أموالاً طائلة باعطاء الحقن للمرضى الذين يترددون على عياداتهم.

فهؤلاء المرضى يؤمنون ويعتقدون اعتقاداً راسخاً بفعالية الحقنة أو الابرة كما يسمونها في علاج جميع الأمراض ولا يقبلون بدواء غيرها، وعندما يعطيهم الطبيب المناوب في المستشـــفى أو العيـــادة حبوباً أو دواء آخر غير الابرة فانهم يرمونه أو لا يستعملونه ويتجهون إلى طبيب ثان دون أن يخطروه بأنهم عولجوا سابقاً على يد دكتور غيره وذلك من أجل الحصول على الحقنة!

وفي بعض الأحيان ينتقل المريض من طبيب لآخر ومن عيادة لأخرى في سبيل الحصول على الإبرة الشافية، فالوعي الصحي لم يكن موجوداً بصورة واسعة في تلك السنوات المواطنون الأكثر تعلماً لديهم حساسية مشابهة تجاه أشعة اكس X- Ray فهم يطلبون دائماً أخذ أشعة لأي نوع من المرض أو الاصابة حتّى ولو كان حجمها أو خطورتها تافهة، وإذا لم يستجب الدكتور لطلبهم، يخرجون من غرفته وهم يرددون: انّه ليس طبيباً جيداً، ولا يصلح لهذه المهنة.

الإقامة في المستشفيات كانت محدودة مع وجود القليل من الأجنحة والغرف الخصوصية، لكـــن الشخصيات البحرينية الهامة تطالب دائماً بوضعها بغرف خاصة في حالة المرض في أي وقت كـــان، ودون اشعار مسبق كما تريد تطبيق نفس الشئ بالنسبة لأفراد عائلاتها، وإذا أدخل هؤلاء إلـــى غرفـــة مشتركة بالمستشفى فانهم يتوقعون من الطبيب أن يعمل على اخلائها من باقي المرضى. وفي رأيي هذا السلوك أو التصرف لا يعتبر ديموقراطياً.

مستشفى خاص للنساء

في عام 1952 حصلت على موافقة الشيخ على رصد مبلغ ضمن الميزانية لبناء مستشفى كبير خاص بالنساء ومستشفى آخر لمعالجة المصابين بالسل الرئوي (تي . بي T.B) بدلاً من إرسالهم إلى مصحة طبية بالهند لأشهر طويلة.

هذا المرض كان منتشراً بين الأهالي، وتم إفتتاح المستشفى الخاص لعلاج حالاته (مستشفى الأمراض الصدرية) مع بداية عام 1956 بينما لم يستكمل تشييد مستشفى النساء إلاّ بعد مرور فترة لا بأس بها من مغادرتي البحرين نهائياً في عام 1957.

قمت بتنفيذ مشروعين لتحسين الأحوال المعيشية للمواطنين، أحدهما بناء عدد من البيوت السكنية الصغيرة المبنية من الحجارة للعمال، وقد جهزت هذه البيوت بالماء والكهرباء وتم تأجيرها بمبالغ شهرية منخفضة. أما المشروع الآخر فهو تطبيق نظام للقروض يستفيد منه الموظفون والمستخدمون الحكوميون لشراء الأراضي وبناء المنازل.

لقد لقي مشروع الاسكان نجاحاً عظيماً، وصارت هناك منافسة شديدة بين البحرينيين للحصول على إستئجار الوحدات السكنية المخصصة للعمال من ذوي الدخل المتدني أو المحدود وبين الأسر الكبيرة العدد التي تسكن في الأكواخ المصنوعة من أغصان النخيل "البرستيات".

أما مشروع القروض المالية فلم يكن بنفس درجة نجاح الشروع الأول حيث اكتشفت فيما بعد أن أغلب الذين استفادوا منها شيدوا منازل صغيرة وجميلة على الطراز الحديث وقاموا بتأجيرها على أشخاص آخرين ــ عادة من الأجانب والمغتربين المقيمين بالبلاد ــ بمبالغ مرتفعة، في الوقت الذي استمروا فيه بالسكن في بيوتهم الشخصية غير الصحية أو غير الملائمة للعيش داخلها.

أنا وابني جيمس جمعنا التبرعات لبناء كنيسة في البحرين

بيروت احتفلت بزيارة أمير البحرين

مشروع آخر أردنا تنفيذه أنا ومارجوري وأبدينا إهتماماً كبيراً به، ذلك هو إنشاء كنيسة إنجليكية في البحرين. وقد أصبح هذا المشروع ممكناً مع تأسيس شركة بابكو وإزدياد الجالية الأوروبية بالبلاد، فشكلنا لجنة لمتابعة أمور الكنيسة وكانت تحت رئاستي لسنوات طويلة. قبل إنشائها كانت تقام صلوات مغلقة في عوالي وسمحت الشركة بإستخدام أحد المباني لهذا العرض، لكن الطقوس الدينية لم تكن دائماً حسب المسيحية الانجليكية.

يرجع نجاح مشروعنا بالدرجة الأولى إلى القس هنري وستون ستيورات من كاتدرائية القديس جورج الانجليكية بمدينة القدس والذي جاء إلى البحرين في نفس السنة التي جئت فيها (1926)، وأصبح فيما بعد مطراناً للكنيسة الانجليكية بنفس المدينة، وكان أحد أصدقائنا الحميمين.

شرعت اللجنة في جمع الأموال لبناء الكنيسة، وساهمت بابكو والشركات البريطانية وأثرياء البلاد في مساعدتنا المادية بسخاء. وطلبت من الشيخ سلمان أن يهبنا قطعة من الأرض لتنفيذ المشروع

عليها، فأهدانا سموه موقعاً قريباً من القلعة. وقدم إلينا برايور المعتمد السياسي البريطاني في البحـــرين سابقاً، والمقيم السياسي بالخليج لاحقاً، مجموعة من النوافذ الزجاجية الملونة الجميلة التي أعطت الكنيسة منظراً جذاباً.

هذه النوافذ صنعها د.ن. شارب، أحد المبشرين المسيحيين في إيران حيث جمع قطعاً قديمة مـــن الزجاج الجيد النوعية وصنع منها نوافذ بديعة تدل على ذوق رفيـــع. اســـتكملنا بنـــاء كنيســـة ســـانت كريستوفر وتم افتتاحها في احتفال بإشراف ورعاية المطران في 13 مارس 1953.

القليل من الناس يعرفون أن تكاليف تشييدها وإنشاء قاعة للطقوس المســـيحية وتـــوفير الســـكن والمرتب المستمر للقسيس يتم تمويلها من مصادر محلية، ولم نكن نحصل على منحـــة مـــن الجهـــات الحكومية المعنية بالشؤون الدينية في بريطانيا لتغطية مصاريف الكنيسة.

احدى الوسائل التي إتبعناها للحصول على الأموال كانت تنظيم مهرجان سنوي في حديقة مـــن حدائق البحرين.

خلال المهرجان الذي يقام عادة في بداية فصل الربيع ونعمل على اختيـــار موعـــده بحيـــث لا يتعارض مع أسبوع عيد الفصح أو فترة سباق الخيل التي تقام مرتين بالسنة، إحداهما بهذا الفصل، نَعمَدُ قدر الامكان إلى تنظيمه في يوم جمعة لضمان الاقبال الجماهيري، كما نحرص على أن يكون الجو في ذلك اليوم معتدلاً، ولا أقصد بذلك التخوف من هطول المطر، فهذا الأمر مستبعد لأن الشـــمس تكـــون مشرقة طوال النهار خلال ذلك الشهر.

والمهرجان يعقد سنوياً بحديقة "البستان" في منزل إدوارد سكينر وزوجته بالمنامة.

وسكينر هو المدير المقيم لشركة بابكو في البحرين، أما زوجته إيرين فقد كانت مـــن الأعضـــاء القدماء جداً في لجنة الكنيسة. كلا الزوجين يهويان الفلاحة وأعمال الحدائق، وتعتبر حديقة منزلهما أكبر وأجمل حديقة بالعاصمة.

ورغم أنهما أمريكيان إلاّ أن بيتهما مبني على طريقة المنازل القروية الانجليزية التي لا يوجد إلاّ القليل منها بالبحرين.

الحشائش الخضراء المتناسقة أحاط بها سياج من اشجار الدفلى (نباتات سامة عطرية الأزهـــار) بورودها الحمراء والبيضاء والوردية وخلفها يمكنك الاستمتاع بمنظر البحر الأزرق الجميل.

والحديقة مليئة بالنباتات الانجليزية، وأزهار القرنفل، نباتات التبغ والعايق ذو الـــورود الحلـــوة الألوان، إضافة إلى الشجيرات الاستوائية والأشجار الكبيرة. المنزل نفسه مغطى بالياسمين ومختلـــف أنواع البوغينفيلية، ووراء حديقة الأزهار توجد غابة صغيرة من الأشجار والنخيل التي تظلـــل أمـــاكن الجلوس وموائد الشاي والأكشاك كما تتفيأ تحتها الفرقة الموسيقية للشرطة عندما تأتي لتقديم معزوفاتها ومارشاتها العسكرية.

جميع أصناف الناس تأتي إلى المعرض، فهناك الأوروبيون والأمريكيون ذوي القمصان المفتوحة وزوجاتهم بلباسهن الصيفي، وأطفالهم الصغار الذين لا يرتدون إلاّ ما يستر عورتهم فقط!!! النساء الهنديات يأتين بأعداد كبيرة مرتديات "الساري" الجميل بمختلف الألوان.

البحرينيون أيضاً يأتون بثيابهم البيضاء وبعضهم يرتدي العقال أو "الشطفة" الذهبية على رؤوسهم والتي تدل على إنتمائهم للعائلة الحاكمة ومعهم أولادهم وبناتهم الحاملين بأيديهم "أنواط الروبيات" والنقود المعدنية لصرفها، كذلك يأتي إلى المعرض العشرات من طالبات المدارس الحكومية بلباسهن المدرسي المرتب بصحبة مدرساتهم الأجنبيات.

ورغم أن الغرض من إقامة المعرض هو جمع المساعدات المالية للكنيسة المسيحية، إلاّ أنه لا يتردد أحد في المساهمة حيث يشترك أصحاب المحلات التجارية البحرينيون والهنود في دعم هذا المشروع بسخاء وإرسال سلعهم إلى اكشاك المعرض لبيعها على الزوار حتّى أن بعضهم بأنفسهم إلى المهرجان للإشراف على عملية البيع ومراقبة تنظيم أجنحته الجانبية.

زوايا المعرض وأماكن البيع المختلفة فيه تشبه إلى حد كبير تلك التي نراها في الأسواق أو المهرجانات التي تعقد في بريطانيا.

فالمواطنون يعرضون الحلويات وأصناف الكعك المعمولة في البيت، والأزهار والخضروات المحلية الطازجة، أشغال التطريز والحياكة، والأعمال اليدوية.

وفي الجناح الذي تعمل به مارجوري مع مجموعة من المتطوعين، والمسمى "إجلب شيئاً واشتر شيئاً"، توجد أنواع عديدة من السلع التي لا حصر لها إبتداء من الكتب والأواني الصينية، أجهزة الراديو، المسجلات، وحتى طقم الدروع المعدنية التي وجدت صعوبة في تسويقه بإحدى السنوات.

الرهان غير مسموح به في أرجاء المعرض، ولو اردنا ذلك لجمعنا أموالاً طائلة، لكن النساء الشابات يتجولن بين زواياه ويدعين الجمهور لأن يقدروا وزن قطعة من الكعك أو عدد حبات البازلاء الموجودة بالقنينة.

كنا، أنا وإبني جيمس (حمد)، وبعض الشباب المتعاونين معنا، نشارك في جمع المبالغ للكنيسة حيث ننظم عملية ركوب الأطفال فوق الحمير، التي نستعيرها من بلدية المنامة وتطوف بهم في جولة دائرية أمام منزل إدوارد سكينر الذي يقام بداخله المهرجان، ونتقاضى مبلغ آنتين (أي حوال بنسين فقط) [الآنة هي إحدى فئات العملة التي كانت تستخدم في البحرين سابقاً وكل 16 آنة تساوي روبية واحدة] نظير ركوب الطفل وطوافه مرتين حول الدائرة.

كان الأطفال يصطفون في طابور طويل بانتظار دورهم!! وهذه الحيوانات تستخدمها البلدية عادة في جر عربات القمامة إلى أماكن مخصصة لإلقاء الأوساخ والنفايات بها.

أحيانا نفاجأ بإفلات أحد الحمير المستخدمة لركوب الصغار وهروبه مسرعاً نحو جهة الإسطبل، وفي هذه الحالة نخشى مواجهة والد الطفل أو والدته حتّى لا نتعرض للإحراج، مع ذلك لم تصادفنا أبداً أية إصابات مؤلمة للأطفال.

في سنة من السنوات أقمنا مسابقة للصغار وتكونت لجنة التحكيم من الدكتور سنو، رئيس المستشفى الحكومي، ومسؤولة قسم النساء الآنسة ماجواير (المعروفة بإسم المترن).

وعندما بدأت عملية التقييم أصبح جو المعرض متوتراً، فقد إحتجت أمهات الأطفال الذين لم يحالفهم الحظ على قرار اللجنة وأخذن يجادلن أعضاءها في سبب عدم فوزهم مما أدى إلى حدوث الفوضى والمشاكل بأنحاء المعرض.

وقد تخلينا عن تنظيم هذه المسابقة في السنوات التالية لأننا لم نستطع العثور على الأشخاص المستعدين لقبول الهمة الشاقة والموجعة للرأس ألا وهي التحكيم واختيار أفضل الأعمال!!

الفقرة الأخيرة في المهرجان هي رقص طالبات مدرسة بابكو على البساط الأخضر. ورغم ان الفتيات الصغيرات يبدين في زي جميل وجذاب، إلاّ أنهن لا يتقن الرقص جيداً، فنظراً لوجود أولياء أموهن وأصدقائهن جالسين على الحشيش المحيط وابدائهم للملاحظات والتعليقات المسموعة حول المشتركات في الفقرة، ينتج عن ذلك تأثير سلبي على أدائهن. لكننا في إحدى السنوات، شاهدنا ما يناقض هذا الرأي فقد إشتركت في الرقص طفلة إيرانية صغيرة تم تدريبها على يد مدرسة هندية فأخذت تؤدي رقصات ممتعة، شرقية وغربية منفردة بطريقة ماهرة تثير الإعجاب، وبعيدة كل البعد عن نوع الرقص الذي تتعلمه فتيات مدرسة بابكو الأمريكيات والبريطانيات.

الفصل التاسع عشر

زيارة الشيخ سلمان إلى لندن

في صيف عام 1953 م. تلقى الشيخ سلمان دعوة لحضور حفل تتويج جلالة الملكة اليزابيت وأن يحل ضيفاً على شرف الحكومة البريطانية. وتكونت البعثة المرافقة لسمو الأمير من نجله الأصغر الشيخ محمد البالغ من العمر آنذاك خمس عشرة سنة تقريباً، والسيد حسين يتيم، رجل الأعمال البحريني الذي درس في بريطانيا وسافر مرات كثيرة إلى أُوروبا والولايات المتحدة، أنا وزوجتي مارجوري بالإضافة إلى اثنين من الخدم البحرينيين.

كان خط سير الرحلة هو الطيران إلى بيروت أولاً، ثم الإنتقال بطريق البحر إلى مدينة البندقية، وإستخدام القطار عبر القارة الأوروبية نحو إنجلترا مع التوقف في مدن مونتريكس السويسرية، باريس، إضافة إلى البندقية. تلك الزيارة كانت الأولى للشيخ سلمان إلى أوروبا، فلم يسبق له السفر قبل ذلك الوقت إلى جهة أبعد من القاهرة.

وصل الشيخ إلى بيروت مساء يوم الثالث عشر من مايو، وجرى له استقبال رسمي شارك فيه حرس الشرف ورافقته سيارات الشرطة، والدراجات النارية بأبواقها المرتفعة الصوت خلال شوارع العاصمة ومنعطفاتها المزدحمة وهي تسير بسرعة كبيرة.

عندما نقارن هذه المراسم مع مثيلاتها في البحرين، نجد أنها تتم بصورة بطيئة هنا، لكنها في دول الشرق الأوسط الأخرى تتسم بالسرعة والضوضاء.

في اليوم الثاني، قابل الشيخ سلمان السفير البريطاني بالعاصمة اللبنانية، وزار الجامعة الأمريكية في بيروت حيث التقى مع الطلاب البحرينيين الدارسين هناك، وحضر مأدبة غداء أقامها الرئيس كميل شمعون على شرفه.

لقد كانت مأدبة شهية إشتملت على أصناف عديدة من الأكلات اللبنانية والفواكه المتنوعة اللذيذة التي يصعب الحصول عليها في البحرين.

الرئيس شمعون رجل ذكي، أنيق المظهر، لطيف المعشر، يُحسن إستقبال ضيوفه، لكن بعض زملائه الذين حضروا حفلة الغداء بدا عليهم عدم الإهتمام وشرود الذهن بسبب وجود أزمة سياسية في لبنان، وهو أمر إعتدنا على سماعه في هذا البلد.

عصر ذلك اليوم غادرنا بيروت على ظهر السفينة الإيطالية "إسبريا" التي ستنقلنا إلى مدينة البندقية. أحد أبناء عمي كان يعمل بشركة النفط العراقية ويعيش في بيروت، بالإضافة إلى شقيقه الذي يعمل بالسلك الخارجي في بغداد مع زوجته وبناته الثلاث الصغيرات السن، كلهم تجمعوا عند وداعنا وقد رافقنا الشخص الأول بالرحلة في طريق عودته إلى بلاده لقضاء الإجازة السنوية.

وقبل أن تغادر السفينة الميناء سعدنا لإجتماع تسعة أفراد ينتمون إلى عائلة بلجريف خارج وطنهم وهذه صدفة قلما تكرر!!

وليمة عشاء عربية على ظهر السفينة!

من الصدف التي واجهتنا في رحلة الشيخ سلمان إلى بريطانيا عام 1953 وجود الشيخ أحمد بن علي آل ثاني النجل الأكبر لحاكم قطر ومعه السيد عبد الله درويش أحد أعيان تلك الإمارة، على نفس الباخرة التي ركبنا فيها من بيروت، في طريقهما لحضور المناسبة التي دعي إليها سمو الأمير وهي تتويج الملكة اليزابيت الثانية وبرفقتهما العديد من الأطفال والخدم.

إستمتعنا بالرحلة البحرية إلى البندقية التي كانت تغييراً مريحاً عن جو العمل المزدحم والمكثف بالبحرين قبل مغادرتي لها، واستعداداً جيداً لبرنامج الزيارة. ومما أتذكره حول الوفد القطري اصطحابه لشاب إنجليزي تابع لشركة النفط العراقية كمرافق للشيخ أحمد، ولا أنسى صوت عبد الله درويش الجهور الذي يسمع في كل أرجاء السفينة، وأثناء تناول الوجبات كان الوفد البحريني يجلس في زاوية معينة بينما تجلس البعثة القطرية بزاوية أخرى.

وأذكر أن البعثة جلبت معها عدداً من الأغنام الحية على ظهر الباخرة، وفي احدى الأمسيات أقامت وليمة عربية دعت إليها الجانب البحريني وطاقم السفينة وبعض المسافرين، وسعدنا بتناول الطعام اللذيذ جداً، وشعرنا بالأسف لعدم تمكننا من رد الدعوة وإقامة مأدبة عشاء مشابهة بسبب عدم توفر الماشية لدينا.

توقفت الباخرة أثناء سيرها بميناء الإسكندرية. حينها كان الجو السياسي ساخنا وكانت الإذاعة المصرية قد بدأت منذ فترة ببث تعليقاتها المهاجمة لنظام الحكم في البحرين، فلم يشأ الشيخ سلمان النزول من الباخرة إلى المدينة.

لكن بعض أفراد الجانب القطري هبطوا وتجولوا بأسواقها وعادوا محملين بالمشتريات كالبخور والساعات والأحذية.

في اليوم الأخير للرحلة البحرية أقيمت حفلة عشاء ورقص دُعي إليها كل المسافرين بما فيهم ركاب الدرجة الثانية وهو تقليد متبع لدى جميع السفن. ونظراً لعلمي المسبق بما يحدث في هذه الحفلات أخذت أتساءل ماذا سيفعل الشيوخ العرب خلالها. فقد تعود الضيوف على قذف محتويات المائدة على بعضهم البعض وإثارة الضجيج بعد تناول الطعام، لكن تخوفي زال بسرعة فقد اندمجوا بالحفلة بعد تردد قليل وشاركوا المدعوين فرحتهم.

وصلنا إلى البندقية وأقمنا في فندق جريتي بالاس الواقع على قناة جراند، كان فندقاً فخماً أحتوت غرفه على بعض اللوحات العالمية البديعة جداً، لكن أعضاء الجانب البحريني لم تعجبهم هذه المدينة بسبب اعتقاهم بعدم نظافتها نظراً لتلوث مياه القنوات وعدم وجود شوارع تخترقها وتوصل الفندق بباقي أجزاء البندقية.

اليوم الذي استمتع فيه الشيخ كثيراً كان عندما زرنا المدينة الصغيرة الجميلة "سالوا" الواقعة على سفح جبال دولومايت وعلى بع 40 ميلاً تقريباً من البندقية، وكان سعيداً لتناول الغداء مع الأميرة فريا ستارك في منزلها الرائع بالحديقة المليئة بالزهور، وفي عصر ذلك اليوم صحبتنا إلى فيلا بالاديان العظيمة التابعة لعائلة فولي حيث شربنا الشاي.

محطتنا الثانية كانت مونتريكس، مسقط رأس والمدينة التي نشأت فيها. الطقس هنا جميل، البحيرة والجبال أروع ما يكون، وقد أعجب الشيخ سلمان بسويسرا ونظافتها، كما أحث مائها العذب الذي قال أنه أفضل ماء شربه طيلة حياته.

قضينا يوماً بجنيف واستمعنا إلى نقاش بمبنى الأمم المتحدة. السلطات المحلية بمدينة مونتريكس رحبت بالشيخ ورتبت له زيارة إلى قلعة جيلون التي عرفتها منذ نعومة أظفاري، وأقام أبناء عمي السويسريون استقبالاً له بمنزلهم بضاحية تيرتيت.

من بين الضيوف ثلاث نساء كبيرات في السن من معارف عائلتنا وجدتي. احداهن أشارت بيدها نحوي وقالت للشيخ: "أتذكر تشارلز عندما كان طفلاً لا يزيد طوله عن القدمين قبل عشرات السنين"، فرد الشيخ: حقاً، ان المناخ هنا صحي جداً ويجعل الناس يعيشون حياة طويلة.

صباح الأحد أعرب الشيخ عن رغبته بركوب الترام، وأمام علامات الإستغراب ونظرات الإحتجاج التي بدت في عيني رئيس البوابين للفندق المقيمين به، الذي اعتقد ان استخدام سيارة سيكون أكثر ملائمة لنا، صعدنا درجات الترام حيث سار بنا إلى منطقة فيفي التي درست بها عندما كنت صغيراً.

بعد وصولنا تمشينا بمحاذاة البحيرة، وأعجب الشيخ بعادات وأخلاق السويسريين. بالنسبة لهم ظهر الأعضاء البحرينيون بملابسهم العربية كسواح غير مألوفين وأثار هذا الشئ فضولهم ودهشتم، لكن، رغم إهتمامهم بنا، إلاّ أن أحداً منهم لم يتبعنا أو يتجمع حولنا كما حدث لنا بمدينة البندقية.

بعد ذلك استرحنا في حديقة ترفيهية، ثم رجعنا بواسطة الترام إلى الفندق. في إحدى المحطات ركبت سيدة سويسرية ومعها إبنها البالغ من العمر خمس سنوات، تلا ذلك كلام باللغة الفرنسية. قالت الأم: "انهم هنود"، وقال الطفل: لا بل هم عرب، فالهنود لا يرتدون شيئا كهذا فوق رؤوسهم. ردت الأم التي يبدو من ملامحها أنها غبية ولم ترد إبنها أن يجادلها: "أسكت، والزم الهدوء فأنا متأكدة بأنهم هنود". على الرغم من ذلك، لم يخضع الإبن المشاكس وامرها وإستمر في الإصرار على رأيه. عرف الشيخ بأنهما يتحدثان عنه، فأشار إلى الطفل فأتى إلى المكان الذي يجلس فيه وقدم إليه دمية أطفال كنا قد ربحناها أثناء اللعب بالحديقة الترفيهية. فرح الطفل كذلك اغتبطت والدته، وعندما شرعا في النزول همست بأذن الولد عند مروره بجانبي: أنت محق، فهؤلاء الأشخاص عرب، وهذا الرجل أمير عربي. بعد مغادرتهما للترام مباشرة، سمعت الطفل يخبر أمه بما قلته له ويفاخر عليها بأنها كانت مخطئة في الوقت الذي صدق تخمينه!!

α α α

في باريس ذهبنا لرؤية اسطبلات الخيول بمنطقة جانتيللي، وأقامت شركة نفط البحرين التي يوجد مكتب لها هنا مأدبة عشاء احتفاء بالشيخ في مكسيمز، بعدها توجهنا لمشاهدة عرض مسرحي في بال تابارين.

معظم العرب ينظرون إلى باريس على أنها مدينة فاسدة مليئة بالمجون وانتشار الرذيلة والعربدة، رغم أن بعضهم أخذوا هذه الأيام يتوجهون إلى هابورج بكثرة للاستمتاع بلياليها الحمراء.

وصلنا بالقطار إلى محطة فكتوريا وكان في إستقبالنا دوق أدنبره ولم نكن على علم مسبق بانتظاره لنا. كان معنا على نفس القطار وفد ينتمي إلى إحدى دول أمريكا اللاتينية مما أدى إلى وقوع ارباك خفيف عند منصة الإستقبال ووجدت نفسي بعيداً عن الشيخ عند نزوله ولم أتمكن من إبلاغه عن هوية الرجل الذي إستقبله، لكننا عندما إستقللنا السيارة أخبرته بأن الشاب المؤدب جداً الذي رحب بنا هو دوق أدنبرة.

وُضع لنا برنامج كامل للزيارة، حافل بالفعاليات الكثيرة والمواعيد العديدة والدعوات التي لا حصر لها واعتقدت في بداية الأمر أنها سترهق الشيخ سلمان نظراً لكبر سنه وعدم تعوده على هذه الأنشطة المكثفة، لكن إعتقادي لم يصدق وأثبت الشيخ قدرته على تحمل هذا البرنامج المزدحم.

في الليلة التي سبقت حفل تتويج الملكة حضرنا عرضاً عسكرياً على الجليد في همر سميث، وهو نوع من الرياضة الترفيهية الجديدة بالنسبة لي، لذلك لم أنبه الزملاء بضرورة ارتداء ملابس ثقيلة قبل ذهابنا.

جلسنا في الصف الأمامي قريبين جداً من الأرض الثلجية. ثم بدأنا نشعر بالبرودة شيئاً فشيئاً ونحاول مقاومتها لكنها استمرت في الإزدياد حتّى اضطرتنا في النهاية إلى مغادرة المكان قبل انتهاء العرض، وأُصبت أنا والشيخ إثر ذلك بزكام حاد. عند مغادرتنا بحثنا عن سائقي السيارات الرسمية التي جلبتنا فلم نعثر عليهم.

اقترح الشيخ أن نركب الباص، لكن الباصات ليست مريحة كترامات مونتريكس، لذلك أخذنا سيارة أجرى "تاكسي" ورجعنا إلى الفندق. كانت الأمطار تهطل بقوة والجو شديد البرودة، بالرغم من ذلك شاهدنا آلاف الناس في وست إند مخيمين بالخارج طوال الليل على أرصفة الشوارع ترقبا لرؤية الملكة الجديدة في اليوم التالي. هذا المشهد أثار اعجاب الشيخ أكثر من أي شئ آخر خلال الزيارة.

خلال ذهابنا بالسيارة إلى مكان الإحتفال بتتويج الملكة في دير الرهبان، كانت تسير بمحاذاتنا سيارة السفير الإيراني، وكنا نتبادل النظرات معه بفضول لا شك أن السفير دار بخلده ادعاءات دولته بتبعية البحرين لها. جلس الشيخ بمقعد في وسط الكنيسة، بينما جلست أنا في الجزء الذي يجلس فيه المصلون (صحن الكنيسة). أعجب سموه كثيراً بمراسم تنظيم الإحتفال والتراتيل الدينية التي تجري باللغة الانجليزية.

لقد غادرنا الفندق في ثامنة صباحاً ولم نعد إليه إلاّ بعد الساعة الرابعة عصراً، وعندما سألنا الشيخ ما إذا كان يشعر بالتعب بعد قضاء ساعات طويلة بالدير، أجاب بأنه استمتع للغاية بفقرات الحفل لدرجة أنه اندمج معها ولم ينتبه للوقت الذي انقضى بسرعة كبيرة جداً.

α α α

من بين الفعاليات المتعددة لبرنامج الزيارة سواء الرسمي أو الخاص فيها، من الصعب أن أحدد أيا منها لقى استحسان الشيخ الأكثر وإعجابه المتميز . لكن بخلاف حفل التتويج وإجتماع سموه مع الملكة الجديدة، ربما تكون مقابلته مع السير ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني في 10 دوانتج ستريت أهم حدث فيها، لأن الشيخ يكن إحتراماً وتقديراً كبيراً لهذا الرجل.

شمل البرنامج أيضاً زيارة القصور الرائعة والمنازل الفخمة الرائعة الجمال، وحضور المآدب وحفلات الاستقبال الرسمية، الذهاب إلى دربي لمشاهدة سباق الخيل، وسباق الكلاب، وإلى معرض ريتشموند للخيول حيث تناولنا الغداء مع الكابتين سي. أي. كندال، وكيل مشتريات حكومة البحرين في لندن داخل بيت متنقل قائم على عجلات (كارافان).

بالمناسبة أود أن أذكر أنه عندما جاء نجلا سمو الشيخ سلمان الأكبران إلى لندن خلال صيف نفس العام (1953)، اشتريا عربتين مشابهتين لذلك البيت لغرض استخدامهما في رحلات القنص. شاهد الشيخ مباراة في الملاكمة واستنكر الوحشية التي تخللت أحداثها، كما حضر إستعراضاً للبحرية الملكية، وذهبت عبر نهر التايمز إلى ميناء محافظة لندن. أيضاً زار سموه اللورد مايور، وبنك انجلترا، وتفرج على الخيول العربية التي تمتلكها الليدي ونتورث في منتزه كرابت. كما تضمن برنامج الزيارة الغداء

بمدينة أكسفورد وزيارة كلية لنكولن وقضاء يوم آخر في برايتون، إضافة إلى حفلات الغداء والعشاء الكثيرة التي دعينا إليها بالعاصمة البريطانية.

واقعة شيقة حدثت لنا أثناء حضورنا حفلة أقامها دوق ودوقة مارلبورو. فعند مغادرتنا للقاعة افتقدنا سمو الشيخ محمد النجل الأصغر للشيخ سلمان فرجعنا للبحث عنه، وشاهدناه متوقفاً يتأمل في رجل عجوز جالس على كرسي من الطراز القديم وهو يدخن سيجاراً كبيراً. هذا الرجل الذي إجتذب أنظار الشيخ محمد نحوه لم يكن سوى السير ونستون تشرشل!!!

لم تزعجني الانذارات عند ظهور تيار سياسي قوي في البلاد

عاد الوفد المشارك في تتويج اليزابيث الثانية ـ بما فيهم شخصي ـ إلى البحرين في سبتمبر 1953.

ظاهريا كانت البلاد تبدو طبيعية، لكنني إكشفت بعد فترة وجيزة قيام تيار قوي تحت السطح مسبباً عدم الإستقرار السياسي.

وقد رافق هذا التيار سيل من الإنذارات والرسائل المجهولة والمقالات العنيفة المنشورة في الصحف المحلية.

الرسائل لم تزعجني أبداً، فدرج مكتبي ملئ بها، أما بالنسبة للجرائد والمجلات الأهلية فيحررها شباب تنقصهم المسؤولية ويتصورون أنهم كلما كتبوا بصورة أكثر حدة وأشد غلاظة كلما إزدادت مبيعاتهم.

لكن الحكومة دائماً توقف صدور الصحف المهاجمة لها لفترة معينة ثم تسمح لها بمعاودة الصدور مرة أخرى.

في ذلك العام وقعت فتنة طائفية بالبلاد إستقال على أثرها ثلاثة من أعضاء مجلس بلدية المنامة وكانت أولى مهامي بعد عودتي من السفر محاولة إقناع هؤلاء الأعضاء بالعزوف عن إستقالاتهم. وعقدت لذلك إجتماعات لا حصر لها معهم، إثنان منهم كانا صديقين شخصيين لي، أما الثالث فهو رجل شديد اللهجة، ويتسم بالجدية، لا يضحك إلاّ نادراً وإذا ضحك فلكي يظهر الإستهزاء والسخرية.

أحد الأعضاء الثلاثة كان شخصية مختلفة وينحدر من أسرة كبيرة معروفة أنجبت مواطنين صالحين وشاعراً مشهوراً. كان تاجراً للؤلؤ (طوّاشاً) ومالكاً للأراضي، وسافر إلى الهند مرات كثيرة وقضى بها فترات لا بأس بها. وقد إتسم هذا الرجل بالجسم الضخم والبدانة، ودأب على إرتداء ثياب بيضاء رقيقة وشفافة تقريباً خلال أشهر الصيف، وعندما يأتي لزيارتي تعود أن ينزع غترته ويجلس حاسر الرأس.

لديه معلومات واسعة عن القضايا السياسية، والإجتماعية الدائرة في العالم وغالبا ما يدهشني بأقواله التي يستشهد بها من الانجليز عن شكسبير رغم أنه لا يتكلم الانجليزية.

لقد أسفت كثيراً، قبل مغادرتي للبحرين عام 1957، لفقدانه البصر الذي أنهى عمله كتاجر للؤلؤ.

العضو الثاني يتعامل أيضاً في اللؤلؤ، وهو رجل بشوش، هادئ، عريض الجسم يرتدي باستمرار ملابس متناسقة من اللونين البني والأصفر. وقد تعوّد كل مساء السير على قدميه إلى حديقته الجميلة الواقعة خارج المنامة حيث يقيم أحياناً جلسات وحفلات شاي لضيوفه.

هذه العادة ليست مرغوبة لدى البحرينيين فمعظمهم يفضلون ركوب سياراتهم أو استخدام التاكسي أو الباص ــ إذا كانوا قادرين على ذلك ــ مفضلين ذلك على المشي خطوة واحدة !!!

أثناء إجتماعاتي مع الأعضاء الثلاثة، كان هذا الشخص يكرر كلام آخر المتحدثين ويؤيد رأيه.

هؤلاء هم الرجال الذين قضيت معهم الأيام والأسابيع لمناقشة أزمة المجلس البلدي، لكن دون فائدة.

الفصل العشرون

ازدادت الاضطرابات المذهبية في فصل الربيع كانت هديتي سيارة بونتياك من الملك سعود

لقد تغيّرت البحرين تماماً عما كانت عليه عندما جئت إليها لأول مرة. كنت أعمل بمكتبي المنزلي ليلاً بالطابق العلوي وبإستطاعة أي شخص عابر للشارع رؤية غرفة المكتب والتحقق من وجودي من خلال الأنوار المنبعثة عبر نوافذها.

خلال فصل الربيع من عام 1954 ازدادت الاضطرابات المذهبية، وعرضت على المحكمة قضايا كثيرة تتعلق بذلك، تداولها القضاة ومن بينهم شخصي بحياد تام، والدليل على ذلك عدم رضا الطرفين المتنازعين على الأحكام الصادرة.

فالعقوبات المتخذة بحق المتهمين دائماً تعتبر غير كافية من قبل الطرف الآخر، والوضع الساخن بالبلاد جعل من عملي بالمحكمة مهمة شائكة جداً.

في يناير إستمتعت بتغيير لطيف عن جو المشاكل في البحرين عندما رافقت سمو الشيخ سلمان في زيارته للملك سعود بالمملكة العربية السعودية حيث إستقبلنا بالظهران ومعه عدد من أفراد العائلة وبعض المسؤولين من بينهم يوسف ياسين، السوري الجنسية، المتمتع بنفوذ قوي في الشؤون الخارجية، وجمال الحسيني الذي تربطه صلة قرابة مع مفتي القدس السابق، ورشيد عالي الكيلاني قائد محاولة الإنقلاب الفاشلة في العراق ضد بريطانيا عام 1941 والذي يعيش لاجئاً سياسياً بالمنفى في بلاط الملك. وخلافاً لما توقعت كان الثلاثة ودودين جداً نحوي.

قادتنا السيارة إلى الدمام للإقامة بقصر الأمير سعود إبن جلوي. السائق المرافق لنا شاب بدوي ذو شعر طويل، يسير بسرعة جنونية محاولاً تخطي باقي سيارات الموكب واللحاق بمقدمته، مندمجاً مع أنغام الراديو العالية، وبين حين وآخر كان يحوّل بصره تجاهي للحديث معي مهملاً الشارع الممتد أمامه.

سكنت بغرفة واسعة منفصلة بالقصر احتوت على سرير وتسعة كراسٍ كبيرة وطقمي جلــوس. الحرس الملكي كان مصاحباً لنا وبعضهم وقف أمام باب غرفتي طوال الإقامة، زيّهم الرسمي القمصان الزرقاء الفاتحة والبنطلونات الزرقاء مع الحزام القرمزي الذي يلف وسطهم وفوق رأسهم ارتدوا الغترة والعقال العربي، وكان يصحبني بالرحلة الشرطي البحرين التابع لي.

في اليوم السابق لمغادرتنا، وبعد ان ذهبت إلى غرفتي للنوم، أرسل الشيخ سلمان فــي طلبــي، فارتديت ملابسي الليلية فوق البيجاما وذهبت إلى غرفته ووجدته جالساً مع بعض أعضاء الوفد المرافق من العائلة الحاكمة.

أخبرني سموه أن الملك قدّم هدايا سخية لجميع أفراد الوفد وأن نصيبي منها عبارة عن ســيارة بونتياك، وهي نفس السيارة التي جلبتني من الظهران. وكان من رأيي إنني لا أستطيع قبولها لكن الشيخ سلمان أبلغني بأنه ليس من الأدب والأخلاق الحميدة رفض مكرمة من مكارم الملك.

صباح اليوم التالي تناولنا الإفطار المكون من الخراف والماعز والدجاج المستورد من أمريكــا والذي بدا لدي شيئاً غير مألوف لأنني تعودت على تناول طعام خفيف جداً كل صباح. غادرنا المملكــة بطريق الجو من مطار الظهران ووصلنا إلى مطار البحرين بالمحرق خلال عشــر دقــائق بمســاعدة الريح.

في شهر مارس حلّ الملك فيصل عاهل العراق الشاب وخاله الأمير عبد الاله ضــيفين علــى البلاد. مرات كثيرة إلتقينا فيها ــ أنا ومارجوري ــ بالأمير،لكنها المرة الأولى التــي نلقــاه ونضــع برنامجاً لاستضافته خلال الزيارة. وجدناه شخصية مرحة جداً وبسيطة، إستمتع بــالتجول فــي أنحــاء منزلنا كما شاهد اللوحات التي نقتنيها وطالع بعض الكتب.

لقد كان هو وخاله يهويان الزراعة بشغف، وقد عثرا على نباتات بحديقة المنزل لا يوجد لها مثل في بغداد، لذلك أعطيتهما مجموعة متنوعة لأخذها معهما إلى العراق.

ولذلك أصابنا الحزب الشديد والأسف البالغ عندما علمنا بالطريقة المروعة التي تم بهــا قتلهمــا وقتل عدد كبير من أفراد العائلة الملكية بالعراق عند قيام "ثورة" 14 تموز عام 1958.

اضراب ضد نظام التأمين الاجباري!!

الأطفال يحاربون السيارات بالمسامير!!

البعض لا يتحرك بدافع المصلحة العامة!!

في نهاية يونيو 1954 وقعت احتكاكات وإضرابات عمالية وإضطرابات مدنية بمعمل التكريــر (مصفاة النفط التابع لشركة بابكو بسترة. وتطورات الخلافات بين المتنازعين حتّى وصلت إلى المحكمة بعد مقتل أحد الأشخاص. ثم ازدادت الأمور تعقيداً عندما أصدرت المحكمة قراراً بسجن المتهمين.

بعد هذا الإضراب، حدث تطور سياسي هام. فقد تشكلت لجنة أهلية قدمت عدداً من المطالب كان من بينها اجراء إصلاحات بالمحاكم، وإصدار قانون قضائي. وقبل تقديمها لهذه المطالب عينت الحكومة جيوفري بيس مستشاراً قضائياً بالمحكمة. وهذا الرجل بريطاني الجنسية وله خبرة قانونيــة ومعرفــة بالشرق اوسط، وقد شغل ذلك المنصب وأدى أعمالاً كثيرة نافعة للبحرين، واستمر حتّــى عــام 1958 حيث خلفه السيد ديفيد همفريز.

شخصياً تعاطفت مع مطلب القانون القضائي، فمن خلال خبرتي الطويلة بالمحكمة لمست حاجة البلاد الشديدة إليه. وحاولت في سنوات سابقة تطبيق القانون القضائي السوداني وتعديلــه بمــا يلائــم احتياجات البحرين، لكن لم يتم تبنيه وتطبيقه رسمياً.

وفي السنوات التالية أصدر الخبراء القانونيون "بالمكتب البريطاني الخــارجي" قانونــاً جزائيــاً لتطبيقه في محاكم امارات الخليج العربي، وقد وافقت عليه الحكومة بعد إجراء العديد من التعديلات.

وفعلاً تم العمل بهذا القانون في محاكم البحرين قبل تطبيقه بمحاكم الوكالة البريطانية. وللأســف كنت في الإجازة عند مناقشة ذلك الموضوع حيث ووجه القانون بمعارضة فورية من قبل المــواطنين الذين تعودوا على رفض أية فكرة أو شئ جديد.

اللجنة المشكّلة ــ عارضت بعض بنود القانون، وكان من الممكن احتواء معارضتها الظاهريــة باعادة صياغة فقرتين من القانون أو شطبهما، لكن السبب الفعلي لذلك هو كتابة القانون وإعــداده فــي لندن مما أثار تحفظها وريبتها.

في نهاية الأمر تم تأجيل الاعلان عن القانون وتطبيقه إلى أجل غير محدد.

الإضراب التالي لم يكن لأسباب سياسية. فلعدة سنوات كنت اخطط لتنفيذ نظام للتأمين الإجباري للمركبات ضد الطرف الثالث وذلك بسبب ازدياد العربات السائدة على الشوارع سنوياً وارتفاع معــدل وقوع الحوادث المروية بدرجة كبيرة.

وفي معظم الحالات لا يملك السائقون المتورطون في الحــوادث مبــالغ أو وســائل لتعــويض المتضررين، ورغم حبس السائقين المخطئين عقاباً لهم إلاّ أنها تعتبر مواساة "صغيرة" أو غير كافية لمن وقع عليهم الضرر أو لأقارب الأشخاص الذين راحوا ضحية الحوادث.

صُغتُ قانوناً محلياً خاصاً بذلك، صدّق عليه الشيخ سلمان تم تعميمه ونشره. ولــم تحــدث ردود فعل إلاّ بعد مرور بضعة أشهر عندما اشعرنا أصحاب السيارات بضرورة استخراج بوليصات تــأمين على سياراتهم قبل تاريخ محدد، وعندما بدأت المشاكل وأضرب سائقوا الباصات والتاكسيات. لقد قاموا بتقليد اسلوب سواق التاكسي في بيروت الذين تعودوا على إعلان الإضراب.

وقد تسبب إجتماعهم في وقوع وشوشة وإضطراب شبه كامل لحركة المرور وأوعزوا لمجموعة من الأطفال الصغار، صبيانا وبنات بملء الشوارع بأغطية زجاجات "الكوكا كولا" المثبت في كل منها مسمار مدبب موجه رأسه إلى اعلى، مما جعل إطارات مئات السيارات المارة تنثقب وتتفشش (تتبنجر) بينما يراقب الأطفال النتيجة من أماكن وممرات مظلمة يستطيعون عبرها الهرب بسرعة.

ربما يعتقد البعض أنه لأمر مضحك وغير معقول أن يحدث عمل هؤلاء الصبيان بلبلة خطيــرة، لكن رجال الشرطة واجهوا صعوبة شديدة في اصطيادهم، وعلى الرغم من المعاملة "المناســبة" التــي تعرض لها عدد من الأولاد الذين قبض عليهم، إلاّ أنهم لم يتوقفوا عن عبثهم.

أحد الأسباب الرئيسية للإضراب كانت مبالغ التأمين المرتفعة التي فرضتها شــركات التــأمين البريطانية وغيرها.

وعندما اعطت الحكومية ترخيصاً لقيام شركة تأمين وطنية لمنافسة الشركات الأجنبيــة، رفــع غالبية السائقين معارضتهم وانتهى الاضراب.

بالرغم من ذلك اسفرت هذه التجربة عن تعلّم الاطفال "للعبــة المســمار" وراحــوا يطبقونهــا ويستمتعون بها كلما وقعت مشكلة في البحرين، وأحياناً يمارسونها لمجرد التسلية.

معضلة أخرى كنت أدرسها في تلك الفترة، وهي ايجارات البيوت والدكاكين المرتفعــة بدرجــة كبيرة حث ينتهز الملاك الوضع لزيادة الايجار إلى الضعف أو إلى ثلاث مرات قيمته اصــلية خــلال سنوات قليلة.

في رأيي أن هذا التصرف إجحاف بحق المستأجرين وأصحاب المتاجر الصغيرة الذين عانوا من الضيق من أجل تسديد الإيجارات واضطروا إلى تقديم إلتماس "عريضة" حول هــذا الموضــوع إلــى الحكومة.

أسعار الأراضي كانت أيضاً باهظة، فالقدم المربع من الأرض الواقعة فــي المنــاطق الســكنية بالمنامة يكلف جنيهاً واحداً وعشر سنتات (أي ما يعادل 15 روبية) وهو سعر مقارب لثمن القدم المربع في موقع جيد بلندن.

شكلت لجنة من الملاك والمستأجرين وحاولتُ إقناعهم بالوصــول إلــى اتفــاق حــول تنظــيم الايجارات.

مهمتي تلك كانت تشبه خلط الماء بالزيت، فأصحاب المباني كانوا جشعين للغاية، والمستأجرون تمسكوا بمطالب غير منطقية أو مقبولة، فلم نتمكن من التوفيق بين الطرفين. في النهاية، أقــر الشــيخ قانوناً ينظم عملية الايجار ويحدد عدم زيادتها إلى أكثر من عشرة بالمئة من السعر الأصلي سنوياً.

لم يوافق الجانبان على القانون فالملاك إعتبروا الزيادة غير كافية بينما رآها المستأجرون أعلى من اللازم رغم أنها أفضل كثيراً من الإيجارات السابقة.

في أواخر عام 1954، إنبثقت إلى الوجود لجنة مكونة من ثمانية أعضاء، وأطلقت على نفســها إسم "الهيئة التنفيذية العليا". المواطنون تساءلوا: أعلى من ماذا؟ إدعت اللجنة بأنها تمثل شعب البحرين، وهو أمر بالتأكيد غير صحيح.

فالشيخ سلمان لم يعترف أبداً بهذه اللجنة، ونظر إليها البحرينيون الذين يشــعرون بالمســؤولية بالكثير من الإرتياب والحذر. ولكنها في الحقيقة، نواة لحزب سياسي، الأول من نوعه في الخليج.

فيما بعد أصبح اسمها يعرف، من قبل الجميع "بالهيئة"، ولاقت التأييد بحماس من قبل المتعلمين الشباب بالمدن الذين يزعمون بأنهم مثقفون بناء على الدراسة السطحية التي تلقوها في المدارس الإبتدائية والثانوية وعلى قدرتهم على الترديد ــ بطريقة خاطئة في معظم الأحيان ــ الشعارات والخطب الملهبة للعواطف التي يسمعونها من الاذاعات العربية أو يقرأونها في الصحف الصادرة من مصر وسوريا غالباً.

قدمت اللجنة عريضة إلى الشيخ سلمان تتضمن مطالب معينة.

في شهر ديسمبر، أصدر الشيخ بياناً أعلن فيه أن الحكومة إتخذت الإجراءات لتغطية العديد من الأمور التي ذكرت في العريضة، لكن الهيئة ــ في تلك الاثناء ــ نظمت إضراباً. حاولتُ تأمين جميع الخدمات الاساسية أما بالنسبة لشركة النفط، المؤسسة الرئيسية المستهدفة لكي يؤثر عليها الإضراب، فسارت عملياتها بأقل عدد ممكن من الموظفين.

هذه المرة استغرق الإضراب حوالي الاسبوع لأن الحكومة رفضت مناقشة المطالب التي تقدمت بها الهيئة حتّى يعود المضربون إلى أعمالهم. توجهت بنفسي عدة مرات إلى القرى خلال فترة الإضراب لمعاينة الأمور ورؤية حقيقة ما يحدث.

العمال يرغبون في استئناف العمل، لكنهم خُوّفوا وحُذروا من قبل بعض الشخصيات في العاصمة في إحدى القرى، سألتُ الرجال: لماذا أنتم مضربون؟ فردوا نحون لا نعلم السبب، لكنهم أخبرونا إننا إذا واصلنا الإضراب، فسوف نحصل على أجور أعلى.

لكن الأجور لم تكن أحد المواضيع التي تضمنتها العريضة. أحد الشباب، الأفضل تعلماً من البقية، الحامل في الجيب العلوي لثوبه ثلاثة أقلام باركر قال لي: "نحن نطالب بحقوقنا". وعندما سألته: أي حقوق؟، ظهر عليه الإرتباك والبلاهة لمدة دقيقة، ثم رد بتكشيرة غاضبة: "أنا لا أعلم ما هي هذه الحقوق، لكن ربما يكون بوسعك إخبارنا بالمطالب التي يفترض فينا ان نعرفها".

عندما قمت بشرح التغييرات الشاملة التي ينفذها الشيخ والحكومة، لكن الشاب وأصدقاؤه لم يبدوا أي إهتمام.

في الأيام الأخيرة من السنة، شكل الشيخ لجنة من كبار الشخصيات البحرينية من الطائفتين السنيّة والشيعية، لدراسة وجهات النظر الشعبية حول خدمات التعليم والصحة العامة، لكن بعض الأعضاء إستقالوا عقب الإجتماع الأول، وحاولت الهيئة مقاطعة هذه الجهود.

بالرغم من ذلك حصلنا على فائدة من تلك التجربة، حيث عين سمو الأمير لجنتين دائمتين لمتابعة أُمور التعليم والصحة، أعضاؤها من كبار رجالات البلد ويرأسها أحد أفراد العائلة الحاكمة.

في ذات الوقت، أصبح موقفي الشخصي يتجه نحو الصعوبة والتعقيد شيئاً فشيئاً. لقد تعاطفت مع بعض مطالب الهيئة وأيدتُ جزءاً من زفرات الفئة المثقفة. لكنني لم أثق في الرجال الذين يقودونها لأنني أعرف أنهم لم يتحركوا بدوافع المصلحة العامة وحب الغير.

لقد أصبت بخيبة أمل كبيرة حينما تبين لي ان الكثير من المشاريع والخدمات التي عملت مخلصاً لتحقيقها في هذا البلد كالتعليم، والأمن، والصحة، أصبحت الآن مواضيع للهجوم بواسطة اشخاص استفادوا منها.

هكذا انتهى عام 1954 المليئ بالمتاعب والصعوبات لكل من الشيخ سلمان وللرجال الذين يعملون تحت خدمته.

الفصل الحادي والعشرون

12 شخصا فقط أعضاء الجاليتين البريطانية والامريكية عام 1926

انهم يمارسون السحر الاسود!!

اغنية مفضلة لدى الاذاعة البريطانية عن البحرين!!

من احترفوا معارضتي يجيئون للسلام عليّ!!

الكريسماس ورأس السنة الميلادية كانتا مناسبتين كبيرتين في البحرين، فالمواطنون ينظرون لهذين اليومين بنفس اهمية أعيادهم الخاصة تقريباً. هناك سبب لهذه النظرة، فبالنسبة لعيد الميلاد "الكريسماس" يبجّل المسلمون السيد المسيح ويعتبرونه نبياً، لكن الاحتفالات الرسمية التي تنظمها السلطات البريطانية في الأول من يناير سنوياً كانت لتخليد ذكرى تعيين الملكة فيكتوريا امبراطورة للهند في عام 1877، وهي مناسبة لم تعد شعوب الشرق الأوسط تهتم بها الآن.

في صباح يوم الكريسماس، بعد الذهاب إلى الكنيسة مبكرين، نتناول طعام الإفطار وقبل الانتهاء منه يبدأ الضيوف في الوصول. نستقبلهم في الشرفة حيث توجد مقاعد متقاربة تمتد على جانبي الغرفة الواسعة، ثم يطوف الخدم "والفراشون" الذين يشتغلون في مكتبي – المعروفون "بالعصافير" – بين الحضور حاملين القهوة والحلويات وانواع البسكويت.

ويتدفق الزوار على الكنيسة منذ الساعة الثامنة والنصف وحتى الواحدة ظهراً لتقديم التهاني وشرب القهوة ثم يغادرون المكان.

تجلس "مارجوري" في زاوية من زوايا الغرفة واجلس أنا في الزاوية المقابلة لها ونتحدث مع الناس القريبين منا، وفي معظم الاحيان نناقش نفس الموضوع عدة مرات لان الضيوف الذين نتكلم معهم يتغيرون كل بضعة دقائق، تلك المناسبة عبارة عن تجمّع ديمقراطي يجلس فيه كبار الشيوخ إلى جانب المزارعين ورجال الشرطة، ويجلس تجار السوق بجوار حراس المدن "النواطير" وأحياناً يزورنا أشخاص مسجونون سابقاً رغم ان وجودهم يبدو أمراً شاذاً نوعاً ما.

يأتي للتهنئة رجال من مختلف الأديان، فمنهم المسلمون واليهود والمسيحيون والهندوس، وحتى بعض الرجال الذين "احترفوا" وتعودوا على معارضتي يجيئون للسلام والمباركة في ذلك اليوم. وفي احدى السنوات أحصينا عدد الزائرين وحسبما أتذكر كان الرقم بين 400 إلى 500 زائر.

عندما يغادر آخر الضيوف، يقوم الخدم بإعادة الغرفة إلى ترتيبها الطبيعي، ويبدأ المدعوون إلى الغداء في المجئ ومعظمهم مسؤولون حكوميون بالإضافة إلى بعض الشخصيات الاخرى.

بعد ان نتأكد من دعوة جميع البريطانيين الذين يعملون في خدمة الشيخ وزوجاتهم من قبل أحد الأشخاص بالكنيسة، نتناول الطعام على مائدة يصل عدد افرادها إلى ثلاثين شخصاً. وفي المساء نتعشى في محل آخر بالخارج، ولذلك فان ذلك اليوم يعتبر يوماً "اجتماعياً" متواصلاً منذ الصباح وحتى الليل.

عشية رأس السنة الميلادية من كل عام نقيم إحتفالاً. في السنة الأولى لقدومي البحرين كان عدد أفراد الجاليتين البريطانية والأمريكية 12 شخصاً، فيما بعد ولسنوات طويلة بلغ عدد المدعوين من اصدقائنا 48 ضيفا من الجنسين حيث نجتمع في تلك الليلة حول مأدبة عشاء فاخرة، يليها عرض مسرحي إيمائي قصير يمثل المشتركون فيه ويعبرون عما يريدون بالإشارة دون التحدث، ثم يتبعه رقص يستمر حتّى الساعات الأولى من صباح اليوم التالي. ثمانية وأربعون شخصاً كان أقصى رقم تستوعبه المائدة، فحتى بالبحرين، حيث تتوفر وسائل الضيافة والمتعة بسهولة، فأن تنظيم حفلة عشاء بهذا الحجم يتطلب جهداً ودرجة كبيرة من التنظيم.

وجبة العشاء تتكون من أربع مراحل، تقديم الشوربة، ثم السمك يليه الديك الرومي ولحم الغزال بالإضافة إلى السجق وأخيراً الحلويات، "وتستعير" زوجتي خدماً وطباخين من بعض الأصدقاء للعمل استعداداً لهذه الليلة، فيلبون الطلب بسرور ويأتون للمساعدة في حفلة رأس السنة الجديدة، ولا داعي للقول بأن الطعام يكون شهياً جداً ومعداً بواسطة أشخاص "خبراء" في الطهي، يعملون جميعاً تحت اشراف موسى، كبير الخدم التابع لنا، الذي يجيد عمله باتقان ومهارة فائقة. وقد قضى في خدمتنا ثمانية عشر عاماً متصلة.

نتناول العشاء بالشرفة الطويلة المخصصة فقط لتلك المناسبة. الفرقة الموسيقية المتواجدة في سطح المنزل تعزف ألحاناً شعبية قديمة. ويتجاوب الضيوف بعد ان يثملوا مع الألحان بحيوية وحماس أثناء الأكل وينشدُونَ بأصوات شجية أحياناً تكون أكثر عُلواً من قدرة الفرقة الموسيقية. يرتدي المدعوون ملابس فخمة، ويأتي كل زوجين بملابس السهرة.

المسرحية الإيمائية تعرض على خشبة تقع على طرف غرفة الشرفة، ويجلس الحضور على السجادات والوسائد على الأرض. العمل يتكون ادة من ثلاث مشاهد أقوم أنا بانتاجه وكتابته شخصياً، ويناقش موضوعاً معروفاً بطريقة هزلية ولا أحد يعترض على كونه ساخراً فكاهياً.

من الأعمال الشهيرة التي قدمناها "علاء الدين"، "علي بابا والاربعين حرامي"، "القرود في الغابة" ومسرحيات كثيرة غيرها. ونشترك أنا ومارجوري وحوالي 12 شخصاً آخرون في الإعداد ورسم اللوحات التعبيرية الخلفية.

لم يكن الديكور معقداً أو مبالغاً فيه لأننا نحرص على تزيين المشهد حسب امكانياتنا الفنية. أذكر أننا صممنا منظراً ناجحاً جميلاً لطائرة، وآخر لمشهد على ظهر سفينة تنبثق خلاله حورية من حوريات البحر من الماء وتشدو بأغنيات هزيلة عذبة.

اللوحات التي استمتع جداً برسمها وتلوينها هي الأسواق المحلية في البحرين وبغداد وبكين ذوات الطابع الشرقي.

وجود الابواب الواسعة خلف الخشبة ساعدنا على التعمق فـــي مشـــاهد الشـــارع والـــديكورات الداخلية.

الملابس التي يرتديها الممثلون لأداء أدوارهم ممتازة، ونستطيع الحصول على احتياجاتنـــا مـــن سوق المنامة الذي تتوفر فيه المواد والاقمشة المناسبة للازياء المطلوبـــة. جميـــع أصـــحاب المتـــاجر والدكاكين يعلمون مسبقاً عن حفلتنا، ويشيرون إليها باسم "اختراع أو خيال بلجريف" وعنـــدما يـــذهب الأهالي لشراء الحاجيات من الدكاكين الصغيرة التي تشبه الفجوة في قلب الجدار يخبرونهم عن الأشياء التي اشتراها السيد بلجريف وزوجته.

مجموعة "الكورس" التي تشدو بالاغنية الأخيرة في العرض الإيمائي، هي نسفها كـــل عـــام ولا تتغير، وكل سنة تختلف القصائد والجمل التي يترنمون بها حسب الأحداث الجارية.

واللحن المفضل في تلك الأيام هو "تماسك وارتباط وثيق بالزحف العســـكري" وهـــي الأنشـــودة الاثيرة لدى إذاعة لندن B.B.C خلال سنوات الحرب (العالمية الثانية) والتي تقول كلماتها:

في جزيرة البحرين بالخليج

تعقد حفلة في كل ليلة رأس سنة

في جزيرة البحرين بالخليج

الطعام مدهش

الضيوف جميعهم مبتهجون ومرحون

بعد المأدبة يجلس الجميع صفاً خلف صف ليشاهدوا العرض الممتع الصامت، التمثيل عادي لكن الديكور رائع.

α α α

صبيحة السنة الجديدة يأتي زوار كثيرون أكثر من يوم عيد الميلاد لأن هذه المناســـبة رســـمية فأستقبلهم بشرفة المنزل واشعر كأنني مقيد وشبه متضايق بسبب ارتدائي لمعطفي الصباحي الرمـــادي اللون الذي اشتريته عام 1932 و لازلت ألبسه في عام 1957.

بعض البحرينيين الذين لهم علاقة حميمة معنا يدخلون إلى المنزل لتحية مـــارجوري وتهنئتهـــا بالعيد، لأنها لا تشترك معي في استقبال الزوار خلال هذه المناسبة.

بعد ذلك أرافق سمو الشيخ سلمان وعائلته إلى مبنى الوكالة السياسية البريطانية المجاور لنا لتقديم التهاني الرسمية، ثم نتوجه بالسيارات لحضور حفل الاستقبال في مقر المعتمد السياسي البريطاني الذي يبعد ثلاثة أميال عن العاصمة والواقع بمنطقة الجفير، وتسير سياراتنا ببطء بمصاحبة الدراجات النارية ورجال المرور والشرطة.

كل شخص يأتي إلى مبنى "المعتمدية" للتهنئة تتم دعوته إلى الحفل السنوي لذلك دائما يكون عدد الضيوف في كل سنة 600 شخص تقريباً.

وكنت استغرب جداً لرؤية الكثير من المدعوين وهم يرتدون النظارات السوداء والداكنة سواء كانت الشمس مشرقة أم غير مشرقة!!!

يوم رأس السنة الجديدة يجري احتفال آخر، فيتجمع خدم الشيوخ وابناؤهم أمام مبنى الوكالة السياسية وفي المساحة المحيطة بمنزلي ليغنوا ويرقصوا، الرقصات المحلية، بعضهم كبار في السن ومن الجنسين.

رقصاتهم تشبه إلى حد كبير الرقصات الافريقية التي شاهدتها من قبل في تنجنيقا والسودان حيث كنت أعمل في خدمة الجيش، فيرقصون على دقات الطبول والصنج والابواق. احدهم يرتدي حول خصره رداءاً من الجلد المعلق به مئات الاظلاف الجافة المأخوذة من الاغنام، وحينما يتحرك ويتمايل يهتز الرداء "الموسيقى" على انغام الطبول والابواق، التي من الممكن ان تحدث تجديداً فعالاً في موسيقى "الجاز" لو ادخلت عليها رقصات من النساء اللواتي تعودن الظهور في حفلات الزواج.

هؤلاء النساء إشتهرن باتقانهن السحر الأسود وباستطاعتهن التحول إلى اغنام، ويمارسون طقوسهن الغريبة في قرية قريبة من مضمار سباق الخيل.

كنت دائما أرغب في مشاهدة ما يقمن به من أعمال سحرية، لكن بسبب عدم شرعية أعمالهن، ومحاربة المسلمين الصالحين لهن، كان من الصعب وغير المقبول ان احضر مثل هذه الجلسات.

مع حلول اليوم الثاني من يناير، يعود بيتنا إلى حالته الطبيعية، بعد قضاء عطلة رسمية رغم انني لا أرتاح خلالها، وارجع بعدها إلى عملي مرة أخرى.

يريدون الجري قبل ان يتعلموا المشي!!

خلال عام 1955 ازداد الوضع السياسي سوءاً وأصبحت إجتماعات الهيئة أكثر حدّة وضراوة. وعاش التجار وأصحاب الدكاكين تحت تهديد الإنذارات والرسائل المجهولة. لقد اهتموا بحماية مصالحهم التجارية وأملاكهم وعدم لحاق الضرر بها من جراء الإضرابات وأعمال التخريب والقلاقل أكثر من إهتمامهم بالاصلاحات السياسية، ولذلك عملوا على سير البلاد بصورة طبيعية لكنهم بعد ذلك تعاطفوا مع الهيئة وساهموا بالتبرعات المالية "للأغراض الخيرية" لها.

في نفس الفترة أخذت مصر تشترك مرة أخرى بدور فعال في تصعيد الموقف في البحرين. وشنت إذاعة صوت العرب حملات عنيفة ضدي شخصياً وضد "الإمبريالية البريطانية" في الخليج، لكن كان على القاهرة إتخاذ الحذر، فلم تكن تثير المشاكل في محمية أو مستعمرة بريطانية، بل في إمارة عربية يحكمها أمير عربي ولم يكن مجديا معاداتها لحكام الخليج مهما بلغت كراهية حكومتها لبريطانيا.

هذه الحقيقة لم تمنع الصحف المصرية والسورية من مهاجمتي ومساندة الهيئة، والتأييد الذي لقيته الهيئة من مصر التي يحظى رئيسها جمال عبد الناصر بإستقطاب شعبي أكثر من أي زعيم آخر في العالم العربي، من قبل المثقفين والفئات المتعلمة أعطى دفعة قوية لها.

وزاد من حماس وطموحات أعضائها الذين غاب عن أذهانهم أن نظم الحكم بالدول الغربية وأشكال الديموقراطية فيها استغرقت مئات السنين لكي تظهر إلى الوجود، ولم يضعوا بعين الإعتبار ان اجراء ثورة دستورية في إمارة صغيرة أفرادها محدودو التعليم سوف يؤدي إلى حدوث الفوضى والتشوش الكامل. ولم يعترفوا بالمجالس واللجان التي شكلتها الحكومة كخطوة نحو المزيد من الحكم الديمقراطي، فقد أرادوا الجري قبل أن يتعلموا المشي!!.

معظم المطالب التي نادت بها الهيئة، كانت الحكومة قد اقترحتها على الشيخ سلمان وأقرها قبل تأسيسها. فقد صادق سموه على القانون القضائي، وعلى قانون العمل وعين خبيراً شرعياً للمحاكم، وأعلن عن بدء تنفيذ بعض الإصلاحات والبرامج الجديدة. وعند الإعلان الرسمي عن هذه الخطط تجاهلت الهيئة مطالبها القديمة وقدمت مطالب أخرى أصبحت مع مرور الأشهر أكثر لا معقولية وأبعد عن الواقع.

في ربيع 1955 بدأت الحكومة تناقش تطبيق قانون للعمل الذي شجعتُ ودعوت إلى وجود منذ سنوات رغم أن القانون النهائي تخطى إقتراحاتي وتصوراتي السابقة له. فقد كنت أعتقد أن الوقت لا زال مبكراً على إنشاء جمعيات مهنية بل يمكن السماح بقيامها في مرحلة لاحقة.

وعرضت الحكومة البريطانية اعارتنا خبيراً عمالياً بارزاً للمساعدة في إعداد القانون. وشكلت لجنة إستشارية عمالية لصياغة المسودة تكونت من ثلاثة ممثلين عن الحكومة، وثلاثة مرشحين من أصحاب العمل والشركات والمؤسسات الخاصة، وثلاثة أعضاء آخرين منتخبين بواسطة العمال.

بعد ذلك حل خبير عمالي ثانٍ بدلاً من الخبير الأول وبدأت اللجنة أولى جلساتها في أبريل 1955 واستطاعت في أكتوبر 1956 الإنتهاء من وضع مسودة القانون وقدمتها إلى الحكومة التي وافقت عليه بعد إجراء بعض التعديلات.

لقد كان القانون إنجازاً هاماً، لكنه للأسف قوبل بمعارضة الهيئة التي أرادت قيام إتحاد عمالي واحد يشمل جميع العمال في البحرين ويعطي سلطة قوية للمجموعة التي تديره، على افتراض ان أعضاء الهيئة هم الذين سيديرون الإتحاد. وبدأتْ في تصعيد الحملة ضدي.

عندما عزمتُ على السفر لقضاء الإجازة في يونيو من نفس العام، شعرتُ بالقلق الشديد ازاء ما يمكن أن يحدث أثناء فترة غيابي، ففي اليوم الذي سبق مغادرتي، كتبت في مفكرتي: "انني أستعد الآن للسفر وهناك شرارات كثيرة في الأفق ربما تشتعل وتسبب حريقاً هائلاً".

لكن، على عكس ما توقعت، لم تحدث أية مشاكل رئيسية خلال ذلك الصيف. ففصل الشتاء البارد هو الوقت المناسب لاثارتها، وفي الطقس الحار عندما يكون الجو رطباً غير محتمل يخلد معظم الناس إلى الهدوء وتقل الجرائم وينكمش النشاط السياسي.

كانت مارجوري قد سبقتني في السفر، وإلتقينا في لندن بعد بضعة أسابيع حيث إستقللنا السفينة المسماة الملكة اليزابيث في أول زيارة لنا إلى الولايات المتحدة كضيوف على شركة ستاندرد أويل أول كاليفورنيا. قضينا أياما مريحة بالبحر وكانت تغييراً بهيجاً عن المشاكل التي واجهناها في البحرين واستعداداً جيداً لرحلتنا السياحية غير المتوقفة التي غطينا فيها معظم الولايات الأمريكية.

ففي مدة تزيد قليلاً على الشهر سافرنا بالقطار وبالطائرة وبالسيارة شمالاً عبر الولايات حتّى وصلنا إلى مدينة بوفالو، وجنوباً حتّى نيو اورليانز وقطعنا القارّة إلى حدود الساحل الغربي، وكنا خلال الرحلة لا نقضي أكثر من ليلة أو ليلتين بنس المكان إلاّ نادراً.

ورغم المشقة والتعب الذي صادفنا إلاّ اننا غمرنا برعاية واهتمام أصدقائنا الأمريكيين وحسن استقبالهم وحفاوتهم بنا، واستمتعنا بكل لحظة من لحظات الرحلة.

نجلا الشيخ سلمان (سمو الشيخ عيسى وسمو الشيخ خليفة) كانا في زيارة للولايات المتحدة خلال نفس الفترة والتقينا بهما هناك لعدة أيام، لكنهما سافرا عن طريق البحر إلى أُوروبا قبل رجوعنا. وحققت زيارتهما نجاحاً كبيراً فقد أعطيا انطباعاً طيباً عن البحرين لدى الأشخاص الذين قابلوهم.

لقد أعجبنا ـــ أنا وزوجتي ـــ كثيراً بأمريكا. السرعة والإندفاع القوي لمئات الناس في شوارع المدن الكبيرة هما عكس ما نشاهده في الحركة البطيئة والمتمهّلة بأسواق البحرين.

أعجبتني المتاحف العظيمة والمعارض الرائعة وبعض المنازل التي زرناها، وقبل ذهابنا إلى نيويورك أخبرونا بأنها لن تروق لنا، لكننا على النقيض من ذلك، أحببناها كثيراً.

لم تصادفنا مشاكل مع سائقي التاكسي الذين حذرونا منهم وسمعنا قصصاً عديدة حول مقالبهم، ولم نشتك من التعامل مع العاملين في المحلات التجارية ذوي الأخلاق الحسنة والمتعودين على البساطة وعدم التكلف ولا من موظفي ومستخدمي الفنادق التي سكنّا بها.

في فندق سانت ديجيس بنيويورك أثناء تناولي والغداء بالمطعم، طلبت من النادل إحضار شوربة بصل.

وعندما جلبها سألني: "هل أسرفت في الشراب وأثّر ذلك عليك؟". كنت متأكداً من إنني لا أبدو كذلك فأجبته: لا طبعاً، لكن ما الذي جعلك تسأل هذا السؤال؟. فرد النادل: لأن هذه هي الطريقة التي يتبعها الناس للتخلص من آثار الشرب المفرط "Hangover".

لا أستطيع أن أتخيل وقوع مثل تلك المحادثة في فندق كلا ريدج أو فندق ريتز، كذلك لم يكن المتحدث معي وقحا أو فضولياً.

عموماً، لقد فضلنا كاليفورنيا على الساحل الشرقي. ونظراً لكوني شغوفاً وهاوياً للزراعة، فقد إنبهرت جداً بحدائقها الجميلة المدهشة، أما حدائق ولاية نيو انجلند فقد غلبت عليها الحشائش الخضراء والقليل من الزهور.

الزيارة التي إستمتعنا بها كثيراً، كانت إلى بوسطن. فعائلتي لها علاقة أو رابطة تاريخية مع هذه المدينة، وكان جدي الأكبر الأميرال جيمس ريتشارد داكرز قبطاناً وقائداً للفرقاطة البريطانية جريير

التي إشتبكت مع الفرقاطة الامريكية كونستيتيوشن بتاريخ 30 أغسطس 1812، وغرقت الفرقاطة البريطانية وأصبح جدي والضباط الآخرون الذين تم إنقاذهم أسرى حرب واحتجزوا في بوسطن. وحسبما روى داكرز فقد عوملوا معاملة حسنة جداً لان نسبة كبيرة من المواطنين فيها عارضت الحرب مع انجلترا... بعد فترة من الزمن تم تبادل الأسرى، وحينما غادر جدّي المدينة أعاد إليه معتقلوه سلاحه وذلك كنوع من الإحترام والتقدير.

في السنوات التالية عندما رقّى داكرز إلى رتبة أميرال، قابل الأميرال الأمريكي الذي كان قبطاناً وقائداً للفرقاطة كونستيتيوشن بالبحر المتوسط، وأخذ الخصمان السابقان يتبادلان الزيارات على ظهر سفنهما الحربية.

بالمناسبة فان هذه الفرقاطة الأمريكية التي يعرفها الأمريكيون بإسم أولد ايرونسايدز غرقت في ميناء بوسطن بنفس الطريقة التي غرقت بها السفينة فيكتوري على جانب رصيف التحميل بميناء بورتسموث.

قبل سنوات عديدة، في مأدبة عشاء أقامها الشيخ سلمان في قصره على شرف طاقم سفينة تابعة للبحرية الأمريكية، كنت جالساً إلى جوار ضابط شاب من مدينة بوسطن. وأثناء سير الحديث أخبرته بما حدث لوالد جدّي وعلاقته التاريخية مع تلك المدينة، فأبلغني بوجود نادٍ في بوسطن يحمل إسم الأميرال داكرز.

فتابعت هذا الأمر للتأكد من صحته وكتبت إلى عدة أشخاص في الولايات المتحدة الذين قد يكون لديهم معلومات حول الموضوع، وبعد سنوات وبمساعدة القبطان ويليام رويال من البحرية الأمريكية، اتصلت بسكرتير "نادي الفرقاطة جريير الترفيهي" الموجود في بوسطن، وهو مؤسسة أنشأت في أغسطس 1813 وهو تاريخ أول حفلة عشاء أقيمت به.

عدد أعضاء النادي محدّدون بثمانية أشخاص، جميعهم كانوا أحياء، ومعظمهم منحدرين مباشرة من الأفراد الذين كانت لهم علاقة مع الفرقاطة كونستيتيوشن.

تلك المقدمة الطويلة كانت لشرح أسباب دعوتي لحضور مأدبة غداء بذلك النادي أثناء زيارتي لبوسطن، وسررت كثيراً للقاء سبعة أعضاء فيه.

قدمت للنادي هدية تذكارية عبارة عن نسخة للوحة رسمها الفنان ريتشموند وتمثل صورة الأميرال داكرز وقدم الأعضاء لي نموذجاً مصغراً لمدفع هاون عيار 24 رطلاً، مصنوعاً من خشب الفرقاطة الأمريكية ذاتها، لكن ما زاد من سعادتي واغتباطي، إنتخابي عضواً تاسعاً بالنادي... وبعد تناول الطعام مع القبطان مارتن من البحرية الأمريكية، قمنا أنا ومارجوري بزيارة الفرقاطة كونستيتيوشن ووطأت على ظهرها كضيف شرف، بينما وطأ جدّي الأكبر عليها كأسير حرب قبل 143 سنة.

أبلغت عدداً من أصدقائي في المناطق الاخرى بالولايات المتحدة بأنني أصحبت عضواً في أعرق نادٍ بأمريكا ويضم تسعة أعضاء فقط ومن الطبيعي أنهم أرادوا معرفة التفاصيل، وعندما شرحت لهم

عن النادي كان تعليقهم: "بوسطن!، ليس من المستغرب أن يوجد مثل هذا النادي بها، فهي مدينة فريــدة من نوعها".

الفصل الثاني والعشرون

عندما سقط انور السادات في الوحل!!

اذاعة البحرين تم افتتاحها في اغسطس 1955

لولا براعة سائقي الخاص لوقعت كارثة

رجعنا إلى البحرين مع نهاية سبتمبر بعد قضاء إجازة طويلة إستغرقت ثلاثة أشهر كاملة جــدّدنا خلالها نشاطنا وحيويتنا، لكنني أيقنت بعد وصولي بفترة وجيزة بأنني بحاجة إلى طاقة هائلة لكي أتعامل مع الوضع السياسي في البلاد.

ظاهرياً، كانت الأمور تبدو هادئة، فمختلف المشاريع تسير على ما يرام ومنها مشــروع توليــد الكهرباء إلى القرى الذي شارف على الانتهاء. وأصبح المستشفى الجديد للأمراض الصدرية والســل الرئوي (ت. بي) جاهزاً للافتتاح ويحتوي على 50 سريراً، كما أن العمل في الرصيف البحري الممتد إلى مياه البحر العميقة يجرى على قدم وساق، أما مستشفى النساء، الذي لا زال قيد الانشــاء، فكنــت متخوفاً من تكاليفه والعدد الكبير لموظفيه نظراً لضخامة حجمه، لكن الأوضاع المالية للامــارة جيــدة بصورة تبعث على الطمأنينة، ولا زال بإمكان الحكومة استثمار ثلث (1/3) ايرادات النفط في البرامج الانتاجية وأسهم الحكومة البريطانية.

لكن البحرين كانت تمر بمرحلة من التوتر والقلاقل أكثر من ذي قبل.

احدى شركات المقاولات البريطانية التي تعمل بصورة مشتركة مع شركة محلية أصابتها ظروف مالية صعبة. فنشبت خلافات ومعارك بالأيدي بين موظفيها وعمالها البحرينيين من جهة والأوروبيــين من جهة أخرى، تلاها سلسلة من الاضرابات.

ومن الواضح أن قيام شركة أنجلو ــ بحرينية مشتركة ليس هناك ضمان لسلامتها وخلوها مــن المشاكل العمالية.

في تلك الأثناء سرت أنباء عن اتصالات بين الهيئة وموظفي دار الاعتماد البريطاني للخروج من المأزق الذي تمر به البلاد، ورغم انّه ينبغي التكتم على ما يدور في الاجتماعــات، إلاّ أن المواضــيع المطروحة كانت معروفة لدى الجميع ويناقشونها بحرية في سوق المنامة. وهذا التصرف أثار دهشــة واستياء كبار رجالات البلد.

قبل سفري لقضاء الإجازة عين الشيخ سلمان إيني جيمس (المعروف باسم حمد) مديراً للعلاقات العامة لحكومة البحرين، وقبل ذلك عمل بدائرة العلاقات العامة لشركة بابكو لمدة سنتين.

هذا المنصب شمل التنظيم والاشراف على إذاعة البحرين التي بدأت تبث برامجها فـي شـهر أغسطس 1955. لم تكن الاذاعة مشروعاً سهلاً، فكل مسؤول له فكرة مختلفة عن وظائفها وأغراضها المستقبلية، فالسلطات البريطانية تريدها على غرار إذاعة الـ بي. بي. سي في سنوات الحرب، لكـن وجهة نظر الحكومة هي التي انتصرت وحققت الإذاعة نفعاً عظيماً للموظفين وللحكومة وأصبحت الآن المؤسسة الأكثر شعبية بالبلاد.

في 24 ديمسبر 1955 (عشية الكريسماس)، مر بالبحرين أنور السادات المسـؤول الأول عـن الاعلام بمصر، في طريقه لزيارة الكويت، استقبلته جماهير حاشدة تجمعت بالمطار انتظاراً لوصـوله. كان الجو ممطراً والمدرج ممتلئاً بالوحل. وعند هبوط المقلة له، اندفعت الجماهير وحملته عالياً علـى أكتافها نحو مبنى المطار.

أحد الأشخاص إنزلق وسقط على الأرض، ولسوء الحظ كان ذلك الشخص هـو الـذي يحمـل المسؤول المصري. بعد ذلك، شاهدنا أنور السادات غاضباً جداً وملابسه مغمـورة بالوحـل الملـوث بالزيت.

الترتيبات كانت معدة لتناول الضيف طعام الغداء مع الشيخ سلمان بقصر الرفاع، وكانت السيارة بإنتظاره في المطار وتم الاعتذار له ومرافقته حتّى بابها.

وعند وصوله إلى القصر طلب تزويده بماء ساخن وصابون لتنظيف ملابسه، فأرشده أحد الخدم إلى غرفة حيث تم له ذلك. بعد مأدبة الغداء عاد أنور السادات إلى المطار للحاق بالطائرة ولم يتسن له الوقت للقاء الجماهير.

بالمناسبة اشتهر هذا الرجل بالهجوم المتواصل والقدح المستمر على "المستعمرين الامبريـاليين" والمستشار "الشرير" (الذي هو أنا).

صادق الشيخ على إنشاء مجلسين احدهما للصحة العامة والثاني للتعليم، وتم الاتفـاق علـى أن يكون نصف أعضاء كل مجلس معينين من قبل الحكومة، والنصف الآخر يجـرى انتخابـه، علـى أن يرأس أحد أفراد العائلة الحاكمة.

أجريت الانتخابات في شهر فبراير 1956، وتقدم لها مرشحون تـدعمهم الهيئـة ضـد ثلاثـة مرشحين مستقلين معتدلين لا يحبون الضجيج والتزمير كما فعل منافسوهم في حملاتهم الانتخابية التـي استخدموا فيها مكبرات الصوت واستعانوا بالشاحنات ليجوبوا المدن والقرى للدعاية وكسب الأصوات، وبالطبع أسفرت الانتخابات المضحكة عن فوز مرشحي الهيئة بأغلبية ساحقة.

في يوم الجمعة الثاني من مارس 1956 وَرَدَ عبر الإذاعة نبأ قيام الملك حسين، عاهـل الأردن بعزل الجنرال جلوب باشا بصورة مفاجئة، فأثار ذلك النبأ صدى واسعاً في البحرين وكان حديث جميع الأوساط. وفي ذات اليوم وصل إلى البلاد وزير الخارجية البريطاني سيلوين لويد في طريقه من لندن إلى باكستان، فاستقبله بالمطار الشيخ سلمان بمصاحبة المعتمد السياسي بالبحرين السير برنارد بروز، لكن الجماهير أساءت إستقبال الضيف وأهانته. وتعقدت الأمور أثر ذلـك وسـخن الجـو السياسـي،

وأصدرت الهيئة بياناً باللغتين العربية والانجليزية، اعتذرت فيه عما بدر من تصرفات المواطنين أثناء زيارة الوزير البريطاني، وفي نفس الوقت طالبت بعزلي، رغم أنها لم تذكر أي سبب معقول، لا في هذه المرة، ولا في المرات السابقة أو التالية، يبرر طلبها.

في تلك الأثناء كانت دار الاعتماد البريطاني تتفاوض مع أحد رجال الهيئة لاقناعه بمغادرة البحرين لفترة خمسة أشهر حتّى تستتب الأوضاع في البلاد وتعود المياه إلى مجاريها لحين الوصول إلى حل وسط. وشُكّلتْ مجالس حكومية استشارية فنصحت بوجوب جلوس الشخص موضع الهجوم الرئيسي للهيئة (وهو أنا) للتباحث مع أربعة من أعضائها على مائدة واحدة.

في البداية لم يكن الأعضاء الأربعة راغبين في المجئ إلى مكتبي لأنهم لا يريدون أن يعرف الناس باجتماعهم بي، لكنني رفضت الجلوس معهم في أي مكان آخر حيث أنني أكره الإجتماعات السرية. في نهاية الأمر وافقوا على الحضور، وكان الإجتماع ودياً للغاية. لم أصدقهم حينماً أخبروني بأنهم لا يتمنون مغادرتي للبلاد. وقد أطلعتهم على اعلان أصدره الشيخ يسمح فيه بتكوين اللجان للعمل لصالح شعب البحرين، فأعرب الأعضاء عن استعدادهم لتغيير اسم الهيئة والبدء من جديد.

وفي الحقيقة لم تكن هناك أبداً في السابق معارضة حكومية لقيام المواطنين بتشكيل اللجان شريطة أخذ ترخيص مسبق من الشيخ كإجراء تنظيمي ليوافق سموه عليها. أيضاً تطرق الحديث إلى مجلس التعليم والصعوبات التي تقف عقبة في انعقاد اجتماعاته بسبب الكراهية المتبادلة بين الأعضاء المعينين والأعضاء المنتخبين.

بعد ذلك إزدادت الأمور سوءاً وساد البلاد اضراب لمدة أسبوع، وكثرت الاضطرابات في المدينة والفوضى وأعمال الشغب ففرض حظر التجول ليلاً، وتوقفت المواصلات وأصبحت الحياة شبه مشلولة بالمنامة.

خارج العاصمة كان كل شئ هادئاً والحياة سارة عادية بين أفراد البحرية الملكية وموظفي دار الاعتماد البريطاني القاطنين بالجفير. في احدى الأمسيات كنا مدعوين إلى حفلة هناك وكان من المستحيل مغادرة المنامة. لكنني لاحظت التململ على وجوه الضيوف الموجودين ببيتي واحساسهم كأنهم حيوانات مسجونة في قفص، فوافقت على أن يذهب أربعة منهم بمرافقة زوجتي مارجوري في سيارة يقودها الشرطي التابع لي.

لقد كنا أيضاً بحاجة ملحة إلى الكيروسين الذي نستخدمه في الطبخ وتسخين الماء وعرضت "البحرية" تزويدنا به، لذلك أصبح ذهابنا إلى الجفير أمراً ضرورياً.

وصل المدعوون إلى الجهة القاصدين إليها بدون صعوبة، وبعد قضاء ساعات قفلوا راجعين، وفجأة، في طريق عودتهم على الشارع القريب من القلعة، اعترضهم بعض المشاغبين من قطاع الطرق، ولولا براعة وذكاء الشرطي عبد الله مبارك لحدث بالتأكيد مكروه لا يحمد عقباه، فقد ثبّت جهاز التعشيق (الجير) في وضع اتجاه الخلف وداس على مكبس "البترول" بسرعة 50 ميلاً في الساعة وسار إلى الوراء على طول الشارع نحو القلعة، ولحسن الحظ كانت حركة المرور متوقفة، وحينما

وصل إلى القلعة تمت حماية السيارة وإيصال الضيوف بسلام إلى مبنى "المستشارية" وهو الاسم الـذي يطلق على منزلي ومكتبي مخفورة بسيارتي جيب تابعتين للشرطة. تلك كانت الحادثة المحزنة الوحيدة التي وقعت لنا خلال أيام الاضراب.

الفصل الثالث والعشرون

الرحيل!!

العدوان على مصر والمظاهرات في البحرين!!

في فبراير 1956 عين الشيخ سلمان مجلساً إدارياً للبلاد من العائلة الحاكمة برئاسة عمّه الشيخ عبد الله بن عيسى آل خليفة البالغ خمسة وسبعين عاماً. وفي أبريل توقفت الهيئة التنفيذية العليـا عـن ممارسة نشاطاتها وولدت مؤسسة جديدة اسمها "هيئة الاتحاد الوطني" عدد أعضائها سبعة أفراد جميعهم كانوا بالإدارة السابقة.

وازدادت المطالبة بالاستغناء عن "المستشار" ومغادرته للبحرين. كنت حينها في الحادية والستين ومضى على خدمتي مع الشيخ ووالده الشيخ حمد ثلاثون سنة متواصلة، وقد تناقشت منـذ فتـرة مـع زوجتي مارجوري حول هذا الموضوع، واتفق رأينا على وجوب الرحيل، وأبلغت الشيخ بأن الوقت قد حان لإحالتي على التقاعد وأعربتُ عن رغبتي الشخصية في إعفائي من الخدمة، فوافق سمّوه على أن أغادر البحرين في خريف 1957.

الآن أصبح لي المتسع من الوقت لكي أتوجه إلى جزيرة جدة وأخلد إلى الراحة خلال عطـلات نهاية الاسبوع بعيداً عن إزعاج أجهزة الهاتف، ورجال الصحافة أو أي أشخاص مثيـرين للمشـاكل، فأخذت أذهب إلى هناك مساء كل يوم خميس ولا أعود إلى بيتي ومكتبي إلاّ فجر السبت. حينها يكـون منظر شارع البديع الجميل في غاية البهجة والشاعرية. وتبدأ خيوط شمس الصباح الرقيقة بالانعكـاس على الحشائش الخضراء تحت اشجار النخيل الباسقة التي تتدلى منها عناقيد الرطب الحمراء والذهبيـة والصفراء المنقطة من أسفل بالسواد الدال على نضجها والتي تذكرني بالتنورات التي ترتديها راقصات البالية. هذه الاجواء جعلتني اشعر بالانتعاش بعد قضاء حياة بسيطة "متكاسلة" في الهواء الطلق خـلال عطلات أسبوعية طويلة نسبياً.

وجاءت أحداث قناة السويس (العدوان الثلاثي علـى مصـر)، فـي اكتـوبر 1956 فخرجـت المظاهرات الشعبية المؤيدة للجمهورية المصرية والمطالبة بخروج "المحتلين منها" والغاضبة على الدول التي تحالفت ضدها.

وهاجم المتظاهرون الشركات البريطانية العاملة في البحرين والحقوا الاضرار بها وأتلفوا مبانيها وأحرقوا البعض الآخر، ونقلت الجاليات الاوروبية المقيمة داخل المنامة مـن منازلهـا إلـى عـوالي والجفير.

ونظم اضراب عام في الأول من نوفمبر احتجاجاً على "العــدوان" فَشُــلّتْ الحيــاة وانقطعــت المواصلات بين مدن وقرى البحرين، لكننا استعددنا لذلك بإنشاء مساحة مرصوفة تهبط عليها الطائرات قبل مدينة عوالي نستطيع عبرها توصيل الخدمات بواسطة "باص" جوي من مطار المحرّق إلى هناك.

واستمرت احداث الشغب والفوضى فأمر الشيخ بإلقاء القبض على خمسة من زعماء الهيئة فــي 11/5/ 1956 وتمت محاكمتهم بمركز شرطة البديع في 21 و22 نوفمبر بعد تعيــين هيئــة قضــائية خاصة مكونة من الشيخ عبد الله بن عيسى آل خليفة، القاضي بمحكمة الاستئناف والشيخ دعيج بن حمد آل خليفة، القاضيان بالمحكمة العليا.

وحكمت المحكمة بسجن ثلاثة من المتهمين لمدة 14 سنة والاثنين الآخرين لمدة 10 سنوات بعد ثبات ادانتهم بالتهم الموجهة لهم. وتم تسفير الثلاثة الذين نالوا المدة الاطول إلى جزيرة "سانت هيلانــة" بالمحيط الاطلسي وهي إحدى المستعمرات البريطانية، عن طريق البحر بواسطة فرقاطة تحمل نفــس الاسم. وبالمناسبة هذه الجزيرة نفي إليها نابليون بونابرت قبل اكثر من مائة عام وقضــى فيهــا آخــر سنوات عمره. بعدها عادت الأمور إلى طبيعتها بالبحرين واستتبت الاوضاع.

α α α

الفصل الرابع والعشرون

بعد الاشهر الحرجة التي مررنا بها في عام 1956، هدأ مقياس الضغط "البــارومتر" السياســي بالبحرين واستقرت الاوضاع، ومع حلول ربيع عام 1957 صار كل شئ علي ما يــرام. واســتمرت عمليات التنمية الادارية بنجاح واطراد، ومارس المجلس الذي عيّنه الشيخ مهامه على أكمل وجه، وأُعيد تنظيم مجلسي الصحة والتعليم وتطعيمهما بعناصر مؤهلة ذات كفاءة واصبحا يلعبان دوراً مفيداً لصالح البلد.

أما وضعي الشخصي فقد أصبح أسهل بكثير من ذي قبل، ولم تعد هناك مطالبــات بالاســتغناء عني، لكنني عقدت العزم على التقاعد ولا مجال للتراجع، وخططت مع زوجتي على المغادرة في نهاية العام رغم ان الشيخ سلمان حثني على تأجيل الموعد، ورفض تعيين مستشار آخر بعد ذهابي، وبدا لي أنني سأكون المستشار الأول والأخير لحكومة البحرين. وأجرى سموّه بعض التعديلات فــي الــدوائر فأعلن ترقية ج. و. ر. سميث الذي كان يشغل منصب مدير الجمارك إلى سكرتير الحكومــة، وقــرر الشيخ التعامل مباشرة مع الكثير من أُمور الدولة بمساعدة نجليه الأكبرين. ونظراً للبعد النسبي لتــاريخ سفرنا فقد علمتُ على ترتيب الأمور على مهل.

لكن... فجأة حدث ما لم يكن في الحسبان، فأصبت بعارض مرضي ألمّ بي ونقلت إلى المستشفى في 10 ابريل وقضيت هناك ليلة واحدة، أبلغني على أثرها الطبيب الجراح بأن من الضروري أن أسافر

بصورة مستعجلة إلى لندن لإجراء الفحوصات مع احتمال اضطراري لاجراء عملية جراحيـــة. هــذا الخبر الغير متوقع قطعيا كان وقعه كالصاعقة علي وعلى أسرتي، لكن لا مناص من إطاعة الطبيب.

الأسبوع التالي كان أشق وأصعب الأيام التي عانيتها طوال حياتي. وفي الأيام القليلـــة اللاحقـــة أخذت أصفّي المواضيع المعلّقة قدر الامكان وأجهز نفسي للسفر، لكن ذلك أمر شبه مستحيل بسبب كثرة المترددين على المنزل من أصدقائي البحرينيين للإطمئنان على صحتي. وأخذت أفرز جميع أوراقـــي وأمتعة العائلة الكثيرة التي جمعناها وتراكمت لدينا على امتداد 31 سنة، واختيار ما نريد أخذه معنـــا. وطبعا لا بد من توديع معارفنا وزملائنا، وبالنسبة للأوروبيين لا توجد مشكلة لأن عددهم أقل جدا ومن المحتمل أن أراهم مرة ثانية، لكن فراق البحرينيين كان أمراً يبعث على الانقباض والضيق.

عندما ذهبت لرؤية الشيخ للمرة الأخيرة كان مشهداً مؤثراً للغاية لكلينا، وأعربت له عن إمتناني واعتزازي بخدمته الطويلة ومعرفته عن قرب لعدة سنين والعمل المشترك لما فيه خير الـــبلاد. كانـــت لحظات صعبة جدا ولم أدرِ ما إذا كنا سنتقابل مرة أخرى أم لا.

تفكيك محتويات منزلنا الواسع، العامر باللوحات والكتب والتحف الصينية والأغراض الاخـــرى التي إقتنيناها على مدار نصف العمر يحتاج إلى عدة أسابيع، لكننا أنجزنا المهمة في غضون بضعة أيام بمساعدة أربعة من أصدقائنا الذين تبرعوا لقضاء تلك الأيام معنا لحزم الحقائب والأمتعة والكرتونـــات الكثيرة التي شحناها عن طريق البحر، ولحسن الحظ عندما وصلت الشحنة إلى لندن بعـــد أشـــهر لـــم تتعرض إلى الكسر إلاّ قطعة واحدة من التحف.

جميع الناس، حتّى الذين كانوا يعارضونني في السابق، غمروني بلطفهم الكبير أكثر مما تخيلت، وأجزم بأنهم كانوا صادقين، عندما تطرقوا إلى موضوع سفري، بالإعراب عن رغبتهم بعدم رحيلي.

غادرنا البحرين (أنا وزوجتي وإبنتنا بالتبني) في الصباح الباكر من يوم 18 ابريل 1957. ورغم الموعد الغير مناسب للسفر إلاّ أن المئات من البحرينيين والأوروبيين كانوا في وداعنا بالمطار. كـــان موقفاً حزيناً بالنسبة لنا، وعندما عبرت الطائرة فوق أرجاء البحرين نظرت من النافذة إلى أسفل متسائلاً ما إذا كنت سأحظى مرة أخرى برؤية جزر هذه الامارة التي عشت فيها سنوات كثيـــرة ســـعيدة مـــن عمري.

وكنت أشاهد بصورة غير واضحة، بسبب عدم إنجلاء النور، منظر جسر الشيخ حمد الذي يربط بين مدينتي المنامة والمحرق الذي استغرق مني 11 سنة كاملة لإنشائه، وكنت أملح من بعيد الشـــوارع الواسعة المستقيمة، والأرصفة البحرية الجديدة، والمدارس التي كانت في بعـــض الفتـــرات مصـــدراً للمشاكل، وإلى المستشفيات وإلى الأنوار المنبعثة من المدن والقرى التي تصلها الطاقة الكهربائية مـــن المبنى الجديد لمحطة الكهرباء.

شاهدت أيضاً منزلنا محاطاً بالأشجار العالية التي زرعتها، وعلى مسافة لا بأس بها، رأيت قصر الشيخ سلمان الأبيض اللون، وشعرت بحزن عميق لفراقه وفراق البحرين.

وصلنا إلى لندن في نفس الليلة بفضل جهود شركة الخطوط الجوية البريطانية

B.O.A.C التي ساعدتنا في إنهاء إجراءات الجمارك بسرعة لكي نستطيع تناول عشاء متأخر بالعاصمة. صبيحة اليوم التالي ذهبت إلى "مستشفى لندن"، فأعطاني الطبيب يوماً للراحة وللتمكن من رؤية المنزل الذي اشتريناه في كينسينجتون في ديسمبر الماضي لأول مرة حث كنا رتبنا عملية الشراء عن طريق الهاتف من البحرين، وقد جاء المنزل حسبا لمواصفات التي أردناها تماماً. بعد ذلك توجهت عائداً إلى المستشفى حيث رقدت لمدة شهرين تقريباً، أجريت لي خلالها عملية جراحية دقيقة جدا كللت والحمد لله بالنجاح التام. هذه هي المرة الاولى التي أعالج فيها داخل أروقة المستشفى منذ إصابتي بحمى التيفوئيد بمصر عام 1917 عندما كنت أعمل في الجيش البريطاني.

أثناء إقامتي "بمستشفى لندن" التي إستمرت شهرين، سنح لي الوقت الكافي للتأمل في السنوات الطويلة التي قضيتها بالبحرين. فباستثناء الأعوام الأخيرة، عشت حياة سعيدة ومن الصعب علي أن أتخيل حقيقة أنني لن أعود مرة ثانية إلى عملي هناك. لم اشعر بأنه مضت علينا 31 سنة كاملة منذ وصولنا ــ أنا وما رجوري ــ إلى المنامة لأول مرة في مارس 1926 ونحن لا زلنا في شعر العسل. لا زالت تفاصيل الأيام الأولى والسنوات المبكرة لمجيئنا حية في ذاكرتي، وما أكثر التغيرات التي طرأت على هذا البلد منذ ذلك الحين!!

إن التعبير الشائع الذي يقول بأن الشرق لا يتغير أبداً خاطئ ولا يعبّر عن الواقع، فليست هناك منطقة بالعالم تجري فيها التغيّرات بسرعة أكبر مما هي عليه في الشرق. لقد عاينت تطور وتقدم البحرين وتحولها من إمارة عربية صغيرة مغمورة إلى مركز تجاري وسياسي هام، وكان لي دور كبير في ذلك التحول.

وشاهدت الشعب البحريني ينتقل من مجتمع بسيط يعتمد على الزراعة وصيد البحر إلى مجتمع يعتمد بصفة رئيسية على صناعة حديثة وعظيمة إلاّ وهي إنتاج وتكرير النفط. فخلال فترة وجودي بالبلاد إرتفعت إيرادات الدولة السنوية تدريجياً من 100.000 (مئة ألف) جنيه إسترليني تقريباً إلى ما يقارب خمسة ملايين ونصف جنيه. كما شهدت نمو الوعي السياسي لدى المواطنين و"الاوجاع" المتزايدة للديمقراطية.

قبل ثلاثين سنة، عندما لم يزد عدد المتعلمين من السكان عن العشرات، القلة منهم كانت تسافر للخارج بسبب إهتمام البحرينيين كلية بشؤونهم المحلية، وعدم تقبلهم أو ترحيبهم بالنفوذ الاجنبي عليهم.

فالبريطانيون الذين يسيطرون على الخليج فرضوا إحترامهم ليس بسبب سياسة "قوة السفن المزودة بالمدافع" التي أصبحت وسيلة غير مواكبة للعصر الحديث في الاقناع، وإنما بواسطة الرجال الممثلين لهم بالمنطقة الذين يفهمون طبيعة العرب ويتّبعون سياسة واضحة المعالم، المعيشة كانت رخيصة وأذواق الناس بسيطة، طريقة حياتهم لم تتبدل إلاّ قليلاً منذ القرن الماضي، الملابس والعادات الغربية غير معروفة لديهم. علاقاتهم التجارية كانت مع الهند حيث يبيعون اللؤلؤ بأسواقها ويستوردون المواد الغذائية من هناك، ولم يكن عندهم إهتمام بالأمور الجارية في المشرق.

لكن البحرين أصبحت اليوم مكسوة "بقشرة" غربية بدرجات متفاوتة، ففي المدن تنطلق الأصوات العالية المدوية من أجهزة المذياع الموجود في كل بيت ومقهى شعبي. وهناك اليوم ست دور للسينما بالعاصمة، المنامة، جميعها تزدحم بالرواد كل ليلة. ويشاهد المواطنون البرامج الأمريكية المدبلجة في محطات تلفزيون المملكة العربية السعودية التي يمكن إلتقاطها بالبحرين، ويوجد ما يزيد عن 700 سيارة ومركبة تتزاحم على الطرقات.

وتنتشر مجموعات من المنازل الأوروبية الطراز ذات الطابق الواحد بكثرة ملحوظة، واللوحات الاعلامية للمشروبات الغازية تملأ الشوارع وتفسد جمالها. وأصبح الزي العربي والثوب البحريني موضة قديمة بين الشباب، وصارت النساء والفتيات يرتدين الملابس الأوروبية تحت عباءاتهن السوداء. وفي فصل الصيف، يسافر البحرينيون المقتدرون إلى دول أوروبا ولبنان بعد أن "إكتشفوا" بأن صحتهم لا تسمح لهم بقضاء الأشهر الحارة في بلدهم الذي ولدوا وترعرعوا فيه!!.

رغم ذلك، تسير الحياة في القرى، بصورة مشابهة لما كانت عليه منذ ثلاثين سنة، لكن أبناءها اليوم أفضل صحة ولم يعدوا يصابون بالملاريا، يعيشون في بيوت أفضل من السابق، ومستوى معيشتهم أعلى بكثير عما كان عليه آنذاك. معظم أطفالهم يذهبون إلى المدرسة، كما تتوفر لديهم المستوصفات الطبية، منازلهم مزودة بالكهرباء والماء ويتنقلون بواسطة الباصات وسيارات الأجرة (التاكسيات) والدراجات بدلاً من إستخدام الحمير. لا تفرض ضرائب على المواطنين. ولا توجد بطالة بينهم، وهناك فرص للشباب الأذكياء لكي يتدرجوا في سلّم المناصب سواء كانوا يعملون بالدوائر الحكومية أو شركة نفط البحرين (بابكو) ويصلوا إلى مراكز مرموقة في المستقبل. لكني لا زلت أشك بأنهم أسعد حالاً وأكثر إرتياحاً عما كانوا عليه قبل ذلك.

التعليم. السفر. والإذاعة ثلاثة عوامل جعلت الفئة المثقفة في الخليج العربي تتأثر بالأفكار السياسية الخارجية التي سيطرت على عقولها وعواطفها رغم عدم إستيعابها الكامل لتلك الأفكار والمبادئ. وحيث أن معظم الحملات الاعلامية المبثوثة من الإذاعات العربية تهاجم بريطانيا، فقد تغير شعور العرب والبحرينيين تجاه الانجليز وأصبحوا يمقتونهم. المثقفون في الخليج نسبتهم قليلة جداً قياساً إلى عدد السكان. لكنهم الآن أشخاص مهمون في المجتمع، وهم ينتمون إلى فئة المدرسين والموظفين ذوي الياقات البيضاء من شباب المدن، أما البقية فهي لا مبالية وغير مهتمة بالسياسة. المثقفون البحرينيون مشوشون فكرياً وغير واضحي النظرة، فرغم أنهم يهاجمون بريطانيا إلاّ أنهم معجبون بنظامها الدستوري العريق ويعتقدون بأنه لو كانت إمارات الخليج من مستعمراتها، فسوف تستمتع شعوبها بمزايا معيّنة، لكن مبادئ القومية العربية تستحوذ على ألبابهم وتُشبع تطلعاتهم وآمالهم بالوحدة العربية القوية عوضاً عن كونهم اجزاء صغيرة متباعدة. في نفس الوقت، أنا لا أعتقد بأن الكثيرين منهم سوف يرحبون ويؤيدون فكرة توجيههم والإشراف عليهم من قبل حكومة القاهرة.

الشبان البحرينيون الذين كانوا طلاباً بالمدارس أو بالجامعات العربية والأجنبية، جميعهم درسوا على نفقة الحكومة، لكنهم يعتبرون أنفسهم اليوم، بسبب دراستهم العالية، أنهم أكثر جدارة وأهلية. لا

يعترفون أو لا يقدرون، بأنه رغم ما قيل وكتب تجنياً واضراراً بحق البحـــرين، أن بلـــدهم مؤسســـات ديمقراطية وتمثيلاً شعبياً أكبر مما هو عليه في أي دولة أو إمارة خليجية أخرى.

عندما أذكر لأصدقائي البحرينيين هذه الحقيقة فإنهم يردون: يجب ألاّ نقارن البحرين وتطورهـــا السياسي بإمارات الخليج، ينبغي أن نقارن بينها وبين الدول الأوروبية كالمملكة المتحدة!! بإعتقادي أن طموحهم كبير، أكبر من الواقع.

لعدة سنوات كانت تدرى إنتخابات للعديد من المجالس واللجان العامة، وفي بعض الحالات يكون جميع أعضاء اللجان منتخبين، وفي بعضها الآخر يتم تعيين نصفهم والنصف الآخر يتم إختيـــاره عـــن طريق الإنتخاب بواسطة الشعب، ولو أن الناخبين يكونون عادة أثناء عقد الإنتخابات غير متحمسين أو مكترثين بها.

وفي مدينة المنامة وضواحيها، يسمح لربات البيوت من النساء بالتصويت في إنتخابات البلديـــة، وهو تقليد يتفوق على ممارسات العديد من الدول التقدمية الشرقية. أما المجالس واللجان التي أنشـــأتها الحكومة لمعالجة نواحي التعليم، والصحة، والشؤون القروية، والأوقـــاف، وأمـــوال القاصـــرين، مـــع البلديات المنتشرة في المدن والقرى، فهي تضم أعضاء من قطاع عريض من السكان إضافة إلى وجود ممثل لكل قرية (مختار).

لكن شباب اليوم غير صبور وضيق الصدر. فأفراده ينظرون إلى تلك المجالس واللجان التـــي تؤدي خدمات نافعة على أنها باهتة وغير مجدية لأن العمل الذي تؤديه ليس براقاً ومثيراً للإنتباه.

والرجال الذين قادوا الحركة السياسية التي شغلت وأقلقت البحرين لمدة سنتين وتسببوا في خلـــق الفوضى والإضطرابات عام 1956، كانوا مجموعة من القوميين العرب الغير مثقفين المفتقـــرين إلـــى الخبرة والحنكة السياسية. لقد إعتمدوا بصفة رئيسية على التأثير العاطفي وإهمال الحقيقة والواقـــع دون تحكيم العقل والمنطق ودون أي إعتبار للنتائج المترتبة. يدركون بأنهم غير راضـــين عـــن الأوضـــاع الحالية لكنهم يجهلون ماذا يرديون ويتمنون تحقيقه. لقد حُشيت عقولهم بالأفكار الهدامة وأقنعوا أنفســـهم بمهاجمة الحكومة.

نعم، لقد كانوا متشوشين ومترددين وغير واثقين من أنفسهم وليست لديهم سياسة محـــددة، فهـــم يغيّرون من وجهة نظرهم من حين لآخر، ولا يبدون أسباباً واضحة ومقنعة يستندون إليها في مطالبهم. ففي سنتين فقط، أصدروا 78 بياناً رسمياً عدد كبير منها مناقض كلية للآخر، كتابـــاتهم تبعـــث علـــى الغرابة، فما ينادون به شئ، وما يطبقونه شئ مختلف. لقد كانوا خاضعين لضغط المجموعـــات داخـــل "هيئتهم"، وفي أحيان كثيرة تضطر قيادتهم إلى تغيير آرائها بهدف إرضاء جماعة أو أخرى.

بعد حلّ الهيئة في عام 1956، كتب أحد أعضائها إلي قائلاً إنه لم يكن يوافق على العديـــد مـــن التصرفات التي قامت بها، واعتقدت في البداية بأن هذا الرجل مماطل وغير صـــادق، لكننـــي عنـــدما عرفت بأنه هدد بالإستقالة عدة مرات لأن الهيئة تعمل ضد مصالح جماعته، أيقنت أنه يعبّر عن حقيقـــة رأيه.

عندما يزور أعضاء الهيئة ومؤيدوها القاهرة، كما تعودوا دائماً، فإنهم يصفون أنفسهم "بحركة المقاومة" البحرينية، لكن عند سؤالهم: المقاومة ضد من؟ فإنهم يجدون صعوبة في الرد على هذا السؤال! وبمناسبة الحديث عن القوميين العرب... أتذكر أنني إلتقيت بعبد الناصر عندما توقف في مطار البحرين لمدة ساعة واحدة في طريقه لزيارة الهند ولم يكن قدومه إلى البلاد متوقعاً أو معلناً عنه، وحيث أن الشيخ سلمان لم يستلم إشعاراً رسمياً بذلك، فلم يتوجه لإستقباله.

أحداث عامي 1955 و1956 عادت بالبحرين إلى الوراء!!

الانسحاب البريطاني هروب من المسؤولية!!

حنيني للبحرين يزداد يوما بعد يوم

يسألني الناس باستمرار: ما هو الحل بالنسبة لمستقبل إمارات الخليج العربية؟ . العديد من الآراء طرحت حول هذا الموضوع، البعض أيّد إنسحاباً بريطانياً سريعاً بإنهاء المعاهدات والالتزامات التي تربطها معها والتي تنص على حمايتها من الاعتداء الخارجي، وإعطاء هذه الدول الفرصة لتتحمل النتائج بنفسها. هذا الرأي في اعتقادي يعتبر هروباً من المسؤولية كما يسئ لسمعة بريطانيا (أو بقايا سمعتها) في الشرق الأوسط إن هي أقدمت على هذه الخطوة بجانب أنه سيتسبب في خلق متاعب كثيرة ومشاكل خطيرة للامارات إضافة إلى المصاعب التي تواجهها الآن.

أشخاص آخرون دعوا إلى حث بريطانيا على تهيئة المناخ السياسي لا نتهاج دول المنطقة أشكالاً أكثر ديمقراطية، ومعظم هؤلاء الأشخاص رجال ناضجون ممن عاصروا سنوات طويلة من نمط الحكم الموجود بالخليج.

برأيي أن وجهة النظر هذه من الصعب تحقيقها وذلك استناداً إلى تجربتي التي امتدت 31 عاماً متواصلة في البحرين. إن الديمقراطية عملية تنموية دقيقة يتم تطويرها بالتدريج بصورة متأنية ومن غير تسرع.

فالبلاد كانت في بداية مسيرتها الديمقراطية لولا الاحداث السياسية التي عصفت بها في عام 1955 و1956 والتي أرجعت البحرين سنوات إلى الوراء بدلاً من أن تعجل بنموها. وتقدّم بريطانيا دائماً النصح والاستشارة لدول الخليج، لكن عندما لا تسير الأمور على ما يرام، فإن اللوم والانتقاد يوجه إليها.

وبالنسبة للبحرين اهتزت ثقة الشعب بالسياسة البريطانية وأتوقع تقديم أنماط جديدة للحكم تكون أكثر ليبرالية في السنوات القليلة القادمة وبطريقة تدريجية، لكن يا محاولة لتسريع العملية سواء من قبل الجهات الرسمية والأهلية أو بواسطة الضغط السياسي الخارجي، سينتج عنها كارثة، وللاسف فإن الموقف الحالي في الشرق الأوسط يسير نحو التغيير بصورة سريعة جداً لدرجة أصبح معها المثل العربي القائل "العجلة من الشيطان" غير مطابق للواقع.

مجموعة ثالثة من المهتمين بالموضوع تؤمن بأن بريطانيا ينبغي أن تساند الأنظمة الخليجية مهما كان شكل الحكم في إماراتها. والذين يميلون إلى هذا الرأي يفترضون أن معارضة الانجليز والحكومات الخليجية مصدرها الشيوعية لكن الحقيقة التي لا مراء فيها أن شعب البحرين لا يتعاطف مع المذهب الشيوعي ونفس الشئ يمكن أن يقال عن دول الخليج الاخرى بالرغم من وجود بعض العناصر الماركسية العربية في الكويت والتي قدمت إليها من الدول المجاورة كالعراق عندما أصبحت الكويت موطن الثروات بفضل التدفق الهائل للنفط في أراضيها. إن نمو الطبقة الوسطى وزيادة الازدهار الاقتصادي الذي امتد إلى جميع المستويات إضافة إلى التحسن الملحوظ في مستوى المعيشة هي بعض العوامل التي تجعلني أعتقد بعدم كسب الشيوعية لقاعدة جماهيرية بين صفوف المواطنين العرب في الخليج مستقبلاً.

وحركة القومية العربية في البحرين لم تكن تستلهم مبادئها من الماركسية، بل هي تعبير عن رفض وسخط المثقفين ضد الانظمة الإستعمارية وهي مشابهة للحركة التي قامت عام 1938 وتم القضاء عليها.

لا أعتقد أنه من السهل الإجابة على التساؤل المتعلق بالتكهن بمجريات الأحداث في إمارات الخليج في السنوات القادمة. أحد الحلول المحتملة هو ضرورة تشكيل اتحاد فيدرالي واتفاقيات تربط الامارات وتغطي مسائل مشتركة كالتجارة والهجرة والتعامل النقدي.. الخ، مع الاستعانة بمجموعة من الخبراء لتقديم المشورة الفنية لكل إمارة حول كيفية الاستغلال الامثل لمواردها الاقتصادية كالزراعة وصيد الاسماك والصناعات الخفيفة والذين باستطاعتهم أيضاً توجيه الارشادات بالنسبة للمشاريع الانشائية والكهربائية والهندسية الضخمة.

ومن المتوقع ان يكون الاتحاد مشابهاً لما تم التوصل إليه مؤخراً في محمية عدن، فالاتحاد سيرضي جزئياً رغبات وطموحات المواطنين الخليجيين بالانتماء إلى دولة أكبر وربما يتضح لهم أنهم كلما كانوا أكثر توحداً واندماجاً أصبح بإمكانهم تشكيل قوة كبيرة لمواجهة الاخطار والتهديدات.. هذا الاتحاد الفيدرالي من المحتمل أن يتألف من مجلس يضم جميع حكّام الخليج أو ممثليهم.

قبل سنوات كانت فكرة الاتحاد متداولة على نطاق واسع في البحرين لكن الخطة لم تخرج إلى حيّز التنفيذ لوجود بعض العقبات وهناك اليوم احتمال ضعيف بعقد اتفاقية شاملة لجميع إمارات الخليج.

والكويت اليوم (1959) تبلغ إيراداتها السنوية أكثر من 100 مليون جنيه استرليني وعدد سكانها حوالي 200 ألف نسمة، أما قطر فيبلغ دخلها 16 مليون جنيه تقريبا وعدد سكانها يقارب 30 ألف شخص.

والبحرين تصل إيراداتها السنوية زهاء 5.5 مليون جنيه وتعداد سكانها يقدر بـــ 145 ألف نسمة، بينما إيرادات إمارات الساحل المتصالح متواضعة ومساحات معظمها صغيرة إلى جانب قلّة سكانها.

وهناك بعض القضايا التي يجب ايجاد حلول لها قبل تبلور فكرة الاتحاد وترجمتها إلى حقيقة واقعة مثل مشاكل الحدود بين بعض إمارات الخليج ومسألة رئاسة المجلس، وبالرغم من العقبات

والصعوبات وحاجة هذه الامارات إلى استمرار الحماية البريطانية لها من التدخل الخارجي، فإنه فـي حالة انبثاق الإتحاد، من الممكن أن يكون الحل الملائم لمستقبل دويلات الخليج لبضع سنوات لاحقة.

مضى الآن أكثر من سنتين على تقاعدي عن العمل في خدمة الشيخ ولا زال إبني جيمس يعمـل لدى حكومة البحرين. أنا وزوجتي حالياً مشغولان بالكامل بأنشطة تطوعية متعددة، لكن حنيني للبحرين واهتمامي بتطورها يزداد كل يوم بدلاً من أن يقل. ولا شئ يسعدني أكثر مـن استضـافة الاصـدقاء البحرينيين الكثيرين في منزلي بلندن حينما يأتون لزيارة بريطانيا. بعضهم أصـدقاء وزمـلاء عمـل اشتغلوا معي بإخلاص لمدة 30 عاماً وإليهم أدين بفائق التقدير والامتنان، وبعضهم أبناء الرجال الـذين عملوا معي. وأول ما يشاهده الزائر لمنزلنا هو صورة سيدي الشيخ سـلمان الـذي لـن ننسـى أنـا ومارجوري أبداً ما غمرنا به من حب وحنان وما شملنا به من تقدير وسخاء هو ووالده الشيخ حمد من قبله.